شَرْحُ كتاب
ثلاثة الأُصول وأدلَّتها

لشيخ الإسلام والمُسلمين مجدّد الدِّين

محمّد بن عبد الوهاب المُشرفي التَّميمي

المتوفّىٰ سنة (١٢٠٦)

رحمه الله تعالىٰ

لفضيلة الشّيخ

صَالح بن عبد العزيز آل الشَّيْخ

حفظه الله تعالىٰ

النسخة الإلكترونية الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حقَّ الحمد وأعلاه، وأشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدِّين.

اللّٰهم إنَّا نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحا، ودعاءً مسموعًا، وقلبًا خاشعًا.

اللّٰهمَّ هب لنا من لدنك رحمة، وهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا، اللّٰهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا، يا أكرم الأكرمين.

أمَّا بعدُ..

نسأل اللهَ -جلَّ وعلا- أن يرزقَنا العلم النَّافع والعمل الصَّالح وأن يجعلنَا من الذين يتعلَّمون العلمَ لوجهه لا يريدون به عرَضًا من الدُّنيا، ونسأل اللهَ -جلَّ وعلا- أن يبصِّرنا بالحقِّ وأن يمنّ علينا بالالتزام به،

مَوْقِعُ التَّفْرِيغِ
للدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

وبالثَّبات عليه، حتى يتوفّانا وهو راضٍ عنّا.

هٰذه الدُّروس متنوّعة، فمنها:

درسٌ في ثلاثة الأصول وهي رسالة لإمام هٰذه الدَّعوة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

وبعدها درس في الورقات للجويني في أصول الفقه.

وهٰذا بعد العصر، وبعد المغرب إن شاء الله تَعَالَىٰ، يكون ثَمَّ درسان:

الأوَّل في التَّفسير؛ وسنفسِّر -إن شاء الله تَعَالَىٰ- سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾؛ المسمّاة سورة الملك.

وبعدها درس في الحديث؛ نشرح فيه -إن شاء الله تعالى- ما نتمكَّن من شرحه من الأربعين النَّووية، على وجه الاختصار والإيضاح إن شاء الله تعالى.

سبب الاختيار: أنَّ هٰذه الدُّروس مدَّتها وجيزة أوَّلًا من حيث الزَّمن؛ لأنها مُقْتَطَعة من هٰذه العُطلة، وبالتَّالي هي غير متّصلة، فلهٰذا يناسب أنّ يشرح فيها أشياء تُنبِّه طلَّاب العلم إلى ما يجب أن يسلكوه في طلب العلم؛ لأنَّ الكثير من الشَّباب يحبُّ العلم، ويروم طلَبَه، لـٰكنّه لا يُوَفَّق إلى الطَّريق الصَّحيح لطلب العلم، فمنهم من مضى عليه سِنُون عددا يقرأ وربَّما يبحث، لـٰكن لو فتّش في نفسه لوجد أنه لم يحصّل من العلم ما به يكون على أرضٍ يُمْكنه المشي عليها في طريق العلم اللَّاحِبِ[1] الطَّويل، وسبب ذلك أنه فقد التَّأصيل العلمي الذي كان يعتني به العُلماء منذ قرون كثيرة.

رسالة **ثلاثة الأصول**، رسالة مهمّة لكلِّ مسلم، وكان العلماءُ - أعني

---

(١) **اللَّاحبُ** هُو: الطَّريقُ الواسِعُ المنْقَادُ الَّذي لا يَنـقَطِعُ [النِّهايَـة: ل ح ب].

علماءَنا – يعتنون بها شرحًا، في أوَّل ما يشرحون من كتب أهل العلم؛ ذلـك لأنَّ فيها الجواب عن أسئلة القبر الثلاث؛ ألا وهي سؤال الملكين العبدَ عـن ربِّه وعن دينه وعن نبيِّه، وهي ثلاثة الأصول، يعني: معرفة العبد ربَّه؛ وهـو معبوده، ومعرفة العبدِ دينه؛ دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبـد نبيَّـه عَلَيْـهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، فمن هٰهنا جاءت أهمية هٰذه الرِّسالة؛ لأنَّ فيها من أصـول التَّوحيد والدِّين الشَّيء الكثير.

وأصول الفقه مهمَّة أيضًا والعناية بها ضعيفة – فيما أحسَـب وأسـمع –، وتـأتي أهمِّيتهـا لأنَّـه كثُـر المجتهـدون دون معرفـةٍ لأصـول الاسـتنباط، والاستنباط له أصوله؛ أصول الاستنباط هي أصول الفقه، فكم سمعنا مـن متكلِّم في المسائل الشَّرعية لم يحسـن الكـلام عليهـا تأصـيلًا ولا اسـتنباطًا، ويظنُّ أنَّه محسنٌ مصيبٌ في استدلاله، لم؟ من أين أتاه الغَلَط؟ أتاه من ضعفه بأصول الفقه.

نعم، إنّ هٰذه الورقات مقدَّمة في أصول الفقه، لم تشتمل من أصول الفقه إلَّا على أشياء يسيرة، فـلا تهيِّـئ تلـك الرِّسـالةُ طالـبَ العلـم إلى أن يفهـم الأصول كما ينبغي، ولكنَّها تعطيه مفاتيح يدخل بها بيت أصول الفقه.

وأمَّا التَّفسير فتأمَّلتُ فترة فيما أختاره في التّفسير، هل أختار تفسير سورة الفاتحة؟ أم أختار تفسير جزء عمّ؟ باعتبار أنَّه كثيرًا مـا يُقـرأ في المسَـاجد في

الصَّلوات الجهرية، وربَّما قـرأه أكثـر المسـلمين ـ بلْـه طـلاب العلـم[1] ـ في صلاتهم و ربَّما لم يدركوا أو لم يعلموا كثـيرًا مـن معـاني التـي يتلونهـا كثـيرًا ويسمعونها كثيرًا، لٰكن لقصر الوقت نظرتُ في أنَّ سورة (تبارك) اشتملت على أصولٍ عظيمة، ويمكن ببيان وتفسير آياتها ما يُنبَّـه طـلاب العلـم عـلى ضرورة الاعتناء بالتَّفسير، خاصة تفسير الآيات التي تحفظُها، والتي تقرأُهـا في صلاتك والتي تسمعُها، فكم يُعاب المرء أن يَسمع كلامًا يردَّد عليه وهـو يجهل معناه، تُردد عليه قصار السُّور وربما جهِـل بعـض تلـك المعـاني لـيس الجهل عيْبا، لكن الإصرار عـلى الجهـل هـو العيـب، ومـا أحسـن قـول أبي الطيِّب المتنبِّي حيث قال: [منَ الوافِـرِ]

و لَـمْ أَرَ فِي عُـيُوبِ النَّـاسِ عَـيْـبًـا　　　كَـنَـقْـصِ الـقَـادِرِينَ علَى الـتَّـمَـامِ

وأنتم أيها الشَّبَبَـةُ قادرون - بلا شك - على الـتعلُّم، قـادرون عـلى الفهـم، قادرون على الفقه، لـٰكن العيبُ يأتي من إضـاعة الوقـت في غـير مـا ينفـع، التّفسير مهم ومعرفة معاني الآيات وسيلة – لاشك - من وسائــل الثَّبـات على الإيمان، وتحصيل العلم النَّافع.

بعـد التَّفسـير الأربعـون النَّوويـة، وهٰـذه الأربعـون النَّوويـة جمعـت أحاديث، شهد العلماء بعد مُحي الدِّين يحيى بن زكريـا النَّـووي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَـالىٰ رحمة واسعة- على حسن اختِـياره لـها، وعـلى أنَّهـا جمعـت الأحاديـث التـي عليها مدار الإسلام، لهٰذا اعتنى العلماءُ بشرحها، هٰذه الأربعون ينبغـي لنـا أن نحفَظَها، وينبغي أن نفهم معانِيَها، وأن نقرأَ ما قاله العلماء في شرحها.

---

(١) بَـلْـهَ: اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى: دَعْ، ولها وُجُوه أخـرَى انظُرهـا في (مُغْنـي اللَّبيـبِ) لابْـنِ هِشَـامٍ رَحِمَهُ اللهُ (١/ ١٠٢ ط إحياءِ التُّراث).

هٰذه مقدِّمات لهٰذه الدّروس، هٰذه المقدِّمات التي قدَّمتُ بها، أردتُّ منها أن أرشدك إلى أنَّ العلم لا يُنال مرَّة واحدة، وإنَّما يُنال العلم على مرّ الأيام والليالي، كما قال ابن شهاب الزُّهري -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-، فيما رواه ابن عبد البر في كتاب الجامع قال: " **من رام العلمَ جملة ذهب عنه جملة، إنَّما يُطلب العلم على مرِّ الأيام والليالي** "[1] وهٰذا حق، العلم يبدأ بتحصيل صغاره قبل كباره، إذا حصَّلت صغار المسائل قبل الكبار فأنت على طريق العلم، وأمَّا إذا ابتدأت بالكبار دون معرفة الصِّغار؛ صغار المسائل؛ واضحات المسائل، وابتدأت بالكبار التي فيها خلاف، تحتاج إلى بحث، تحتاج إلى ترتيب، تنازع العلماء فيها، كما هو ديْدن بعض طلبة العلم، أو بعض المبتدئين في العلم، فإنه يذهب عنك العلم، لهٰذا أؤَكد على ضرورة تأصيل العلم والسَّير فيه خَطوة فخَطوة، وإنَّما يُطلب العلم على مرِّ الأيَّام واللَّيالي: [منَ السَّرِيع]

اليَوْمَ عِلْمٌ وغَدًا مِثْلُهُ مِنْ نُخَبِ العِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّلُ المَرْءُ بِهَا حِكْمَةً وإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطْ[2]

وهٰذا واقع؛ وقد ذكر الخطيب البغدادي بإسناده في كتاب (**الجامع ببيان**

---

(١) جامِعُ بَيَانِ العِلْمِ وفَضْلِه (١/ ٣٥٩ رقم ٦٥٢ ط أبي الأشْبال) و(رامَ) أيْ: طلَبَ [القاموس: ر و م].

(٢) نَسَبهُما السُّيُوطيُّ في (بُغيَةِ الوُعاةِ) إلَى بَهاءِ الدِّينِ ابنِ النَّحَّاسِ الحلبيِّ النَّحْوِيِّ (١/ ١٣ــ ١٤ برقم ١٦، ط: دار الفكر).

أدب السَّامع) ذكر حكاية عن أحد رواة الأحاديث، بأنه طلب العلم، وحرِص على لقاء الشُّيوخ، وأخذ عنهم، لٰكنه لم يحفظ، مرّت عليه الأيَّام ولم يحفظ، لم يفهم، ومضى الوقت وهو على هٰذا، فظنَّ أنه لا يصلح للعلم فترك العلم، فبينما هو يسير مرَّة إذا بماء يتقاطر على صخرة، وهٰذا الماءُ قد أثَّر في الصَّخرة، فحَفَرَ فيها حفرة، فنظر متأمِّلا فقال: هٰذا الماءُ على لطافته أثّر في هٰذا الصَّخر على كثافته، فليس العلم بألطفَ من الماء، يعني بأخف من الماء، وليس قلبي وعقلي بأكثف من الصَّخر. ورجع يطلب العلم من جديد، وحصَّل وأصبح من رواة الحديث الذين لهم شُهرة[١].

إذن فالعلم يحتاج إلى مواصلة، لا نيأس، نواصل، نواصل، نحفظ، نُدارس، لٰكن ينبغي؛ بل يجب أن يكون على أصوله خطوة فخطوة، ومن بدأ بالأهمّ ثم أعقبه بالمهم، فإنه يحصِّل إن شاء الله تَعَالىٰ.

نبدأ بثلاثة الأصول نفعني الله -جلَّ وعلا- وإياكم بها:

[هٰذا سؤال لطيف يقول: ما إعراب ثلاثة الأصول وأدلتها؟ ولماذا لم يقل المصنِّف: الأصول الثلاثة وأدلَّتها وما هي العبارة الأصح؟

الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ تعالى- له رسالة أخرى بعنوان (الأصول الثلاثة) رسالة صغيرة أقلّ من هٰذه علـمًا؛ ليُعَلَّمها الصّبيان والصّغار، تلك يقال لها: الأصول الثلاثة، وأمَّا (ثلاثة الأصول) فهي هٰذه التي نقرؤها، ويكثر الخلط بين التَّسميتين، ربَّما قيل لهٰذه: ثلاثة الأصول، أو الأصول الثَّلاثة، لكن تسميتها المعروفة أنها (ثلاثة الأصول وأدلتها)[٢].

(١) انظُر: الجامعَ لأَخلاقِ الرَّاوي وآدابِ السَّامعِ (٢/ ٢٦٢، برقم ١٥٩٥).

(٢) (ثَلاثةُ الأُصُولِ) في الدُّرَرِ السَّنيَّةِ (١/ ١٢٥-١٣٦)، (الأُصُولُ الثَّلاثةُ) في الدُّرَرِ السَّنيَّةِ =

إعراب ثلاثةُ الأصولِ وأدلتها:

ثلاثة: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هٰذه؛ (هٰذه ثلاثةُ) خبر مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه الضَّمّة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

الأصول: مضافٌ إليه مجرور بالتَّبعية وعلامة جرِّه الكسرة الظَّاهرة على آخره.

الواو: عاطفة.

أدلةُ: معطوف على (ثلاثة) مرفوع بالتَّبعية -تبعية العطف- وعلامة رفعه الضَّمَّة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

ها: ضمير متَّصل مبني على السُّكون في محلِّ جر بالإضافة][1].

۞۞۞۞۞

=

(١/ ١٤٧ـ١٥١).

(١) ما بينَ المعكُوفَينِ [....] مأخُوذٌ منَ الوجهِ الأوَّلِ منَ الشَّريطِ الأوَّلِ لشَرْحِ الشَّيْخِ حفظه اللهُ علَى متْنِ الوَرَقاتِ.

المقدِّمةُ الأُولى.. أربعُ مسائِلَ يَجبُ تعلُّمُها

اعْلَمْ ـ رَحِـمَكَ اللهُ ـ أَنَّـهُ يَـجِبُ عَلَـيْـنَـا تَعَـلُّمُ أرْبَـعِ مَسَـائِـلَ:

الأُولَى: العِـلْمُ، وهُو: مَعْرِفَـةُ الله ومَعْرِفَـةُ نبـيِّـهِ ومَعْرِفَـةُ دِينِ الإسْلامِ بالأَدِلَّـةِ.

الثَّـانِـيَـةُ: العَـمَلُ بـهِ.

الثَّـالِثَـةُ: الدَّعْوةُ إلَيـهِ.

الرَّابعَـةُ: الصَّبرُ علَى الأَذَى فِـيه.

والدَّليلُ قولُه تَعالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

قالَ الشَّافِعِـيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَوْ ما أَنْـزَلَ اللهُ حُجَّـةً علَى خَلْـقِه إلَّا هـذِه السُّـورةَ لَـكَـفَـتْـهُـمْ)[1].

و قَـالَ البُخـارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعـالَى: (بَـابٌ: العِـلْمُ قَـبْلَ القَـوْلِ والعَـمَلِ؛ والدَّلِـيلُ قَـولُـهُ تعـالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[2]؛

---

(١) وفي لَفْظٍ: (لَوْ تدَبَّـرَ النَّاسُ هذِه السُّورةِ لوَسِعَـتْهمْ) انظُرْ تفسيرَ ابْنِ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقالَ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كـما في مقدِّمةِ المجمُوعِ (١/ ٤٠ عالم الكتب) ـ: (النَّـاسُ في غفْلَـةٍ عن هذِه السُّورةِ).

(٢) سُورةُ محمَّدٍ ﷺ، الآية (١٩).

فَبَدَأَ بِالعِلْمِ) [1] **قَبلَ القَوْلِ والعَمَلِ.**

الشَّرحُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، قال الشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- في أوَّل هٰذه الرِّسالة: (**اعلمْ - رحمكَ اللهُ -**)، أو (**اعلم رَحمنيَ الله وإيَّاك**) وهٰذا فيه التَّلطّف، وفيه تنبيه إلى أنَّ مَبْنى هٰذا العلم على التَّلطُّف وعلى الرّحمة بالمتعلِّمين؛ لأنَّه دعا له بالرّحمة.

وكان العلماء يَرْوُون ويُرَوُّون لمن بعدهم فيمن طلب الإجازة بالحديث رواية حديث: « **الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمنُ**»، وهٰذا الحديث هو المعروف عند أهل العلم بالحديث بالمسلسل بالأوّليَّة؛ لِمَ؟ لأنَّ كلَّ راوٍ يقول لمن

(١) «صَحيحُ البُخارِيِّ» رَحِمَهُ اللهُ (كتابُ العلْمِ، بابُ العلمِ قَبلَ القَوْلِ والعملِ).

بعده: **"وهو أوَّل حديث سمعته منه"**، فعلماء الحديث يروون هٰـذا الحـديث لتلامذتهم ويكون أوّل حـديث فـيما يـروون، ألا وهـو حـديث «**الرَّاحِمُـونَ يَـرْحَمُـهُمُ الرَّحمنُ**».

ففي الإجازات ترى أنَّ كُلّ شيخ يقـول عـن شـيخه: (حـدثني فـلان ـ وهو أوَّل حديث سمعتُه منه ـ قال: حدثني شيخي فلان ـ وهو أوَّل حديث سمعته منـه ـــ.. إلى أن يصـل إلى منتهـاه: قـال رسـولُ الله ﷺ: «**الرَّاحِمُـونَ يَـرْحَمُـهُمُ الرَّحمنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَـرْحَمْكُمْ مَن فِي السَّماءِ**» [(١)].

قال العلماء: سبب ذلك أنّ مبنى هٰذا العلـم الرّحمـة ونتيجتـه الرّحمـة في الدُّنيا وغايته الرَّحمة في الآخرة.

لهٰـذا الشّيخ رَحِمَهُ اللهُ نبّه على ذلك تنبيهًا لطيفًا دقيقًا حيـث قـال: (**اعلـمْ – رحمكَ اللهُ –**)؛ دعاء للمتعلِّم بالرَّحمـة؛ ذلـك لأنّ مبنـى الـتَّعلم بـين المعلـم والمتعلِّم هو التَّراحم كلٌّ بما يناسبه.

* (**يَجِبُ عَلَينَـا تَعَـلُّمُ أَرْبَـعِ مَسَائِـلَ**): الوجوب هٰهنا المقصـود بـه: مـا

---

(١) أخرجَـه أحمَـدُ رَحِمَهُ اللهُ (ح٦٤٩٤)، وأبُـو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللهُ (ح٤٩٤١)، والتِّرمِـذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٩٢٤) وغيْرُهمْ، وانظرْ تخرِيجَهُ في الصَّحيحةِ للشَّيْخِ الألبانيِّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٩٢٥)، من حديث عبد الله بـن عمـر، وقَـدْ أفْـرَدَ جماعَـةٌ منَ العُلماءِ هـٰذَا الحديثَ بِالتَّـأليفِ، تَرى طرفًـا مـن ذلِـكَ مخطُوطًـا ومَطبُوعًـا في (**مُعجَمِ الموضُوعاتِ المطرُوقةِ في التَّـأليفِ الإِسْلاميِّ**) لعبدِ الله الـحِبْشيِّ اليمنـيِّ (١/ ٦٢٦ ـ ٦٢٧ ط المجمَّع الثَّقافيِّ بأبوظَبي).

مَـــوْقِـــعُ الـتَّـفْـــرِيـــغِ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com
سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

يشمل الوجوب العيني، والوجوب الكفائي.

* فأمَّا بالنسبة للأول ـ ألا وهو العلم ـ فما ذكره واجب علينا أن نتعلمه وجوبًا عينيًّا؛ ألا وهو معرفة ثلاثة الأصول: معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرفة العبد نبيه ﷺ.

هٰذا واجب؛ فمِثْل هٰذا العلم لا ينفع فيه التَّقليد، واجب فيه أن يحصله العبدُ بدليله، والعبارة المشهورة عند أهل العلم أنَّ: (**التَّقليد لا ينفع في العقائد**)؛ بل لابد من معرفة المسائل التي يجب اعتقادها بدليلها، هٰذا الدّليل أعم من كونه نصًّا من القرآن أو من سنَّة أو من قول صاحب أو من إجماع أو قياس، وسيأتي تفصيل الدَّليل -إن شاء الله تَعَالىٰ- في موضعه.

التَّقليد هٰذا لا يجوز في العقائد عند أهل السُّنة والجماعة، وكذلك لا يجوز عند المبتدعة من الأشاعرة والماتريدية والمتكلِّمة؛ لكن تنتبَّه إلى أنَّ الوجوب عند أهل السنة يختلف عن الوجوب عند أولئك في هٰذه المسألة، والتَّقليد عند أهل السّنة يختلف عن التَّقليد عند أولئك.

فأولئك يرون أنَّ أوَّل واجب هو: النَّظر؛ فلا يصحُّ الإيمان إلَّا إذا نَظَرَ، ويقصدون بالنَّظر: النَّظر في الآيات المرْئية، في الآيات الكونية، أيْ: ينظر إلى السَّماء؛ يستدلّ على وجود الله -جلَّ وعلا- بنظره، أمَّا أهل السنة فيقولون: يجب أن يأخذ الحق بالدّليل، وهٰذا الدّليل يكون بالآيات المتلوَّة.

أولئك يحيلون إلى الآيات الكونية المرئية بنظرهم، بنظر البالغ، وأمَّا أهل السُّنّة فيقولون: لابدّ من النَّظر في الدَّليل، لا لأجل الاستنباط؛ ولٰكن

لأجل معرفة أن هٰذا قد جاء عليه دليل.

في أي المسائل؟ في ما لا يصح إسلام العبد إلَّا به، مثل: معرفة المسلم أن الله -جلَّ وعلا- هو المستحقُّ للعبادة وحده دون ما سواه، هٰذا لابد أن يكون عنده برهان عليه، يعلمه في حياته ولو مرة(١)، يكون قد دخل في هٰذا الدِّين بعد معرفةٍ للدَّليل، ولهٰذا كان علماؤنا يعلِّمون العامَّة في المساجد، ويحفِّظونهم هٰذه الرِّسالة **(ثلاثة الأصول)** لأجل عظم شأن الأمر(٢).

أوَّل المسائل الأربع التي يجب علينا تعلُّمها: **(العلم)** والعلم أُجمله هٰهنا بما سيأتي تفصيله في الرِّسالة؛ فالرِّسالةُ - رسالة ثلاثة الأصول - شرح لهٰذا الواجب الأوَّل.

* الثَّاني **(العمل)**: العمل بالعلم، والعمل بالعلم منه ما ترْكه كفر، ومنه ما تركه معصية، ومنه ما تركه مكروه، ومنه ما تركه مباح؛ كيف يكون

---

(١) انظُرْ تَتِمَّةَ هـذَا البَحثِ على منهجِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعـةِ في كلامِ الشَّارِحِ حفظَه اللهُ ص (٦٨) وما بعدها وأيضا ص (١٥٩) وما بعـدها مـن هـذَا الشَّـرْحِ، وانظُـر في مسـألةِ **(أوَّل واجـبٍ علَى المكلَّـفِ)** أوَّلَ المجلَّدِ الثَّامِنِ منْ درْءِ تعارُضِ العَقـلِ والنَّقْـلِ لِشَـيخِ الإسـلامِ، ط: جامعـة الإمـام، الرِّياض.

(٢) كما كانَ مُصَنِّفُها الإمامُ رَحِمَهُ اللهُ يُلَقِّنُها الطَّلَبَـةَ والعامَّـةَ ليدرُسُـوها ويحفَظُوها وتَسْتَـقِرَّ في قُلُوبِهِمْ (شرحُ ثَلاثَة الأصولِ للشَّيخِ ابْنِ بازٍ رَحِمَهُ اللهُ ص ٢١)، وكانَـتْ تُـقْرَأُ علَى الشَّـيْخِ محمَّـدِ بْـنِ إِبْراهيمَ آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ ويَشْرَحُها كُلَّ يَوْمٍ ! (مقدِّمةُ مجموعِ فتاوي الشَّيخ محمَّد ابْنِ إبراهيمَ آلِ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ ١/ ١٢ جمع الشَّيخ ابْنِ قاسِمٍ رَحِمَهُ اللهُ، ط مطبعةُ الحكومة بمكةَ المكرَّمة).

مَوْقِعُ التَّفْرِيغِ
للدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

ذلك؟ العلم ينقسم:

* فالعلم بالتَّوحيد ـ بأن الله جلَّ وعلا هو المستحقّ للعبادة وحده ـ إذا علمه العبد ولم يعمل بهٰذا العلم بأن أشرك بالله -جلَّ وعلا- لم ينفعه عِلمه، فكان ترك العمل بالعلم في حقّه كفرا.

* وقد يكون معصية: بأنْ علم ـ مثلا ـ أنّ الخمر حرام شُرْبها، حرام بيعها، حرام شراؤها، حرام سقيها، حرام استسقاؤها، ونحو ذلك، وخالف هذَا العِلم الذي عنده، عَلِمَ أنّها حرام فخالف؛ فتكون مخالفته معصية، يعني: ارتكب كبيرة من كبائر الذُّنوب في هٰذه المسألة.

* منه ما هو مكروه: إذا علِم أنّ النبي -عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان يصلِّي على هيئة وصِفة معيَّنة فخالفه في سنّة من السُّنن بعد عِلمه بها؛ تَرْك العمل بالعلم الذي عنده هٰذا مكروه؛ لأنّه ترك العمل بسنّة - ليس بواجب - فيكون ترْكه مكروهًا، ويكون العمل بذلك مستحبًّا.

* وقد يكون العمل بالعلم مباحًا، وتركه مباحًا أيضا، في مثل: المباحات، والعادات، ونحو ذلك، كأن بلغنا من العلم أنَّ النَّبي -عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان من هيئته في لباسه كذا وكذا، كانت مشيته على نحو ما، هٰذه الأمور الجبلِّية الطبيعية ـ فيما نتعلَّمه مما لم نخاطب فيها بالاقتداء ـ إذا ترك العمل بها كان تَرْكه مباحًا له؛ لأنَّه لم يخاطَب المسلم بأن يقتدي في مثل هٰذه الأمور، في نحو: سير النّبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، في صوته، في الأمور الجبِلِّيّة التي كان عليها عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فيكون العمل بذلك

مباحًا وقد يُؤجر عليه إذا نوى الاقتداء؛ بنيَّـةِ الاقْـتِداءِ، ويكون ترك العمـل أيضًا مباحًا.

العمــل هٰــذا أخــذه مــن قولــه جــلَّ وعــلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾(1) كما سيأتي.

* الثَّالث (**الدَّعوة إليـه**): إذا علم وعمل فإنَّه يدعو إلى ذلك.

والدَّعوة قد تكون بالمقال وقد تكون بالفعال:

❊ لأنَّ الامتـثال بالفعل دعوة، فإذا امتـثل المسلم لما أُمـر بـه فـإنّ هٰــذا يَجعـله يرشد غيره إرشادًا صامتًا بالفعل إلى أنَّ هٰذا مطلوب.

❊ والثاني: الدَّعوة بالقول، باللِّسان، والدَّعوة باللِّسان قد تكون واجبـة، وقد تكون مستحبّة، ويتفرّع عن الدَّعوة باللِّسان أنواع مـن الـدَّعوة، منهـا: الدَّعوة بالكتابـة، بـالقلم، في: تـأليف أو في رسـائل أو نحـو ذلـك، منهـا: النَّصائح المختلفة، والمواعظ، ونحو ذلك.

* بعد الدَّعوة الواجب الرَّابع: أن يتعلَّم الدَّاعية الذي علم ثُمّ عمـل ثُـمّ دعا أنَّه **يجب عليه أن يصبر**؛ لأنّ سنّة الله –جلَّ وعلا– في خلقـه أنَّـه لم يجعـل القَبول حاصلا للنبيِّين والمرسلين الذين هم أفضل الخلق وأعلاهـم درجـة،

(١) سورةُ العصرِ: الآية (٣)، وهذِه القِطعةُ بِلَفْظِها أيضا في سورةِ الشعراء: الآيـة (٢٢٧)، وسـورة ص: الآية (٢٤)، وسورة الانشقاق: الآيـة (٢٥)، وسورة التين: الآيــة (٦)، وورد عطـفُ العمـلِ على الإيمانِ في غيرِ ما آيـةٍ منْ كتابِ الله تعالى.

مَـــوْقِـــعُ الـتَّـفْــرِيــــغِ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

وإنَّما عُورضوا وأوذوا وحصل لهم ما حصل؛ فالدَّاعية يحتاج إلى أن يصبر كما صبر المرسلون؛ بل إنَّ النَّبي -عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أُمر بأن يحتذي حَذْوَ الصَّابرين في قول الله جلَّ وعلا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[(١)].

فالصَّبر في غاية المهمات لمن علِم فعمل فدعا، يحتاج إلى أن يصبر؛ فإن لم يصبر كان من الذين يستخفُّهم الذين لا يوقنون؛ قال جلَّ وعلا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[(٢)].

وقد حذّر النبي -عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أصحابَه من العجلة؛ قال: «ولكنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ»[(٣)].

* هٰذه المسائل الأربع واجبٌ تعلُّمَها والعمل بها: العلم، والعمل، والدَّعوة، والصَّبر؛ ودليل ذلك قول الله جلَّ وعلا: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[(٤)].

قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ والعصرُ هو: الزَّمان؛ أقسم الله -جلَّ

---

(١) سُورةُ الأَحْقافِ، الآيـة (٣٥).

(٢) سُورةُ الرُّوم.

(٣) أخرجَه البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٦٩٤٣) من حديث خباب بن الأرتّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) سُورةُ العَصْرِ.

وعلا- به لشرفه، الزَّمان المطلق، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ يعني: والـزَّمنِ، والعمـرِ، والوقتِ؛ لأنَّـه أشرف شيء أُعطيَـه الإنسان أنْ أُعطـيَ عُمُـرًا فيـه يعبـد الله -جلَّ وعلا- ويُطيعه؛ فبسبب العُمُر عبَدَ الله، وبسبب العُمُر شَرُف إن كتـب الله -جلَّ وعـلا- له الجنّة أن يكون من أهل الجنة، فهو شريف القدر، عظـيم القدر[1].

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ جواب القسم ـ ما معنـى جـواب القسـم؟ يعنـي: لأيِّ شيء جـاء القسـم؟ لم أقسـم الله جـلَّ وعـلا بالعصرـ؟ ـ قـال جـلَّ وعـلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، فجـواب القسـم هـو: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

وأكّد ذلك بـ (إنَّ) وباللَّام في قوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾، ومـن المتقـرِّر في علـم المعاني من علوم البلاغة أن: (إنَّ) و(اللَّام) مـن أنـواع المؤكّـدات؛ فـاجتمع هٰهنا أنواع من المؤكّدات:

* أوّلًا: القسم.
* الثّاني: مجيء (إنّ).
* الثّالث: مجيء (الـلام) التـي تسـمَّى: (المزحلَقـة) أو (المزحلفـة)[2]،

---

(١) وقيلَ: أقسمَ بصَلاةِ العَصْرِ، وقيلَ: بوَقْتِ العَصْرِ، وقيلَ غيرُ ذلكَ، انظر: تفسـيرَ القُرْطُبِـيِّ رَحِمَهُ اللهُ (م١٠/ ج٢٠/ ص ١٦٦ـ١٦٧، ط الكتاب العربيِّ).

(٢) الزَّحلَفَةُ والزَّحْلقةُ لُغتانِ [التَّاجَ: ز ح ل ف]، واللَّامُ المَزَحْلقَةُ هيَ لامُ الابْتـداءِ في نحوِ قولِـكَ: =

مَـوْقِـعُ الـتَّـفْـرِيـغِ
لِلـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

مجيء اللَّام في خبر (إنّ)، قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

وأهل العلم ـ أعني: أهل العلم بالمعاني ـ يقولون: إنَّ مجيء المؤكِّدات يصلح إذا كان المخاطَبُ منكِرًا لما اشتمل عليه الكلام.

فمثلًا تقول لمن لم يكن عنده الخبر: (فلان قادم)؛ لا يصلح أن تقول (إنّ فلانا لقادم) وذاك لم ينكر الكلام، ويريد أن يستقبل الخبر، تقول: (فلان قادم)؛ فأخبرته بقدوم فلان.

لكن إن كان منكرًا له أو منزَّلًا منزلة المنكر له فإنَّك تؤكِّد الكلام له؛ لكي يزيد انتباهه، ويعظم إقراره بما اشتمل عليه[1].

المشركون لأجل ما هم فيه من شرك وما عاندوا فيه الرِّسالة حالهم - بل ومقالهم - أنَّهم هم أصحاب النَّجاة: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[2]، فهم ينكرون أنَّهم سيكونون في خسارة، وطائفة أخرى

=

(لَزيْدٌ قائِمٌ) سُمِّيَتْ بِذلِكَ في الصُّورةِ المذْكورةِ لأنَّها زُحْلِقَتْ من موضِعِها إلى الخبرِ لِدُخُولِ (إنَّ) في الجملةِ فقيلَ: (إنَّ زيْدًا لَقائِمٌ) انظُر: مُعجَمَ مُصْطلَحاتِ وأدواتِ النَّحْوِ لعلي هَصيص (٢٣١ ط عالم الثَّقافة ـ عمَّان).

(١) خالي الذِّهنِ لا يُؤَكَّدُ الخبرُ في حقِّه، والشَّاكُّ يُؤَكَّدُ لَه بمؤَكِّدٍ واحِدٍ، ويُؤَكَّدُ لِلمنكرِ أو منْ نُزِّلَ منزلتَه بأكثرَ من ذلِكَ، و رُبَّما نُزِّلَ المنكرُ منزلةَ واحِدٍ منَ الأوَّلَيْنِ فعُوملَ مُعاملتَه، انظُر التَّفْصِيلَ في (البلاغة الاصْطِلاحيَّة) لعبده قلقيلة (١٢٨ـ١٣٨ط: الفكر العربي ـ القاهرة).

(٢) سُورةُ فُصِّلَتْ، الآيَة (٥٠).

منهم ينكرون أن يكون الإنسان سيرجع إلى خسار وأنَّه لـن ينجـوَ إلَّا أهـل الإيمان؛ فأكدّ الله -جلَّ وعلا- ذلك لأجل إنكارهم بالمقال وبالفعل وبالحال بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ يعني: إنَّ جنس الإنسان، الألف واللام هٰذه للجـنس، (أل) الجنسـية، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾: جـنس الإنسـان في ﴿خُسْرٍ﴾ يعني: في خسارة عظيمة، إلَّا من استثني، وهٰذا نوع آخر مـن شـدِّ الـذِّهن لقَبـول الكـلام؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾؛ كـلُّ النَّـاس، كـلّ الإنسان في هلاك وخسارة، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟..﴾.

هؤلاء الذين استثناهم الله -جلَّ وعـلا- هـم أصحاب هٰذه المسائل الأربعة التي ذكرها الشّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟..﴾ والإيمان علم وعمل، أليس كذلك؟ الإيمان: قـول وعمل واعتقاد، هٰذا الاعتقاد هو العلم، لأن العلم مورده القلـب والعقـل، هٰذا العلم، فأهل العلم ناجون من الخسارة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: ألم نقل: إنّ الإيمان قـول وعمـل واعتقاد؟ وهنا قـال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فعطـف بـالواو العمل على الإيـمان وأهـل اللُّغـة ـ النُّحـاة ـ يقولـون: إنَّ الـواو تـأتي كثـيرًا للمغايرة؛ فهل معنى ذلك أنَّ العمل غـير الإيـمان؟ وأنَّ مسـمّى الإيـمان لا يدخل فيه العمل؟

الجواب: لا؛ ذلك لأنَّ المغايرة تكون بين حقائق الأشياء، وحقيقة الإيـمان

أكبر من حقيقة العمل؛ لأنَّ العمل جزء من الإيمان، العمل بعض الإيمان، وعطف الخاصّ بعد العام يأتي كثيرًا، وكذلك عطف العام بعد الخاص يأتي كثيرًا بالواو، من مثل قول الله جلَّ وعلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1]، هنا (جبريلُ) و (ميكالُ) أليسا من الملائكة؟ لِـمَ عطفهم على الملائكة؟؛ عطفٌ للخاصّ بعد العام.

إذن لماذا يعطف الخاص على العام مع دخول الخاص في العام؟ لابد أن يكون له قصد، لابد أن يكون ثَم فائدة، الفائدة: التَّنبيه على أنَّه في الحكم مثل الأول؛ ولهٰذا قال -جلَّ وعلا- هنا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

والشَّيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فهم ذلك فقال: (**يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أرْبَعِ**) هذه الـ (**مَسَائِلَ**) فذكر: العلم ثم العمل؛ لأنَّه قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلـمَّا عطف الخاص على العام دلَّ على شرفه، وعلى أنَّه يهتم به، وعلى مزيد مكانته، ثم لأنه في الحكم مثل الأوَّل.

قال -جلَّ وعلا- بعد ذلك: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ يعني: دعا بعضهم بعضًا إلى الحق، ودعا بعضهم بعضًا إلى الصبر، وهٰذه هي المسائل الأربعة.

(١) سُورةُ البقرةِ، الآيَة (٩٨).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾؛ **الصَّبر** أقسام ثلاثـة:

* صبر على الطَّاعة.
* وصبر عن المعصية.
* وصبر على قدر الله المؤلم؛ بل صبر على أقدار الله التي تسرّ والتي تؤلم.

هٰذه أنواع الصَّبر الثَّلاثة: صبر على الطاعة، وصـبر عـن المعصـية، وصـبر على قدر الله، وكلّها يحتاج إليها العالِـمون العاملون الدُّعاة.

* قال الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ ـ فيما ذكر الشَّيخ هٰهنا ـ: (**لوْ مَـا أَنــزَلَ اللهُ حُجَّــةً عَلَى خَلْقِـهِ إلاَّ هٰذه السُّورَةَ لَكَفَـتهُمْ**) يعني: لو ما أنزل الله -جلَّ وعلا- مـن القرآن، لو ما أنزل الله حجة على الخلق مع رسول الله ﷺ إلَّا هٰذه السّـورة لكفى بها حجَّة.

لِـم؟ لأنَّها اشتملت على أنّ كلَّ الناس آيلون[1] إلى خسار ووبـال وهـلاك إلا أهل هٰذه الأوصاف وهم المؤمنون، معنى ذلك: لو خوطبنا بهٰذه السُّورة وحدها: مؤمنون بمن؟ لابد أنَّ هناك شيـئًا يؤمَنُ به، ثم يعملـون، يعملـون على أيّ شيء؟ وبأي شيء؟ لابد أن هناك سـبيلًا وهـو: سـنة النَّبـيِّ -عَلَيـه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، هناك تواصٍ بـالحق: دعـوة إلى ذلـك، وتـواصٍ بالصَّـبر: صبر على هٰذا؛ فترى أنّ هٰذه السُّورة اشتملت على كل مـا يـدلّ الخلـق عـلى

(١) **آيِلُونَ** أيْ: رَاجِعُونَ وصَائِـرُونَ ومنهُ (**التَّـأويلُ**) الَّذي هُو بِمعْنـى التَّفْسِـيرِ أيْ: مـا يرْجِـعُ إليـه اللَّفْظُ منَ المعاني انظُر النِّهاية [أ و ل].

ربهم -جلَّ وعلا-، ويقودهم إلى اتِّباع رسالة النَّبي عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

* ثم ذكر قول البخاري -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- في صحيحه ـ كما نقل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (**بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ**) وساق قول الله جلَّ وعلا: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[1]؛ فبدأ بالعلم قبل العمل والقول ـ الذي هو الاستغفار ـ.

لِـمَ ذكر الشَّيخ هٰذا؟ لأيِّ شيء؟

لأجل أنَّ هٰذه الرِّسالة رسالة علم، كلُّها شرح وبيان للواجب الأول، ألا وهو **العلم**، فينبِّه طالبَ العلم إلى أنَّ العلم مهمّ، مهمّ للغاية؛ حتى إنَّه قبْل القول والعمل، فقبل أن يستغفر العبد لابد أن يعلم العلم الواجب عليه، وهٰذا العلم هو الذي يُنجيه، هو الذي يُنجي به نفسَه - بفضل الله جلَّ وعلا - إذا سئل عن هٰذه المسائل الثَّلاثة.

فالشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- يريد أن يبيِّن لك ثلاثة الأصول هٰذه، والمسائل المتعلقة بها؛ فأكّد لك أهمية العلم بقوله ـ فيما ساق عن البخاري رَحِمَهُ اللهُ تعالى ـ: (**بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ**).

العلم قبلُ ولاشَكَّ؛ ولهٰذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ـ وما أحسن ما قال ـ: (**والجهلُ داءٌ قاتل**) وصدق؛ الجهل داء قاتل، قال: [من الكامل]

والجَهْلُ داءٌ قَاتِلٌ وشِفَاؤُه أَمْرَانِ في التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

(١) سورة محمد ﷺ، الآية (١٩).

مَوْقِعُ التَّفْرِيغ
للدُّرُوس العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

نَـصٌّ مِـنَ القُـرْآنِ أَوْ مِـنْ سُـنَّةٍ وطَبيـبُ ذَاكَ العَـالِمُ الرَّبَّـانِي
والعِلْـمُ أَقسَـامٌ ثَـلاثٌ مَـا لَهَـا مِـنْ رابـع و الحَـقُّ ذُو تِبْيَـانِ
عِلْـمٌ بأَوْصَـافِ الإلٰـهِ وفِعْلِـهِ وكَـذلِكَ الأَسْـمَاءِ لِلـدَّيَّانِ
والأَمْرُ والنَّهْـيُ الَّـذي هُـوَ دِينُـهُ و جَـزَاؤُهُ يَـوْمَ المَعَـادِ الثَّـاني
والكُلُّ في القُـرْآنِ والسُّـنَنِ الَّتـى جَاءَتْ عن المَبْعُـوثِ بالفُرْقَـانِ
والله مَـا قَـالَ امْـرُؤٌ مُتَحَـذْلِقٌ بسِـوَاهُمَا إلَّا مِـنَ الهَـذَيَانِ[1]

بَيَّن أنَّ الجهل داء قاتـل، بم يُـزال الجهل؟ قَـالَ: بِنَصٍّ منَ القـرْآنِ أَوْ مـنَ السُّنَّـةِ، مَن طبيب ذاك الذي يرشدك ويبين لك؟ قال: (**وطَبِيبُ ذَاكَ العَالِـمُ الرَّبَّانِـيُّ**)؛ ليس كل منتسب للعلم، ولٰكن هو العالم الرَّباني، الذين وصفهم الله -جلَّ وعلا- في سـورة آل عمـران بقولـه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[2].

ثُم بيّن العلم هٰذا ما هو؟ - الذي تسعى إليه -، قال:

عِلْـمٌ بأَوْصَـافِ الإلٰـهِ و فِعْلِـهِ وكَـذلِكَ الأَسْـمَاءِ لِلـدَّيَّانِ

هٰذه شملت التَّوحيد: توحيد الرّبوبية، والألوهية، والأسماء والصِّفات.

---

(١) «الكافيَـةُ الشَّافيَـةُ في الانتِصارِ لِلفِرقةِ النَّاجِيَـةِ» (ص ٣٠٤، الأبيـاتُ: ٤٢٣٦ ـ ٤٢٤٢ ط ابـن خُزيمة ـ الرِّياض ت: عبد الله العمير).

(٢) قالَ أبو عبدِ الله البُخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى في «صَحيحِه» (١/ ٢٠٠ معَ الفَتحِ): (**يُـقالُ: الرَّبَّـانيُّ الَّـذي يُـرَبِّي النَّاسَ بِصِغارِ العلْمِ قبلَ كِبَارِه**) اهـ.

مَـوْقِـعُ الـتَّفْـريـغِ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

ثم العلم الثاني ما هو؟ قال: (**والأَمرُ و النَّــهْيُ الَّـذي هُـوَ دِيـنُــهُ**) يعني الفقه، الأمر والنهي، الأحكام: الحلال والحرام، هٰذا مأمور به وهٰـذا منهي عنه، هٰذا افعله وذاك لا تفعله، هٰذا النّوع الثاني من العلم النَّافع.

والثَّالث: (**وجَزَاؤُهُ يَومَ الـمَعَادِ الثَّـاني**) الذي هو: العلـم بـما يكـون يـوم القيامة، ووسائل ذلك.

الشّيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ- يقول: (**العلمُ قبلَ القولِ والعمـلِ**) نعـم، وصـدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فالعلم إذا كان قبل القول والعمل بورك لصاحبه في القليل، وإن كان العملُ والقول قبل العلم ربّما كانت الأعمال والأقوال جبالًا ولكنَّها ليست على سبيل نجاة.

ولهٰـذا روى الإمام أحمـد في الزّهد وأبو نعيم وجماعة عن أبي الدّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قـال: (**يَا حَبَّـذَا نومُ الأَكـيَاسِ وإِفْطارُهمْ؛ كيفَ يَغْبِـنُونَ سَهرَ الحمْقَى وصَوْمَهُمْ، ولَـمِثْـقالُ ذرَّةٍ معَ بِـرٍّ ويَـقِـينٍ أَعظَمُ عِندَ الله منْ أمثالِ الجِـبالِ عِبادةً منَ الـمُغْـتَـرِّينَ**) [1].

---

(١) أخرجَه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزُّهْدِ (١٧١ ط: الكتب العلميَّـة)، ومنْ طريـقِه أبـو نُعـيمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحليَـةِ (١/ ٢١١) وفي سَنَـدِه منْ لم يُسَمَّ، وذكَـرهُ ابْنُ أبي الدُّنْـيا في «رِسالةِ اليَـقين» (١/ ٨٢ ضِـمنَ مجمُوعِ رسائِلـه في الزُّهْـدِ والرَّقائِـقِ والورعِ ت: أبو بكر سَعداوِي) مُعلَّـقًا، وفيها كافَّـةً: (**يَعيـبُونَ**) مكانَ (**يَغْـبِنُونَ**. ومعْنَى (**يَغْبِنُونَهمْ**): يَنالُونَ الرِّبْحَ والحظَّ دُونَهمْ معَ اجْتِهادِ أُولئكَ، ومنهُ سُمِّيَ يـومُ القِـيَامةِ (**يَومَ التَّـغابُنِ**) فإنَّ أهلَ الجنَّةِ يَغْبِنُونَ أهلَ النَّارِ ومنِ ارْتفَعتْ منزِلتُه في الجنَّـةِ يَغْبِنُ مـنْ هُـو =

مَـــوْقِـــعُ الـتَّـفــريـــغ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

يقول: (**يَا حَبَّـذَا**) يعني: يتمنَّى، (**نومُ الأَكـيَاسِ**) الأكيـاس مـن؟: (**إن لله عبادًا فُطَـنَا**)[1] هـؤلاء هـم الأكيـاس، الـذين علِمُـوا؛ قلـوبهم صـحيحة، عقولهم صحيحة.

يقول: (**حَبَّـذَا نومُ الأَكـيَاسِ**) أهل العلم (**وإفطارهم**): ناموا والحمقـى - على كلام أبي الـدرداء رضي الله عنه - سـهروا لـيلهم في صـلاة، ولكـن هـؤلاء لا يستوون عند أبي الدرداء مع أولئك؛ لأنّ أولئك عبدوا الله -جلَّ وعلا- على جهل، وهؤلاء عبدوا الله بعبادات قليلة ولكنَّها مـع علـم وبصـيرة فكـانوا أعظم أجرًا بحيث قال أبـو الـدرداء رضي الله عنه: (**ولمثـقالُ ذرَّةٍ مـعَ بِـرٍّ ويَـقِـينٍ أَعظَمُ عِندَ الله منْ أمثالِ الجِبالِ عِبادةً منَ الـمُغْـتَـرِّينَ**).

دُونَه [انظُرِ التَّاجَ: غ ب ن]، و (**المغتَـرُّ**) هُو الجاهلُ الَّذي يَظُنُّ أنَّه علَى شَيْءٍ وليسَ كذلك. ومن هذَا البابِ قولُ السَّلَفِ: اقْتِصَادٌ في سُنَّـةٍ خيرٌ من اجْتِـهادٍ في بِدْعةٍ.

(١) يُشيرُ الشَّيخُ حفظَهُ اللهُ إلى قولِ الشَّاعرِ ـ ويُذْكَـرُ لِلشَّافعيِّ رحمه الله ـ: [منَ الرَّملِ]

إنَّ لله عِـبَــادًا فُـطَــنَـا ... طَـلَّـقُوا الدُّنـيا وخافُوا الفِـتَـنَا
نَظَـرُوا فيـها فَـلَـمَّـا عَـلِـمُوا ... أنَّـهَا لَـيْـسَتْ لِـحَـيٍّ وَطَـنَـا
جَـعَـلُوها لُـجَّـةً واتَّـخَـذُوا ... صَالِـحَ الأَعْـمَـالِ فِـيها سُـفُـنَا

وانظُـر: الصِّـلةَ لابْـنِ بشْـكُوال (٢/ ٥٧٥ ط الـدَّار المصريَّـة لِلتَّـأليف ـ القـاهرة ١٩٦٦ـ إحالـةٌ مُسْتفادةٌ ـ)، ومُقدِّمةَ رِياضِ الصَّالحينَ لِلنَّوَويِّ رحمه الله، و(**اللُّجَّـةُ**) الماءُ العظيمُ الَّذي لا يُـرى طرَفـاهُ، ومنَ البحرِ حيثُ لا يُدرَكُ قعرُه [انظُرِ التَّاجَ: ل ج ج]، وهيَ هُنا كنايةٌ عنِ الخطرِ.

لهٰـذا نقول: العلم في غاية الأهمية، ويُبدأ به قبل كـلِّ شيء، خاصـة العلـم الذي يصحّح العبادة، يصحّح العقيدة، يصحّح القلب، يجعل المرء في حياته يسير على بيِّنة وَفْق سنَّة الرَّسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- ليس على جهالة.

المقدِّمةُ الثَّانِيَةُ.. ثَلاثُ مسائِلَ يَجبُ تعلُّمُها والعَمَلُ بِها

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أَنَّـهُ يَـجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَـةٍ تَعَـلُّمُ ثَـلاثِ هٰـذِه المسائِـلِ والعَملُ بِهِنَّ:

الأُولَى:

أَنَّ اللهَ خَلَـقَـنَا و رَزَقَـنَا ولَـمْ يَـتْـرُكْـنَا هَـمَلًا، بلْ أَرْسَلَ إِليْـنَا رَسُولًا؛ فَمَنْ أطاعَـهُ دَخَلَ الجنَّـةَ، ومَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ؛ والدليلُ قولُـهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾[1].

الثَّـانِـيَـةُ:

أَنَّ اللهَ لا يَرضَى أن يُشْرَكَ معَـهُ أحدٌ في عِبادَتِـهِ، لا مَلَـكٌ مُقَـرَّبٌ ولا نَبِـيٌّ مُرْسَـلٌ؛ والـدليلُ قولُـــهُ تعـالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[2].

---

(١) سُورةُ الـمُـزَّمِّـلِ.

(٢) سُورةُ الجِـنِّ.

الثَّالثَـةُ:

أنَّ مَنْ أطاعَ الرَّسُولَ و وحَّدَ اللهَ لا يَـجُوزُ لَه مُوالاةُ مَـنْ حـادَّ اللهَ و رَسُـولَه ولَو كانَ أقربَ قريبٍ.

والدَّليلُ قولُـهُ تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾(١).

❁❁❁❁

(١) سُورةُ المجادلة.

الشَّرحُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العـالمين، والصَّـلاة والسَّـلام عـلى نبيِّنـا محمَّـد وعـلى آلـه وصحبه أجمعين.

أمَّا بعـدُ..

فهٰذه المسائل الثَّلاث التي ذكرها الشـيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى- صـلة لمـا قبلهـا وتمهيد لما بعدها؛ فأعاد وكرَّر بقوله: (**اعلمْ رحِمكَ اللهُ**)، وفي هٰذا ما فيـه مـن التلطُّف بالمتعلِّمين، (**اعلمْ أنَّـهُ يجبُ عـلى كـلِّ مسـلم ومسـلمة تَعلُّـمُ هٰـذه الثّلاث مسائل**) مع المسائل الأربـع التـي سـبقت، وهٰـذه المسـائل يجـب أن يتعلّمها كلُّ مسلم وكل مسلمة؛ لأنّ فيها بيان أصل الدين وقاعدة الدِّين.

* **الأولى من تلكم المسائل** : أنَّ الله -جلَّ جلاله- خلـق الخلـق لغايـة، لم يخلقهـم لغـير غايـة، لم يخلقهـم سُـدًا ولا عبثًـا ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[1]، بل إنّما خلق الخلق لغايـة، قـال جـلَّ وعـلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) سُورةُ الأنـعامِ.

ﵟٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاﵞ[1].

وقال جلَّ وعلا: ﵟأَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗاﵞ، يعني لغير غاية ولغير حكمة؟! ﵟوَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ﵞ: وأنَّه لن يكون بعْثٌ بعد خلقكم، وأنه لن يكون إرجاع لكم إلى من خلقكم، هٰذا فيه قدح، هٰذا الظن فيه قدح في حكمة الله جلَّ وعلا، لذلك قال -جلَّ وعلا- بعدها: ﵟفَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّﵞ[2]تَعالىٰ عمَّا يصفه به المبطلون، تَعالىٰ عما يظنُّه عليه الجاهلون القادحون في حكمته.

فإذن الخلق مخلوقون لغاية، ما هٰذه الغاية؟ هي ما بيّنها في قوله جلَّ وعلا: ﵟوَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨ﵞ[3].

الله -جلَّ وعلا- ما خلق الجنَّ والإنس إلَّا لغاية واحدة وهي الابتلاء؛ ﵟلِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاﵞ[4]: الاختبار، اختبار في أيِّ شيء؟ في عبادته: هل يعبد وحده لا شريك له أم يتَّخذ المخلوق هٰذا آلهةً أخرى مع الله جلَّ وعلا؟ وهٰذه مسألة ولا شكَّ عظيمة.

---

(١) سُورةُ الـمُلْكِ، الآيـة (٢).

(٢) سورةُ المؤْمِنونَ الآيتانِ (١١٥ ـ ١١٦)، وهـٰذه القِطْعةُ الأخيرةُ تكَـرَّرَتْ بِلَفْظِها في سـورةِ طـه الآية (١١٤).

(٣) سُورةُ الذَّارِيَـاتِ.

(٤) سُورةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآية (٧)، ومِثْلُها في الآية (٢) منْ سُورةِ الملكِ.

الإنسان خُلق لهٰذه الغاية؛ لكن يحتاج إلى من يُبَصِّره بهٰذه الغاية، ويعلّمه القصد من خلقه، ويعلِّمه كيف يصل إلى عِبَادة ربِّه على الوجه الذي يرضى به اللهُ جلَّ وعلا عنه، فبعث الله جلَّ وعلا ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1] يدلُّون الخلق إلى وعلى خالقهم، يعرِّفونهم بمن يستحقّ العبادة وحده، ويعرِّفونهم بالطَّريق التي أذِنَ مَنْ خلقَهم أن يعبدوه بها.

قال -جلَّ وعلا- لنبيِّنا محمَّد عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[2]، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[3]؛ فكلُّ أمَّة قد خلا فيها نذير، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[4]، نذير يُنذرهم ويبشِّرهم؛ يبَشِّر من أطاع، وينذر من النَّار ويخوّف من النَّار، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[5].

فثبت بهٰذه النُّصوص أنّ الله جلَّ وعلا لم يترك الخلق وشأنهم بعد أن خلَقَهم، بل بعث لهم رُسلا يعلِّمونهم ويهدونهم ويبصّرونهم الطريق التي

(١) سورةُ النِّساءِ، الآية (١٦٥).

(٢) سُورةُ سَبأ، الآية (٢٨).

(٣) سُورةُ المُزَّمِّلِ.

(٤) سُورةُ فاطِر.

(٥) سُورةُ النَّحْلِ، الآية (٣٦).

مَوْقِعُ التَّفْرِيغِ
لِلدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

يرضى اللهُ جلَّ وعلا بها أن يعبدوه بها دونها سواها من الطُّرق الموصلة.

وتلكم الطَّريق طريق واحدة، ليست بطرق متعدِّدة كما قال جلَّ وعلا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾؛ فهو صراط واحد، وهناك صُرُط أخرى، هي صُرط أهل الضَّلال والجهل والغِواية والهوى، أمَّا الطَّريق الموصلة إلى الله جلَّ وعلا فهو طريق المرسلين الذي جاءوا به من عند الله جلَّ وعلا؛ وهو دين الإسلام العام، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾[1]، استسلام لله -جلَّ وعلا- بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك وأهله.

الرُّسل بيّنوا للنَّاس هٰذه الغاية، ودلُّوهم على عبادة الله -جلَّ وعلا- وحده دون ما سواه، فقامت العداوةُ بين الرُّسل وبين أقوامهم في هٰذا الأصل؛ حيث إنّ الخلق يريدون أن يعبدوا الله -جلَّ وعلا- بالطَّريقة التي يُحبُّون، لا بالطَّريقة التي يُحبُّها الله جلَّ وعلا.

ولهٰذا قال بعض أئمة السَّلف: (**ليس الشَّأن أن تُحِبّ ولكن الشَّأن أن تُحَب**)[2] ليس الشَّأن أن تحب الله، فإنّ محبة الله -جلَّ وعلا- يدَّعيها المشركون، يدَّعيها الضَّالون، كل قوم بُعثت إليهم الرُّسل يدَّعون أنّهم

(١) سُورةُ آلِ عِمرانَ، الآيَة (١٩).

(٢) وقالَ بَعْضُهمْ: [منَ الكامل]

تَعْصِي الإلٰه وأنتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هٰذَا و رَبِّي في القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

يريدون وجه الله، يريدون ما عند الله، يحبونه، ربَّما يتصدَّقون ويُصَلُّون ويدَّعون ويَصِلُون ويتقرَّبون، وما فِعل أهل الجاهلية - جاهلية العرب - مِنَّا ببعيد.

لٰكن ليس الشَّأن أن يُحبّ المحبُّ ربَّه، ولٰكن الشَّأن أن يُحبّ العبدَ ربُّه؛ الشَّأن أن يحبَّ اللهُ -جلَّ وعلا- العبدَ، متى يكون ذلك؟ لابد أن يبحث العبد عن سبيل محبَّة الله -جلَّ وعلا- له، هٰذا السَّبيلُ بيَّنه الله -جلَّ وعلا- في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ زعمًا ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ طاعةً ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]؛ فإذن سبيل محبة الله للعبد هي طاعة الرّسل واتّباع الرُّسل.

وخاتم المرسلين نبيّنا محمَّد ﷺ الَّذي ببعثته وبرسالته نُسخت جميع الرِّسالات ونُسخت جميع الكتب من قبله عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ فبقيَ للنَّاس طريق واحد يصِلون به إلى ربِّهم جلَّ وعلا؛ ألا وهو طريق محمَّد عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، إذ هو الوَاسطة العملية للاتباع؛ لاتباعه للوصول إلى الله جلَّ وعلا، فمن اتّبع واهتدى بغير هدي النَّبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، هٰذا النَّبي الخاتَم، فهو من الضّالين الذين تنكَّبوا سبيل الحق[2].

---

(١) سُورةُ آلِ عِمران الآية (٣١) وانظُرْ سبَبَ نُزولِ هذِه الآيَـةِ في تفسِيرِ الإمام ابْـنِ جريـرٍ الطّـبريِّ رَحِمَهُ اللهُ (٥/ ٣٢٤ـ٣٢٦ ط التُّركي).

(٢) تنكَّـبَه: اجْتنَـبَه ؛ فهو في عِبارةِ الشَّيخِ مُتَـعَدٍّ، ويأتي لازِمًا فيُعَدَّى بِـ (عَنْ) علَى مَعْنَـى عـدَلَ عنـهُ وتَـباعَدَ، انظُرْ [التَّاج: ن ك ب].

مَـوْقِـعُ الـتَّفـريـغ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com
سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

هٰـذا الأصل الأول، وهٰذه المسألة الأولى عظيمة جـدّا؛ لأنَّها إذا استقرَّت في قلب العبد قادته إلى كلِّ خير، يعلم أنّه ما خُلق إلَّا لغاية، ما هٰذه الغايـة؟ هي عبادة الله وحده دون ما سواه، كيف أعرف طرق هٰـذه العبـادة؟ باتِّبـاع النّبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

فتلخّص الدّين في هٰذه المسألة العظيمة، وما أحسـن قـول شـمس الـدِّين ابن القيم في نونيته بعد أبيات:

فَـلِـوَاحِـدٍ كُـنْ واحِـدًا في وَاحِـدٍ   أَعْنِـي سَبِـيـلَ الـحَـقِّ والإيـمَـانِ[1]

(لواحد) لله -جلَّ وعلا- وحده دون ما سـواه **(كـن واحـدًا)** في قصـدك وإرادتك وتوجّهك وطلبك **(في واحد)** في طريق واحد؛ قال بعدها: **(أعنـي سَبِيلَ الـحَقِّ وَالإِيـمَانِ)** الذي هو سبيل النَّبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* **المسألـة الثانيـة: (أنَّ الله -جلَّ وعلا- لا يرضى أن يشرك معـه أحـد في عبادتـه، لا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل)** فالكلُّ عبـيدٌ لله جلَّ وعلا.

الله -جلَّ وعلا- إنَّما ***يرضى التَّوحيد، يرضى أن يُعبد وحـده دون مـا سواه؛ فمن أشرك مع الله -جلَّ وعلا- إلـٰهًا آخر فقد نقـض الغايـة العمليَّـة التي كُلِّـف بها مِنْ خلقه ومن إيجاده؛ قال جـلَّ وعـلا: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[2]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾ دعاء مسألة ودعاء عبادة ﴿مَعَ ٱللَّهِ

(١) «الكافيَـةُ الشَّافيَـةُ في الانتِصارِ لِلـفِرقةِ النَّاجِيَـةِ» (ص ٢٥٦، البيْـتُ: ٣٤٦٨، ط ابـن خُزيمـة ـ الرِّياض، ت: عبد الله العمير).

(٢) سُورةُ الـجِنِّ.

أَحَدًا﴾.

المساجد يُفعل فيها شيئان:

* دعاء الله -جلَّ وعلا- **دعاء المسألـة**، سؤال الله جلَّ وعلا، هٰذا نوع.

* والثاني **عبـادة الله** -جلَّ وعلا- بأنواع العبادات من الصلاة - الفرض والنفل -، ومن التِّلاوة، ومن الذِّكر، ومن التَّعلم والتَّعليم، ونحو ذلك.

قـال جـلَّ وعـلا: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الـمساجِدُ أُقيمـت لله -جـلَّ وعلا-؛ لعبادته وحده دون ما سواه، ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ دعـاء مسـألة أحـدًا غـير الله، ولا تدعوا دعاء عبادة أحدًا غـير الله، وكـما أنَّ المصـلِّي لا يصـلِّي إلَّا لله، فكذلك في المسجد وفي غيره، فلا يسأل ولا يدعو إلَّا الله جلَّ وعلا.

دعاء **المسألـة**: هو الذي يسـمِّيه العامـّة أو يسـمِّيه النَّـاس الـدُّعاء، وهـو المقصود إذا قيل: دعا فلان، أي: سأل الله -جلَّ وعلا- قال: اللَّهـم اعطنـي، اللّٰهم قني، اللّٰهم اغفر لي.. ونحو ذلك، هٰذا يسمَّى دعاء مسألة.

أمَّا دعاء **العـبَادة**: فهو العبادة نفسُها؛ لأنّ المتعـبد لله جلَّ وعـلا بصـلاة أو بذكر هو سائل لله جلَّ وعـلا؛ لأنَّه إنَّما عبد وصلى أو صام أو زكى أو ذكـر أو تلا رغبةً في الأجر؛ كأنَّه سأل الله -جلَّ وعلا- الثَّواب.

لهٰـذا يُقال: الدُّعاء قسمان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، قال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1] فقال في أوّل الآية: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ وقال في آخرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدلّ على أنَّ الدُّعاء عبادة، أو هو العبادة.

ولهٰذا فسّر السَّلف قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الاستجابة هنا فُسِّرت بتفسيرين:

* ﴿أَسْتَجِبْ﴾ بمعنى: أُعطِكم ما سَألتم.
* أو: أُثِبْكُم؛ ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ أُثبكم[2].

إذا كانت بهٰذا التَّقدير: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ أُثبكم ـ بهٰذا المعنى ـ فيكون الدُّعاء هنا دعاء بمعنى العبادة؛ لأنَّها هي المتعلّق بها الثَّواب.

وإذا كانت الاستجابة هنا أوِ الإجابةُ بمعنى إعطاء السُّول[3] فيكون الدُّعاء هنا دعاء مسألة.

وهٰذه المسألة مقرَّرة تقريرًا واضحًا في كتب أهل العلم؛ ألَا وهي أنَّ قوله

---

(١) سُورةُ غافر.

(٢) انظُرْ: «بدائعَ الفَوائدِ» (٣/ ٨٣٦) وقالَ: (فكُلُّ دُعاءِ عِبادةٍ مُسْتلْزِمٌ لِدُعاءِ المسألةِ، وكُلُّ دُعاءِ مَسْألةٍ مُتَضَمِّنٌ لِدُعاءِ العِبادةِ) اهـ و«أَضْواءَ البيانِ» (٧/ ١٠٤ ط المجمَع)، وانظُرْ أيْضًا: تفسير الطَّبريِّ رَحِمَهُ اللهُ (٢٠/ ٣٥٢ـ ٣٥٤).

(٣) بِالتَّخْفيفِ لُغَةٌ في (السُّؤْلِ) بِالهَمزِ، وقُرِئَ بِهِا قَولُه تَعالَى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [سُورةُ طٰهٰ]، وهُو (فُعْلٌ) بِمَعْنَى (مَفْعُولٍ) أيِ: المسْؤُولَ، والسُّولُ: الحاجةُ الَّتي تَحرِصُ عليهاالنَّفْسُ، انظُرْ [التَّاج: س أ ل، وكذَا: س و ل].

تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ أنَّه يشمل نوعي الدُّعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقد جاء في الحديث الصَّحيح عن النُّعمان بن بشير أنَّ النبي ﷺ قال: «**الدُّعاءُ هُو العِبَادَةُ**»[1] وفي معناه ما جاء عن أنس مرفوعًا: «**الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»[2].

(**الله -جلَّ وعلا- لا يرضى أن يُشرك معه أحد**): قد يُتوهَّم أنَّ المخلوق إذا بلغ إلى غاية عظيمة أنَّه يمكن أن يُوصِل إلى الله -جلَّ وعلا- باتخاذه واسطة، باتِّخاذه وسيلة، وأعلى المخلوقات مقامًا عند الخلق: الملائكة والرّسل والأنبياء، لهٰذا نفى الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ هذين فقال: (**اللهُ - جلَّ وعلا - لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل**)، (**لا مَلَكٌ مُقَرَّب**) حتى ولو كان جبريل الذي هو سيّد الملائكة وأشرفهم وأعظمهم، (**ولا نبيٌّ مُرْسَل**) حتى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

دليل ذلك: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وجه الاستدلال: أنّ ﴿أَحَدًا﴾

---

(١) أخْرَجَه الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح١٨٤٣٢) وأبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ (ح١٤٧٩)، وابن ماجه رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٣٨٢٨) والتِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٢٩٦٩ و ح٣٣٧٢)، وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو في تفسيرِ آيةِ سُورة غافرِ السَّابقةِ، واحتجَّ به الطَّبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ علَى معْنَى العِبادةِ الَّتي هيَ سُؤالٌ بِلِسانِ الحالِ.

(٢) أخرجَه التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٣٣٧١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وضَعَّفهُ الشَّيْخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وانظر كلامَ الشَّارحِ حفظهُ اللهُ ص (٧٦).

مَوْقِعُ التَّفْرِيغِ
لِلدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

نكرة جاءت في سياق النَّفي، وقد تقرّر أنَّ النَّكرات إذا أتت في سياق النّفـي أو النَّهي أو الشّرط أو الاستفهام فإنّها تعُمُّ[1]، قـال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، يدخل في ﴿أَحَدًا﴾ الملائكة، ويدخل فيه الأنبياء.

هٰذا الأصل يجب على كلِّ مسلم ومسلمة أن يعلمه علمًا يقينيًّا لاشك فيـه ولا شـبهة، بدليلـه وهـو قولـه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾؛ فلا يَخْطُر على قلب المسلم أو المسلمة أنَّه يمكن أن يدعو غير الله، أو أن يستغيث بغير الله، أو أن يتوجَّه إلى غير الله، بأيِّ نوع من أنواع العبادات، حتى ولو كان المتوجه إليه ملَـكًا مقرّبًا، أو نبيًّا مرسلًا.

ومن المتقرّر أنّ ثَمَّ فرقًا بين النّبي والرَّسول؛ فليس كل نبيّ رسـولا، بيـنما كل رسول نبي، وقول الشَّيخ هنـا: (**ولا نبـيٌّ مُرْسَـل**)؛ لأنَّ الرِّسـالة أرفـع درجة من النَّبوة، والفرق بينهما أن:

النّبي: هو من أوحي إليه بشرع وأُمـر بتبليغـه إلى قـوم مـوافقين لـه، أو لم يؤمر بالتبليغ.

والرّسول: هو من أوحـي إليـه بشــرع أو كتـاب وأُمـر بتبليغـه إلى قـوم مخالفين.

فإذن النّبي مرسل، وقد يكـون مرسـلًا إلى نفسـه، لكنّـه لـيس بالرَّسـول بالمعنى الأخص.

وبهٰذا يتَّضح الـمقام، وذلك لقـول الله تَعَـالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

(١) بدائعُ الفَوائِـدِ لابْنِ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/ ١٣٠٥ ط المجمع)، وانظُرْ شَواهِدَها هُناكَ.

رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾[1]، فأثبت أنَّ الرَّسول مُرسل، وأنَّ النَّبي أيضًا يقع عليه الإرسال؛ قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ فالرَّسول يقع عليه الإرسال، ﴿ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ أيضًا النَّبي يقع عليه الإرسال، يعني يؤمر بأن يبلّغ ذلك، لمن؟ لمن يوافقه ـ هٰذا النَّبي ـ، مثل أنبياء بني إسرائيل؛ إذا مات فيهم نبيّ خلَفَه نبيّ يبلّغ من يوافقه في عقيدته، من يوافقه في اتّباعه لشريعة النَّبي الرّسول الذي قبله، إذا بلَّغ موافقًا وكان هٰذا التَّبليغ مأمورًا به من الله -جلَّ وعلا- ومعه شرع أو بعضُ شرع فإن هٰذا نبيّ[2].

وقد لا يكون مأمورًا بتبليغه إلى قوم موافقين، فقد يُبَلِّغ نفسَه، وعلى هٰذا يُحمل ـ في أحد شروح العلماء ـ ما جاء في الحديث «**النَّبِيَّ يأتي يَومَ القِيامَةِ ولَيْسَ معَهُ أحدٌ**»[3] قد يكون لأنه لم يُستجب له، وقد يكون لأنه إنما أُمِر أو أوحي إليه لنفسه لا لغيره.

---

(١) سُورةُ الحجِّ، الآية (٥٢).

(٢) هذِه خُلاصَةُ ما ذكرَ شَيْخُ الإِسْلامِ رَحِمَهُ اللهُ في هذِه المسألةِ في كِتابِه النُّبُوَّاتِ (٢/ ٧١٤ ـ ٧٢٠ ط أضْواءِ السَّلَفِ). وانظر تفصيل المذاهب في الفرق بين النَّبي والرَّسول في شرح الشَّيخ صَالح آل الشيخ على العقيدة الطحاوية عند قوله: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى.).

(٣) أخرجَه البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٥٧٥٢)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

* **المسألـة الثالثـة**: أن من وحّد الله وأطاع الرَّسول واتَّبع دين الإسلام لا يجوز له أن يُوالي من حادّ اللهَ ورسولَه، ولو كان أقـرب قريب، لا يـجوز له أن يوالي من حادّ الله ورسوله، ولو كان ذلك أبـاه أو أمّـه أو أخاه أو أخته أو قريبه، وذلك لقول الله تَعَالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ إلى آخر الآية[1]، وقـال جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[3] لـمّا ذكر اليهود والنصارى.

فأصل الدّين الذي هو مِنْ معنى كلمة التَّوحيـد الـولاء والـبراء؛ الـولاء للمؤمنين وللإيـمان، والبراءة من المشركين والشِّرك، ولهٰـذا يُعـِّرف علماؤُنـا الإسلامَ بأنّه: (**الاستسلامُ لله بالتَّوحيد والانقيـاد لـه بالطَّاعـة والـبراءة مـن الشِّرك وأهلِـه**).

وهٰهنا تنبـيه: أنَّه في بعض نسخ كتاب الشَّيخ أنه عرّف الإسلام بهٰذا وقال في آخره: (**والــخُلوصُ مِـنَ الشِّــركِ وأهلِـه**)، والمعـروف عنـه في النُّسـخ الصَّحيحة التي قُرِئَت على العُلماء (**البراءَة مِنَ الشِّـركِ وأهلِـهِ**)؛ لأنَّ الـبراءة

(١) سُورةُ الـمُجادَلَـةِ، الآية (٢٢).

(٢) سورةُ التَّوبَـةِ.

(٣) سُورةُ المائِـدةِ، الآيـة (٥١).

تشمَل الخلـوص وزيـادة، وهـي الموافقـة لقـول الله جـلَّ وعـلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾[1].

هنا قال: لا يجوز لمن وحَّد الله وأطـاع الرَّسـول واتَّبـع ديـن الإسـلام أن يوالي أحدًا من المشركين:

(الـمُوالاة) معناها: أن تتَّخذه وليًا، وأصلُها من الوَلاية، والوَلايـة هـي: المحبَّة، قال جـلَّ وعـلا: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾[2]، يعنـي: هنالـك المحبـة والمودّة والنُّصرة لله الحـق، فأصْـل المـوالاة المحبَّـة والمـودّة، ولهٰـذا اسـتدل بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ ﴾؛ ففسَّر المـوالاة بأنَّها الـمُوَادّة، وهٰذا معناه أنَّ أصل الموالاة في القلب، وهو محبّة الشِّـرك أو محبّة أهل الشِّرك والكفر.

فأصل الدِّين أنّ من دخل في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فإنـه يحـبّ هٰـذه الكلمـة وما دلَّت عليه من التَّوحيد، ويحب أهلَها، ويُبغِض الشّـرك المنـاقض لهٰـذه الكلمة، ويبغض أهلَه.

فكلمة الولاء والبراء هي معنى المـوالاة والمعـاداة، وهـي بمعنـى الحـب

---

(١) سُورةُ الزُّخْرُفِ، ويأتِي تَعْرِيفُ الشَّـيخِ رَحِمَهُ اللهُ لِلْإسـلامِ في الأَصْـلِ الثَّـاني ص (١٣٧)، ويُبَـيِّـنُه الشَّيْخُ بأَوْسَعَ منْ هُنا ص (١٤٤).

(٢) سُورةُ الكهْـفِ، الآيَـة (٤٤) وهـذَا على قِـراءةِ فَـتحِ الـواوِ مـن (**الوَلايَـةِ**)، وأمَّـا عـلى قِـراءةِ كسرِها (**الوِلايَـةُ**) فمعْناها: السُّلْطـانُ والمُلْكُ، انظُر تفسيرَ الطَّبريِّ رَحِمَهُ اللهُ (١٥/ ٢٧٠).

مَـوْقِـعُ الـتَّـفْـرِيـغِ
لِلـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

والبغض، فإذا قيل: الولاء والبراء في الله فهو بمعنى الحبّ والبُغض في الله، وهو بمعنى الموالاة والمعاداة في الله؛ ثلاثةٌ بمعنًى واحد، فأصله القلب؛ محبة القلب.

إذا أحبَّ القلبُ الشِّرك صار مواليًا للشِّرك، إذا أحبّ القلبُ أهلَ الشِّرك صار مواليًا لأهل الشرك.

كذلك إذا أحبّ القلبُ الإيمان صار مواليا للإيمان، إذا أحبّ القلبُ اللهَ صار مواليًا لله، إذا أحبّ القلبُ الرَّسول صار ولِيًّا ومواليا للرَّسول ﷺ، وإذا أحبّ القلبُ المؤمنين صار مواليا ووليا للمؤمنين؛ قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1]، يعني: من يحبّ وينصر ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

(١) سُورةُ المائِدةِ؛ فهذِه الآيَةُ كما تَرى في الوَلايَةِ ـ بالفتح ـ الَّتي هيَ المحبَّةُ والنُّصْرةُ، ومنها يُقالُ: الوَليُّ، ولا يُقالُ ذلكَ منَ الوِلايَةِ ـ بالكسرِ ـ إلَّا مُضافًا: (وَليُّ الأمرِ) ؛ لكنَّ الرَّافضةَ منْ جهلِهِمْ يستدِلُّونَ بِهذِه الآيَةِ على ما اتَّخذُوهُ أحدَ أركانِ دينهمْ وهُو الاعْتِقادُ بوِلايَةِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وبنيه منْ بَعده، ثُمَّ ادِّعاؤُهمْ أنَّها نزلتْ في عليٍّ خاصَّةً مردُودٌ كذلِكَ، انظُر التَّفْصيلَ في منهاج السُّنَّةِ (٧/ ٥ ـ ٣١ ط جامعة الإمام بالرِّياض).

الموالاة ـ موالاة المشركين والكفَّار ـ محرّمة وكبيرة من الكبائر، وقد تصل بصاحبها إلى الكفر والشِّرك، ولهٰذا ضبطها العلماء بأن قالوا: تنقسم المولاة إلى قسمين:

* **الأول**: التَّولِّي.
* **والثاني**: الموالاة.

الموالاة باسمها العام تنقسم: إلى التَّولي وإلى موالاة.

أما **التولِّي** فهو الذي جاء في قوله تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]: تولَّاه تولِّيا؛ التَّولي معناه: محبة الشِّرك وأهل الشِّرك، محبة الكفر وأهل الكفر، أو نصرة الكفار على أهل الإيمان قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام، بهٰذا الضَّابط يتّضح معنى التَّولي.

والتَّولي - كما ذكرتُ لكم - تولِّي الكفار والمشركين كفر أكبر، وإذا كان من مسلم فهي ردَّة.

ما معنى التولِّي؟ معناه: محبَّة الشِّرك وأهل الشِّرك ـ لاحظ الواو ـ؛ يعني: أن يحبّ الشِّرك وأهل الشِّرك جميعًا مجتمعة، أو: أن لا يحبّ الشِّرك ولٰكن ينصرُ المشركَ على المسلم قاصدًا ظهور الشِّرك على الإسلام، هٰذا الكفر الأكبر الذي إن فعله مسلم صار رِدَّة في حقه والعياذ بالله.

القسم الثاني **الموالاة**: والموالاة المحرّمة من جنس محبة المشركين والكفَّار،

(١) سُورةُ المائِـدةِ، الآيَـة (٥١).

مَـوْقِـعُ الـتَّـفْـرِيـغِ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

لأجل دنياهم، أو لأجل قراباتهم، أو لنحو ذلك، وضابطه: أن تكون محبة أهل الشّرك لأجل الدُّنيا، ولا يكون معها نصرة؛ لأنه إذا كان معها نصرة على المسلم بقصد ظهور الشِّرك على الإسلام صار تولّيا منَ القسم المكَفِّر، فإن أحبَّ المشركَ والكافرَ لدنياه وصار معه نوع موالاة معه لأجل الدُّنيا، فهٰذا محرَّم ومعصية، وليس كفرًا.

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1]، قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: أثبت الله -جلَّ وعلا- في هٰذه الآية أنَّه حصل ممن ناداهم باسم الإيمان اتّخاذ المشركين والكفَّار أولياء بإلقاء المودّة لهم.

وذلك كما جاء في الصَّحيحين وفي التَّفسير في قصَّة حاطب[2] المعروفة حيث إنَّه أرسل بخبر رسول الله ﷺ - وهٰذه عظيمة من العظائم - للمشركين لكي يأخذوا حِذْرهم من رسول الله ﷺ، فلما كُشِفَ الأمر قال عمر رضي الله عنه للنَّبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: يا رسول الله، دعني أضرب عنقَ هٰذا المنافق، قال النبي -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- لعمر: «**اتركه يا عمر، يا حاطب ما حملك على هٰذا؟**» فدلَّ على اعتبار القصد؛ لأنَّه إن كان قصد ظهور الشِّرك على الإسلام وظهور المشركين على المسلمين، فهٰذا يكون نفاقًا وكفرًا، وإن كان له مقصد آخر فله حكمه.

قال عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - مستبينًا الأمر -: «**ما حملك يا حاطب على**

(١) سُورةُ المُمْتَحنةِ، الآية (١).

هٰذا؟» قال: يا رسول الله، والله ما حملني على هٰذا محبة الشِّرك وكراهة الإسلام؛ ولكن ما من أحد من أصحابك إلَّا وله يد يحمي بها ماله في مكَّة، وليس لي يدٌ أحمي بها مالي في مكَّة، فأردتُ أن يكون لي بذلك يد أحمي بها مالي في مكَّة؛ فقال النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**صدقكم**».

الله -جلَّ وعلا- قال في بيان ما فعل حاطب: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾[1]، يعني حاطبًا؛ ففِعْلُه ضلال، وما منع النَّبيَّ -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- من إرسال عمر أو ترك عمر إلَّا أنَّ حاطبا لم يخرج من الإسلام بما فعل،[2] ولهٰذا جاء في رواية أخرى قال: «**إنَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم؛ فقد غَفَرْتُ لكم**»[3]، قال العلماء: لعلمه جلَّ وعلا بأنهم يموتون ويبقون على الإسلام.

دلَّت هٰذه الآية ـ وهي قوله تَعَالٰى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى

(١) سورة: الممتحنة.

(٢) حاطِب بْنُ أبي بلْتعةَ عمرو بْنِ عُميْرٍ اللَّخْميِّ المكِّيِّ، مِنْ مشاهيرِ المهاجِرينَ شَهدَ بدْرًا والمشاهِدَ وكانَ رسُولَ النَّبيِّ ﷺ إلى المقَوْقسِ صَاحبِ مِصْرَ، وكانَ منَ الرُّماةِ الموصُوفينَ، أخرجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٤٩٥) أَنَّ عَبْدًا لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَشْكُو حَاطِبًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَةَ**»، ماتَ سنةَ ٣٠، وانظُر السِّير (٢/ ٤٣ ـ ٤٥ ط الرِّسالة).

(٣) أخرَجهُ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٠٠٧)، و أخرجَه مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وابْنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللهُ في تَفْسِيرِه (٢٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٤).

مَوْقِعُ التَّفْرِيغِ
لِلدُّرُوسِ العِلْمِيَّةِ وَالبُحُوثِ الشَّرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ـ مع بيان سبب نزولها من قصَّة حاطب أنّ إلقاء المودَّة للكافر لا يسلب اسم الإيمان؛ لأنّ الله ناداهم باسم الإيمان فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مع إثباته -جلَّ وعلا- أنَّهم ألقَوا المودّة.

ولهٰذا استفاد العلماء من هٰذه الآية ومن آية سورة المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ ومن آية المجادلة التي ساقها الشَّيْخ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ الموالاة تنقسم إلى: تولٍّ وموالاة، الموالاة – في الاسم العام – منه: تولٍّ وهو المكَفِّر بالضَّابط الذي ذكرتُ لك، ومنه: موالاة وهي نوع مودَّة لأجل الدُّنيا ونحو ذلك.

والواجب أن يكون المؤمن محبًا لله -جلَّ وعلا- ولرسوله وللمؤمنين، وأن لا يكون في قلبه مودة للكفَّار ولو كان لأمور الدُّنيا، إذا عَامَلَ المشركين أو عَامَلَ الكفَّار في أمور الدُّنيا إنَّما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل القلب، ولا محبَّة القلب؛ لم؟ لأنّ المشرك حمل قلبًا فيه مسبَّةُ الله جلَّ وعلا؛ لأنَّ المشرك سابٌّ لله -جلَّ وعلا- بفعله؛ إذِ اتخذ مع الله -جلَّ وعلا- إلٰها آخر، والمؤمن متولٍّ لله -جلَّ وعلا- ولرسوله وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لمشرك حمل الشِّرك والعياذ بالله.

هٰذه الثَّلاثُ المسائلُ من المهمَّات العظيمات:

الأولى: أن يعلم المرء الغاية من خلقه، وإذا علم الغاية أن يعلم الطَّريق الموصلة لإنفاذ هٰذه الغاية.

الثانيَة: يعلم أنّ الطَّريق واحدة، وأن الله -جلَّ وعلا- لا يرضى الشِّرك

به، حتى بالمقرّبين عنده والذين لهـم المقامـات العاليـة عنـده جـلَّ وعـلا، لا يرضى أن يُشرك معه أحد.

الثالثَـة: أن لا يكون في قلب الموحِّد - الذي وحَّد الله، وأطـاع الرَّسـول، وخلَص من الشِّرك - محبَّة للمشركين.

هٰذه الثلاث هي أصول الإسلام بأَحد الاعتبارات.

أسأل الله -جلَّ وعلا- أن يجعلني وإيَّـاكم ممـن تحقَّقـوا بهـا قـولًا وعمـلًا واعتقادًا وانقيادًا.

المقدِّمةُ الثَّالثَةُ..
الحَنيفيَّةُ مِلَّةُ إبراهِيمَ عليه السلام هيَ التَّوْحِيدُ

اعْلَـمْ ـ أرْشَـدَكَ اللهُ لِطاعَـتِـهِ ـ أَنَّ الـحَنِـيـفِـيَّـةَ مِلَّـةَ إِبْـراهِـيمَ: أَنْ تَـعْـبُـدَ اللهَ مُـخْلِصًا لَه الدِّينَ، وبِـذلِـكَ أَمَـرَ اللهُ جَـميعَ النَّـاسِ وخَلَـقَهمْ لَـها؛ كـما قـالَ تعـالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1]، ومَعْـنَى (يَعْـبُـدُونِ): يُـوَحِّـدُونِ.

وأعظمُ ما أَمَـرَ اللهُ به التوحيـدُ، وهو: إفرادُ الله بالعِـبادة، وأعظمُ ما نهـى عنه الشركُ، وهو: دعوةُ غيرِهِ معَـهُ؛ والدَّليلُ قولُـهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2].

❊❊❊❊❊

(١) سُورةُ الذَّارياتِ، وهـٰذا التَّـفْسِير ذكَـرهُ البَـغَويُّ رَحِمَهُ اللهُ في تَـفْسيرِه (٧/ ٣٨١)، وانظُـر أيضًـا: تفسِيرَ ابـنِ جريـرٍ رَحِمَهُ اللهُ (٢١/ ٥٥٤) وتفسـير القُرْطُبـيِّ رَحِمَهُ اللهُ (١٧/ ٥١)، و مجمُـوعَ فتـاوي شـيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ (٨/ ٥٦).

(٢) سُورةُ النِّساءِ، الآية (٣٦).

الشَّرحُ

* هٰذا فيه تلطّف ثالث منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ؛ حيث دعا للمتعلِّم بقوله: **(اعلَمْ أرشَدَكَ اللهُ)**، وهٰذا الذي ينبغي على المعلِّمين أن يكونوا متلطِّفين بالمتعلِّمين؛ لأنّ التَّلطُّف والتَّعامل معهم بأحسن ما يجد المعلِّم هٰذا يجعل قلبَ المتعلِّم قابلًا للعلم مُنفتحًا له مُقبلًا عليه.

فيقول: **(إنَّ الحنيفيَّةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**)** هي التي أمر الله -جلَّ وعلا- نبيَّه وأمر النَّاس أن يكونوا عليها؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[1].

(١) سُورةُ النَّحْلِ، الآيـة (١٢٣)، و (حَنيفًا) منَ (الحنَـفِ) وهوَ: الاسْتِقامةُ ؛ لقَـولِ الشَّـاعِرِ: [مـنَ الوافِرِ]

تَـعَـلَّمْ أنْ سَيَـهْـدِيكُمْ إلَـيْـنَـا ... طَرِيقٌ لا يَـجُورُ بِكُمْ حَنِـيـفُ

وعلى هـٰذا: تَسْميَـةُ المسلِمِ المستَقيمِ علَى صِراطِ التَّوحيـدِ **(حنيفًا)** ظاهرَةٌ.

وقالُوا: **(الحنفُ)** الميلُ ـ وهُو الأشْهرُ ـ ؛ فتَسْميَـةُ المسلِمِ المسْتقيمِ **(حنيفًا)** على هذَا المعْنَـى مـنْ بـابِ ذِكرِ الشَّـيْءِ بِلازِمِه ؛ ذلكَ أنَّ الاسْتِقامةَ على التَّوحيـدِ لا تَـتِمُّ إلَّا بِالميلِ عـنْ مـا يُناقِضُـه ولِـذَا قـالَ الرَّاغبُ: **(هُو المائلُ إلى الاسْتِـقامةِ)** !، انظُر [التَّاجِ: ح ن ف].

وملَّـة إبراهيم هي التّوحيد؛ لأنَّه هو الذي تركه فيمن بعـده؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

هٰذه الكلمة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ اشتملت عـلى نفي في الشّق الأوَّل، وعلى إثبَات في الشَّـق الثَّـاني؛ ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ البراءة نَـفيٌ، ثم أثبت فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ فتبرَّأ من المعبـودات المختلفة، وأثبت أنَّه عابد للَّذي فطره وحده، وهٰذا هو معنى كلمة التَّوحيد، ولهٰذا قال –جلَّ وعلا– بعـدها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني: لعلَّهم يرجعون إليها.

وعقِب إبراهيم ﷺ منهم العرب، أليس كذلك؟، ومنهم أتباع الأنبياء؛ فهو أبو الأنبياء، ومعنى ذلك: أنه أبٌ لأقوام الأنبيـاء؛ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إليها.

وهٰذه الكلمة هي كلمـة التَّوحيـد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾؛ لأنَّ التَّوحيـد هـو ملّة إبراهيم، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معناها ما قال إبـراهيم ﷺ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ؛ فـ ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ مشتملة عـلى الـبراءة مـن كـلِّ إلـٰهٍ عُبد، و﴿إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ إثبات لعبادة الله –جلَّ وعلا– وحده دونما سواه.

ولهٰـذا يقول العلماء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معناها: لا معبود حقٌّ أو بحقٍّ

---

(١) سورة الزُّخرُفِ ومعناهُ: أنَّه (مُنذُ ظهرَ لمْ يَعدَمِ التَّوحيدُ في ذُرِّيَّـتِهِ) وكان بُعِثَ ﷺ (ولَـيْسَ عـلى وَجهِ الأرضِ يومئِـذٍ مُسلِمٌ) كما قالَ الشَّيخُ المصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في كتابِـه مُخْـتَصَرِ السِّـيرَةِ (١٢ ط جامعـة الإمام ـ الرِّياض).

إلَّا الله؛ معنى ذلك: أنَّ كل المعبودات إنَّما عُبدت بغير الحق؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾[1]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: ولكونه جلَّ وعلا ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ كانت عبادته وحده دون ما سواه هي الحقّ.

قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ لا إلٰه بحقٍّ، لا معبود بحقٍّ، لٰكن ثَمَّ معبودات بغير الحق، ثَمَّ معبودات بالباطل، ثَمَّ معبودات بالبغي والظُّلم والعُدوان، لكنَّ المعبُودَ بحقّ يَنفى عن جميع الآلهة إلَّا الله -جلَّ وعلا- فإنَّه هو وحده المعبود بحقّ.

* هٰذه الكلمة هي التي ألقاها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في عقبه، وهٰذا مراد الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى بما ذَكر، وبَيَّن أنَّ أعظم الواجبات وأعظم ما أَمر به إبراهيمُ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وما أَمر به النبيُّ ﷺ التّوحيد، وأعظم ما نهى عنه الشِّرك.

ومعنى ذلك: أنَّ أعظم دعوة الأنبياء والمرسلين من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بل من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نبيِّنا محمَّد ﷺ أعظم ما يُدعى إليه بالأمر هو الأمر بتوحيد الله جلَّ وعلا، وأعظم ما ينهى عنه ويُؤمر الناسُ بتركه هو الشِّرك، فأعظم ما أُمر به التَّوحيد وأعظم ما نُهِيَ عنه الشرك.

لِـمَ؟ لأنَّ التَّوحيد هو حقُّ الله -جلَّ وعلا- ومن أجْلِه بُعثت الرُّسل؛

---

(١) سُورةُ الحجِّ، ونَحوُها في سُورةِ لُقْمانَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠﴾.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1] فالغاية من بعث الرُّسل أن تُبيِّن للنَّاس وأن تقول لهم: اعبدوا الله وحده دونما سواه، هٰذا أمر، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يعني: اتركوا الشِّرك ومظاهر الشِّرك.

فإذن أعظم مأمور به هو التَّوحيد، أعظم ما دعا إليه الرُّسل والأنبياء من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نبيّنا محمد -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أعظم ما دُعي إليه من المأمورات التَّوحيد، وأعظم ما نُهي عنه من المنهيات هو الشِّرك؛ لِـم؟ لأنّ الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله وحده، فصار الأمر بالتَّوحيد هو الأمر لهٰذا المخلوق بأن يَعلم وأن يُنْفِذَ غاية الله جلَّ وعلا من خلق هٰذا المخلوق.

والنَّهي عن الشِّرك معناه النَّهيُ عن أن يأخذ هٰذا المخلوق بطريقٍ أو بفعل يخالف الغاية من خلقه، وهٰذا ولا شك - كما ترى - يقود إلى فهم التَّوحيد، وإلى فهم حقِّ الله جلَّ وعلا، وفهم دعوة الحق بأعظم ما يكون الفهم؛ لأنّك تنظر إلى أنَّ إنفاذ المرء ما خُلق من أجله هو أعظم ما يُدعى إليه، ونَهيُ المرء عن ما يصدّه عمّا خُلق من أجله هٰذا أعظم ما يُنهى عنه، ولهٰذا كانت دعوة المصلحين ودعوات المجدّدين على مرّ العصور في هٰذه الأمَّة هي في الدَّعوة إلى التَّوحيد ولوازمه والنَّهي عن الشِّرك وذرائعه.

أسأل الله -جلَّ وعلا- أن يزيدني وإيَّاكم من العلم النَّافع، وأن يمنَّ علينا بالعمل الصَّالح وبالفهم والسَّداد، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد.

---

(١) سُورةُ النَّحلِ، الآية (٣٦).

الأُصُولُ الثَّلاثَةُ

فَـإِذَا قِـيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّـلاثَـةُ الَّتِي يَجِبُ علَى الإِنسانِ مَعْرِفَـتُها؟
فقُـلْ: مَعْرِفَـةُ العَـبْـدِ رَبَّـهُ، ودِيـنَـهُ، ونَبِـيَّـهُ مُحَمَّـدًا ﷺ.

الأَصْلُ الأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ

فَـإِذَا قِـيلَ لَك: مَنْ ربُّـكَ؟ فقُـلْ: رَبِّـيَ اللهُ الَّـذي رَبَّـاني و رَبَّـى جَـمـيـعَ العالَـمِـينَ بِـنِعَمِه، وهُو مَعْـبُودِي لَيْسَ لِي مَعْـبُودٌ سِواهُ.

والدَّلِـيلُ قَـوْلُـه تَعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾، وكُـلُّ مـا سِـوَى اللهِ عَالَـمٌ، وأَنَـا واحِدٌ مِنْ ذلِكَ العالَـم.

فإِذَا قيلَ لَكَ: بِـمَ عَرَفْتَ رَبَّـكَ؟ فقُلْ: بِآياتِــهِ ومَخْلُوقَاتِــهِ؛ ومِـنْ آياتِــهِ: اللَّيْـلُ والنَّهـارُ والشَّـمسُ والقَمَـرُ، ومِـنْ مَخْلُوقاتِــهِ: السَّـمٰواتُ السَّبْــعُ والأَرَضُونَ السَّبْـعُ وما فيـهِنَّ وما بَـيـنَـهُما.

والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾[(١)]

وقَولُه تَعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

(١) سُورةُ فُصِّلَتْ.

مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

والرَّبُّ هُو المعبُودُ، والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

قالَ ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الـخالقُ لِـهذِه الأشْياءِ هُو الـمُستَحِقُّ لِلْعِبادةِ)[3].

وأنواعُ العِبَادةِ الَّتي أَمَرَ اللهُ بها: مِثلُ الإسْلام، والإيمانِ، والإحْسانِ، ومِنهُ: الدُّعاءُ، والخَوْفُ، والرَّجاءُ، والتَّوَكُّلُ، والرَّغبَةُ، والرَّهبَةُ، والخُشُوعُ، والخَشْيَةُ، والإنَابَةُ، والاسْتِعانَةُ، والاسْتِعاذَةُ، والاسْتِغاثَةُ، والذَّبحُ، والنَّذْرُ، وغيرُ ذلِكَ مِن أنواعِ العِبَادةِ الَّتي أَمرَ اللهُ بها كُلُّها لله تعالَى؛ والدَّليلُ قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[4].

فمَن صَرَفَ مِنها شَيْـئًا لِغَيْرِ الله فهُو مُشْرِكٌ كافِرٌ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا

---

(١) سورةُ الأعرافِ.

(٢) سورةُ البقرةِ.

(٣) مَعنى قَولِه في تفسيرِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٣٠٧): (ومَضْمُونُـهُ أَنَّـهُ الخالِقُ الرَّازِقُ مالِكُ الدَّارِ وساكِنِيها ورازِقُهمْ؛ فبهذَا يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ وَحدَه ولا يُشْرَكَ بِه غَيرُه) اهـ.

(٤) سورةُ الجِنِّ.

يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾[1].

وفي الحدِيثِ: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[2].

والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[3].

ودليلُ الخَوْفِ قَولُه تعالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[4].

ودليلُ الرَّجاءِ قَولُه تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[5].

ودليلُ التَّوكُّلِ قَولُه تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[6].

وقَولُهُ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[7].

ودليلُ الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخشُوعِ قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[8].

---

(١) سورةُ المؤْمِنونَ.

(٢) سبقَ ص (٣٩)، وانظُر كلامَ الشَّارحِ حفظهُ اللهُ الآتي ص (٨٣).

(٣) سورةُ غافر.

(٤) سورةُ آلِ عِمرانَ.

(٥) سورةُ الكهفِ.

(٦) سُورةُ المائِدةِ.

(٧) سُورةُ الطَّلاقِ.

(٨) سُورةُ الأنبِياءِ.

ودليلُ الـخَشْيَـةِ قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾[1].

ودليلُ الإنَـابَـةِ قَولُه تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[2].

ودليلُ الاسْتِعانَـةِ قَولُـهُ تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وفِي الـحديثِ: «إِذَا اسْتَـعَـنْتَ فاسْتَـعِنْ بِـالله»[3].

ودليلُ الاسْتِعاذَةِ قَولُـه تعـالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

ودليـلُ الاسْتِغاثَـةِ قَولُـه تعـالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[4].

ودليلُ الذَّبْـحِ قَولُه تعـالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾[5].

ومنَ السُّنَّـةِ: «لَعَـنَ اللهُ مَن ذَبَـحَ لِغَـيْـرِ الله»[6].

---

(١) سورةُ البقرةِ، الآيَـة (١٥٠)، ومِثلُه قولُه تعالى في سورة المائـدة، الآيَــة (٤٤): ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

(٢) سورةُ الزُّمرِ، الآية (٥٤).

(٣) أخرجَه التِّرمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٥١٦)، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

(٤) سورةُ الأنفالِ، الآية (٩).

(٥) سورة الأنعامِ.

(٦) أخرجَه الإمامُ مُسلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٩٧٨) من حديثِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ودليــــلُ النَّــــذْرِ قَولُــــه تعــــالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾[1].

۞۞۞۞

(١) سورةُ الإنسانِ.

الشَّرحُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، **أمَّا بعدُ**..

فهٰذا ابتداءٌ من المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ ببَيان المقصود من تأليف هٰذه الرِّسالة، وما قبله من المهمات التي هي موطِّئات لهٰذا المقصود؛ من بيان الواجبات الأربع، ثم الواجبات الثَّلاث، ثم ما يتَّصل بذلك.

هٰذه الرِّسالة صُنفت لبَيان الأصول الثَّلاثة؛ ألا وهي مسائل القبر: **من ربُّك؟ وما دينك؟ ومن نبِيُّك؟**، والجواب عليها في هٰذه الرِّسالة؛ بل إنّ هٰذه الرِّسالة من هٰذا الموضع إلى آخرها جوابٌ على هٰذه الأسئلة الثلاث.

فمن كان عالما بما في هٰذه الرسالة من بيان تلك الأصول العظام، كان حَريًّا أن يُثبَّت عند السؤال؛ ذلك لأنَّها قُرنِت بأدلتها، وقد جاء في الحديث الذي في الصَّحيح أن من المسؤولين في القبر من «**يقُولُ: هاهْ، هاهْ، لا أدْرِي**؛

سَمِعْتُ النَّاسَ يقُولُونَ شَيْئًا فقُلْتُهُ»[١].

استدل العلماء بقول هٰذا المفتون في قبره: (**سُمعتُ النَّاس يقولون شيئا فقلتُه**) على أنَّ التَّقليد لا يصلح في جَوابِ هذِه المسائِلِ الثَّلاثِ، جوابِ (**مَن ربُّكَ؟**) أيْ: منْ مَعْبُودُكَ، جوابِ (**مَا دِينُكَ؟**)، جوابِ (**من نبيُّك؟**)؛ ولهٰذا يذكر الشَّيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بعد كلِّ مسألة مما سيأتي الدَّليلَ من القرآن.

وقد بيّنَّا في أوَّل هٰذا الشَّرح؛ أنَّ المؤمن يخرج من التَّقليد ويكون مستدلًّا لِـما يعلمه ويعتقده من هٰذه المسائل بالحق إذا علم الدَّليل عليها مرَّة في عمره ثم اعتقد ما دلَّ عليه الدَّليل[٢]؛ فإن استقام على ذلك حتَّى موته فإنَّه يكون مؤمنًا، يعني مات على الإيمان؛ لأنَّ استمرار استحضار الدَّليل والاستدلال لا يُشترط؛ لكن الذي هو واجب: أن يكون العبد في معرفته للحق بجواب هٰذه المسائل الثلاث أن يكون عن دليل واستدلال ولو لِـمرّة في عمره؛ ولهٰذا يعلَّم الصِّغار والأطفال عندنا رسالة الأصول الثلاثة الأخرى التي فيها جواب أيضا مع بعض الاستدلال بأخصر مما هنا، يُعلَّمون جواب هٰذه المسائل الثلاث حتى إذا بلغ الغلام أو الجارية إذا هو

---

(١) أخرجَه البُخارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح١٣٧٤)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح ٢٨٧٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وذلِكَ تَأوِيلُ قَولِه تعالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سُورةُ إبراهيمُ] كما في الحديثِ.

(٢) انظر ما سبقَ ص (١٤) من هذَا الشَّرحِ.

قد عرف عن دليل واستدلال.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: (**فَإذَا قيلَ لَكَ: ما الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتي يَجِبُ علَى الإنسانِ مَعْرِفَتُها؟ فقُل: مَعْرِفَةُ العَبدِ رَبَّهُ، ودِينَهُ، ونَبِيَّهُ مُحمَّدًا ﷺ**).

(**معرِفَةُ العبدِ رَبَّهُ**) يعني: معرفة العبد معبوده؛ لأنّ الرُّبوبيَّة في هٰذا المقام يُراد بها العبودية، لم؟ لأنّ الابتلاء بالأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الرُّبوبية؛ ألم تَرَ أن الله -جلَّ وعلا- قال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هٰذه مقتضيات الرُّبوبية؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[1].

المشركون في كل زمان لم يكونوا ينازعون في تَوَحُّدِ الله -جلَّ وعلا- في ربوبيَّته، ولهٰذا فسّر العلماء سؤال القبر: (من ربك؟) بـ (من معبودُك؟) لِمَ؟؛ لأنَّ الابتلاء لم يقع في الرُّبوبية.

وقد سئل الشَّيخ الإمام -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- عن الفرق بين الرُّبوبية والألوهية في بعض النصوص - في أحد الأسئلة التي وُجِّهت إليه - فكان من جوابه أن قال: (هٰذه مسألة عظيمة، وذلك أنَّ الربوبية إذا أُطلقت أو إذا أفردت فإنه يدخل فيها الألوهية؛ لأن الرُّبوبية تستلزم الألوهية، وتوحيد الربوبية

---

(١) سورةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآيَة (٣١).

يستلزم توحيد الإلـٰهيَّـةِ، والألوهية تتضمَّن الربوبيـة)[1]؛ لأنّ الموحِّـد لله -جلَّ وعلا- في ألوهيته هـو ضِـمْنًا مُقِـرٌّ بـأنَّ الله -جـلَّ وعـلا- هـو واحـد في ربوبيته، ومن أيقن أن الله -جلَّ وعـلا- واحـد في ربوبيتـه اسـتلزم ذلـك أن يكون مُقِرًّا بأنّ الله -جلَّ وعلا- واحد في استحقاقِه العبادةَ.

ولهٰـذا تجـد في القرآن أكـثَـرَ الآيات فيها إلزام المشركين بما أقرُّوا به ـ ألا وهو توحيد الرُّبوبية ـ على ما أنكروه ـ ألا وهو توحيد الإلٰهِـيَّـةِ ـ، من مثل قول الله -جلَّ وعلا- في سورة الزُّمر: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ هٰذا توحيد الربوبية؛ قال بعدها: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم ﴾ والفاء هنا رَتّبت ما بعدها على ما قبلهـا؛ ومـا قبلهـا هو توحيد الرُّبوبيّة وما بعدها هو توحيد الإلٰهِـيَّـةِ، ولهٰـذا في القرآن يَكْثُر أن

(١) مَعنَى كلامِه رَحِمَهُ اللهُ في مَواضِعَ مُتَفَـرِّقَةٍ منَ «الدُّرَرِ السَّنِيَّـةِ» مِنهـا (١/ ١٠٦-١٠٧) و (٢/ ٦٤ ـ ٦٥) وقالَ فيه أنَّها منَ الكلماتِ الَّتـي إِذَا اجْتَمَعـتْ افْتَرَقَـتْ وإِذَا افْتَرَقَـتْ اجْتمَعـتْ كلَفْـظِ الإيـمانِ والإسلامِ، والفَقيرِ والمسكينِ.

(٢) وكذَلكَ قَولُه تعالَى في آيَـةِ سُورةِ يُونُسَ الَّتي سبقَ الاسْتِدلالُ بِها: ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾، ونَحْوُهمـا كـذلِكَ الآيـات (٦١ ـ ٦٣) سُورة العَنكبوتِ، الآية (٢٥) سُورة لُقْمانَ، الآية (٩) الزُّخْرُف.

يُحتجَّ على المشركين بإقرارهم بتوحيد الرُّبوبيَّة على ما أنكروه ألا وهو توحيد الإلٰهيَّـةِ.

لهٰـذا قـال جـلَّ وعـلا: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[1] المعنى هُنـا بــ ﴿أَرۡبَابًا﴾ أي: معبـودين، وكذلك قوله تعـالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]، يعني: معبودين؛ لأنّ عَدي بن حاتم لما قـال للنَّبـي عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّلامُ: **(إنَّا لم نعبدهم)** ففهم من معنى الرُّبوبيـة في الآيـة معنـى العبـادة، وهٰذا هو الذي يفهمه من يعرف اللِّسان العـربي، قـال النَّبـي عَلَيْـهِ الصَّـلاةُ وَالسَّلامُ - كما هو معروف -: «**ألم يحلُّوا لكم الحرام فـأحللتموه، ألم يحرِّمـوا عليكم الحلال فحرمتموه**» قال: بلى؛ فقال: «**فـتِلكَ عِـبادتهم**»[3].

إذن الرُّبوبية تطلق ويُراد منها العبودية في بعض المواضع؛ تارة بالاستلزام

---

(١) سُورةُ آلِ عِمرانَ.

(٢) سُورةُ التَّوبـةِ، الآيـة (٣١).

(٣) أخرجَه التِّرمِـذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٠٩٥) وحسَّنَـه الشَّيخُ الألبـانيُّ رَحِمَهُ اللهُ، وأخـرجَ الإمـامُ أحمـدُ رَحِمَهُ اللهُ القِصَّةَ دُونَ ذِكرِ هذِه الجزئـيَّـةِ (ح١٨٢٦٨ و١٩٣٧٨).

وعدِيُّ بْنُ حاتِمٍ الطَّائِـيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أسلَمَ سنةَ تِسْعٍ وتُوفِّيَ بَعدَ السِّتِّينَ عنْ مِئَةٍ وعِشْرينَ أوْ وثَمانـينَ، كـانَ جَوادًا كأبيه حتَّى أنَّ رجُلًا سألَه مِئَة دِرْهمٍ فغَضِبَ وقالَ: تسْألُني مِئَـةَ دِرْهمٍ وأنا ابْنُ حـاتِمٍ ؟! واللهِ لا أعطيكَ، ثُمَّ قالَ: لوْ لا أنِّي سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «**مَنْ حلَفَ علَى يَمينٍ ثُمَّ رأى غَيرَها خَيرًا مِنها فلْيأتِ الَّذي هُو خَيرٌ**» أخرجه أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٨٢٦٥)، انظرِ الإصابة (٤/ ٤٦٩).

وتارة بالقصد، وبعض علمائنا قال: إن لفظ الألوهية والربوبية يمكن أن يُدخل في الألفاظ التي يقال: (إنها إذا اجتمعت تفرّقت وإذا تفرّقت اجتمعت)، وهٰذا وجيه.

قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ هنا: (**فقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبدِ رَبَّهُ، ودِينَهُ، ونَبِيَّهُ مُحَمَّدًا** ﷺ): والمعرفة تُرادف العلم في حقِّ المخلوق في أكثر المواضع.

أمَّا في حق الله -جلَّ وعلا- فإن الله -جلَّ وعلا- يُوصف بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة، وذلك لأنَّ العلم قد لا يسبقه جهل، بينما المعرفة يسبقها جهل: عَرَف الشيءَ بعد أن كان جاهلًا به؛ لكن العلم قد لا يسبقه جهل به، ولهٰذا يوصف الله -جلَّ وعلا- بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة(١).

---

(١) انظُر: بدائِعَ الفَوائِدِ (٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٨ ط المجمع) فقدْ قَرَّرَ هذَا المعنى وردَّ على مأخَذِ المتكلِّمينَ فيه ؛ فإنَّ العِلَّةَ عِندهُمْ مختلِفةٌ.

وقد أجابَ الشَّيخُ حفظهُ اللهُ عنْ إيرادٍ يوردُ على هذا التَّقريرِ سُئِلَ عنهُ آخرَ الدَّرسِ فقالَ:

(الأخ يسأل سؤالا وجيها، وهو: أنه جاء في حديث ابن عباس: «**تعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**» [أخرجَه أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٨٠٣) وغيرُه]، وهنا يقول الأخ: وُصف الله بأنه ذو معرفة، وأنه يَعرف ؟

وهٰذا فيه نظر لأنَّ المتقرِّر في القواعد في الأسماء والصفات: أن باب الأفعال أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، وباب الأخبار أوسع من باب الأفعال وباب الصفات وباب الأسماء، فقد يطلق ويضاف إلى جل وعلا فعل ولا يضاف إليه الصفة كما أنه قد يوصف الله جل وعلا بشيء ولا يشتق له من الصفة اسمٌ، ولهٰذا يدخل في هٰذا كثير مما جاء، مثل ما وَصف الله جل =

أيضًا يقال: إنَّ التَّعبير بالعلم أوجه في المواضع التي يُحتاج فيها إلى التَّعبير بالمعرفة؛ وذلك لأنَّ المعرفة أكثر ما جاءت في القرآن مذمومة لأنَّه يتبع المعرفة الإنكار، أمَّا العلم فأوتي به في القرآن ممدوحًا؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1]؛ فهنا وصفهم بالمعرفة ثم بيَّن أنَّ معرفتهم تلك لم تنفعهم، وقال جلَّ وعلا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[2]، لكن العلم أُثني عليه في القرآن، وأمَّا المعرفة فربَّما بل أكثر المواضع فيها نوعُ ذمٍّ لها.

=

وعلا بـه نفسـه في قولـه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة]، «إِنَّ اللهَ لا يَـمَـلُّ حَـتَّى تَـمَـلُّوا» [أخرجـه البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٥٨٦١) ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٧٨٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا]، ونحو ذلـك مما جـاء مقيَّدا بالفعل، ولم يذكر صفة بالاسم، فهٰذا يقال فيه أنه يطلق مقيَّدا، ويمكن أن يحمل عليـه حـديث ابن عباس هٰذا «تعرَّفْ إِلَى الله في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ»، نقول: إنَّ الله جل وعلا يعرف في الشِّـدة من تعرّف إليه في الرَّخاء، على نحو تلك القاعدة، كما يقال: إن الله جل وعـلا يمكـر بمـن مكـر بـه، يستهزئ بمن استهزأ به، يخادع من خادعه، ولا يقال: إنَّ الله –جل وعلا– ذو مكـر، وذو اسـتهزاء، وذو مخادعة هكذا مطلقًا بالصِّفة، وإنَّما كما هي القاعدة أن باب الأفعال أوسع من باب الصِّفات.

(١) سُورةُ الأنعامِ، ونَحْوها آيَة سُورةِ البقـرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

(٢) سُورةُ النَّحْلِ، الآية (٨٣).

لٰكن هٰذا ليس على إطلاقه، لأنَّه قد جاء في صحيح مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في بعض طرق حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي فيه إرسال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن، أنَّ النبي ﷺ قَالَ لَه: «**فليَكُنْ أوَّلَ ما تَدعُوهُمْ إليه إلى أنْ يَعْرِفُوا اللهَ؛ فإنْ هُمْ عرَفُوا اللهَ فأخبِرْهُمْ أنَّ اللهَ افْترَضَ عليهمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ..**» إلى آخِرِه[1]، فصارت المعرفة هنا بمعنى العلم بالتَّوحيد كما في الرِّوايات الأُخَر، لكن التَّعبير بالمعرفة كما استعمله الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا صحيح؛ وذلك لأنه قد ورد الاستعمال به، وإن كان أكثر ما جاء استعمال لفظ المعرفة في كونه مذمومًا.

قال هنا: (**معرِفةُ العبْدِ رَبَّهُ**) يعني: معبوده، معرفة العبد (**دينَهُ**)، معرفة العبد (**نبيَّهُ محمدًا** ﷺ)، هٰذه الأصول الثّلاثة هي التي سيأتي تفصيلها والجواب عليها.

* ثم بدأ يشرح -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ- ويفصّل (**معرِفةَ العبدِ رَبَّهُ**) عن طريق السُّؤال والجواب؛ لأنَّ هٰذا أوقع في النَّفس، وأقرب إلى التَّعليم.

(**فإذَا قيلَ لَك: مَنْ ربُّكَ؟ فقُل: رَبِّيَ اللهُ الَّذي رَبَّاني ورَبَّى جَميعَ العالَمِينَ بِنِعَمِه**): لفظ الرُّبوبية فيه معنى التَّربية، ربَّاه تربيةً[2]، ومعنى

---

(١) أخرجَهُ البُخارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح١٣٣١ ومَواضِعُ أُخْرَى)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح١٩).

(٢) وقيلَ منْ جِهةِ اللَّفْظِ كذلِكَ: إنَّ (رَبَّيْتُ) مقْلُوبٌ منَ المُضَاعفِ (رَبَّ) تخفِيفًا مثلَ تَظَنَّيْتُ، وأصْلُ ذِكرِه في بابِ: ربا يَربُو أيْ: نَمَى، وربَّيتُه ـ على هذَا الأصْلِ ـ: غَذَوْتُهُ ونَمَّيْتُه، وانظُر التَّاج [ر ب ب، و: ر ب و] .

التَّربيَـة: تدريج المربَّى في مصاعد الكمال؛ كلٌّ كمالٍ بحسبه.

وأعظم أنواع التَّربية التي ربَّى بها الله -جـلَّ وعـلا- النَّـاسَ أن بعـث لهـم الرُّسل يعلِّمونهم ويُرشدونهم إلى ما يقـرِّبهم إلى الله جـلَّ وعـلا، وهٰـذه هـي أعظم نعمـة؛ قـال جـلَّ وعـلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[1]، فأعظم النّعم الـمُسداة إرسال الرُّسل، ولهٰـذا كان من أنواع التَّربية التي ربّى الله -جلَّ وعلا- بها العالمين ربَّى الله جلَّ وعـلا بها النَّاس أن بعث لهم رسلا يبشرون وينذرون.

وهناك أنواع كثيرة من التَّربية: تربية الأجسام، تربية الغرائز، تربية الفكر، تربية العقل، كل هٰذا قد مَنَّ الله -جلَّ وعلا- على ابن آدم به.

وكذلك إذا نظرت إلى أوسع من ذلك من خَلْق الله -جلَّ وعـلا- الواسـع والعالَمون الذين هم كل ما سوى الله -جلَّ وعلا- فـتجد أنَّ معاني الرُّبوبيـة والتربية بالنعم والتربيـة في تدريـجها في مدارج الكمال بما يناسـبُها ـ والله -جلَّ وعلا- أعلم بما يَصلُح؛ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[2]ــ وجـدتَ أنَّ معاني الرُّبوبية بهٰذا المعنى الذي هو التربية ظاهرٌ جدًّا.

أيضا الرُّبوبية لها معنى آخر وهو الذي سلف من معنى توحيـد الرُّبوبيـة، يعني: اعتقاد أن الله -جلَّ وعلا- هو الخالق لهٰـذا الخَلْق وحده، وهو الـرّزّاق وحده، وهو الذي يدبِّر الأمر، وهو القاهر، وهو ذو الملك، إلى آخـر معـاني

---

(١) سُورةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) سُورةُ القَصَصِ، الآية (٦٨).

الرُّبوبيّة.

* قال جلَّ وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استدلَّ الشَّيخ بهٰذه الآية: معنـى ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: كـلّ حمْـدٍ؛ لأنَّ الألـف والـلام هنـا للاسـتغراق، استغراق أنواع الحمد، فكلّ حمدٍ موجودٌ أو وُجِد أو يوجد ـ **والحمدُ مَعْنـاهُ: الثَّـناءُ بِصِفاتِ الكمالِ** ـ فهذَا الحمدُ ﴿لِلَّهِ﴾ واللَّام هنا للاستحقاق، يعنـي: مستحَقًّا لله جلَّ وعلا، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: كلُّ أنواع الحمد وجميع أنواع المحامـد مستحقَّة لله؛ لأنّ اللام هنا لام الاستحقاق، اللام تارة تكون:

❋ للملك، وهٰذا إذا كان ما قبلها من الأعيان.

❋ وتارة تكون للاستحقاق، وهي إذا كان ما قبلها من المعاني.

إذا قلت: (الدّار لفلان) الدّار عين؛ فتكون اللام (لفلان) يعني ملك.

إذا كان ما قبل اللام معنى صـارت الـلام للاسـتحقاق؛ تقـول: (الفخـر لفلان) يعني: الفخر مُستَحَقٌّ يستحقه فلان.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد معنى؛ لهٰـذا صارت اللام بعده للاستحقاق، فكـل حمد مستحقّ ﴿لِلَّهِ﴾: الإلـٰهِ الذي لا يُعبد بحق إلا هو[1]، هٰـذا الإلـٰـهُ نعتـه

---

(١) وقيلَ: اللَّامُ فيه لِلاخْتِصَاصِ، وجْهُ ذلِكَ: أنَّ الحمدَ علَى الصِّفةِ المذْكورةِ الكاملـةِ المسْتَغْرِقَـةِ لا تكونُ إلَّا لله جَلَّ شَأْنُه، انظُرْ شَرْحَ بلُوغِ المرامِ للشَّيخِ ابْنِ عُثَيْمينَ رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٢٢ ـ ٢٣ ط مدار الوطن ـ الرِّياض).

وقيلَ: لِلْمِلْكِ، وقالَ ابْنُ القَـيِّم رَحِمَهُ اللهُ: (**الحمدُ كلُّه لَه وَصْفًا و ملْكًا ؛ فهُو المحمُودُ في ذاتِه، وهُو الَّذي يَجعلُ منْ يَشاءُ من عِبادِه محمُودًا فيهَـبُه حَمدًا منْ عِندِه**) اهـ (٢/ ٦٨٣) ونقل عنِ السُّـهيلِيِّ قبـلَ هـذَا =

أنه ربّ العالمين.

[هناك فروق كثِيرة بين الحمد والشُّكر، لٰكن الذي يضبطها:

* أنَّ الحمد هو الثَّناء باللِّسان، والثَّناء على كلِّ جميل.
* وأما الشُّكر فمورده اللِّسان والعمل.

فلا يُقال ـ مثلا ـ: فلان حمد الله -جلَّ وعلا- بفعله؛ بل لابد أن يكون الحمد باللِّسان، لكن الشُّكر يمكن أن يكون باللِّسان ويمكن أن يكون بالعمَل، قال جلَّ وعلا: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[1]، وقال جلَّ وعلا: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[2].

=

(٥٣٤ ـ ٥٣٥) قولَه: (فالحمدُ كُلُّه له إمَّا مُلكًا وإمَّا اسْتِحْقَاقًا ؛ فَحمدُه لِنَفْسِه اسْتِحْقاقٌ، وحمدُ العِبادِ لَه وحمدُ بَعْضِهمْ لِبَعْضٍ مُلْكٌ لَه)، وانظُر معاني اللَّامِ ـ المذكورةَ وغيرَها ـ في مغْني اللَّبِيبِ (١/ ١٨٢).

وقَولُ الشَّيخِ حفظَه اللهُ: (﴿لِلَّهِ﴾: الإلٰهِ) اهـ إشارةٌ إلى أنَّ لَفْظَ الجلالةِ مُشْتَقٌّ وأنَّ أصْلَه (الإلٰهُ) وهذَا هُو الحقُّ منَ القَولينِ في المسألةِ كما بيَّنه ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في بدائعِ الفَوائِدِ (١/ ٣٩ ـ ٤٠)، وانظُر أيْضًا تيسيرَ العزيزِ الحميدِ (١١٣ ـ ١١٥)، وصرّح الشَّيخ حفظَه اللهُ بذلك في جواب سؤال في الدرس الثالث عشر من شرحه للعقيدة الطحاوية.

(١) سُورةُ لُقْمانَ، الآية (١٤)، وفيها أنَّ الشُّكرَ يتَعدَّى بِاللَّامِ كما يتعَدَّى بِنَفْسِه، وباللَّامِ أفْصَحُ، انظُرِ التَّاجَ [ش ك ر].

(٢) سُورةُ سبأ، الآية (١٣)، ومَعْناهُ: اعْملُوا يَا آلَ داوُدَ بِطاعةِ الله شُكرًا لله على ما آتاكُمْ [تفسيرُ الجلالَين].

فمن حيث المورد الشُّكر أعـمّ مـن الحمـد؛ لأنَّـه يشـمل الثَّنـاء والمـدح باللِّسان وبالعمل، والحمد أخصّ لأنَّه لا يكون إلا باللِّسان.

ومن حيث ما يُحمد عليه أو ما يُثنى عليه وما يمدح فإنَّ الحمد أعم؛ فهٰـذا من الأشياء التي يقول فيها العُلماء: إنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا؛ يجتمعان في شيء ويفترقان في شيء آخر][1].

وَ ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم، والعالَم: اسم لأجناس ما يُعلم، وهو: كل ما سوى الله جلَّ وعـلا، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: **(وكُلُّ ما سِـوَى الله عَالَـــمٌ، وأنَـا واحِدٌ مِنْ ذلِكَ العالَمِ)**: عالم الإنسان، عـالم الطَّـير، عـالم النَّبـات، عـالم الملائكة، عالم الجن، عالم السَّمٰوات، عالم الأرضين، عالم الماء، إلى آخره.

(وكُـلُّ ما سِوَى الله عَالَـمٌ، وأنَـا واحِدٌ مِنْ ذلِـكَ العـالَمِ) والعـالَمون جمـع عالم، والعالم كل ما سوى الله جلَّ وعلا من الأجنـاس المختلفـة؛ إذن مـا دام

---

(١) ما بينَ المعكُوفَـيْنِ جوابٌ على سُؤالٍ وردَ آخرَ الدَّرسِ، قُـدِّمَ هُنا لِلمناسبـةِ.

وبقيَ معنى خُصُوصِيَّـةِ الشُّكرِ منْ جِهةِ ما يُشكرُ عليه: فالحمدُ ـ كما ذكـرَ الشَّـيخُ ـ يكـونُ عـلى كُـلِّ جميلٍ، أيْ: مُتعدِّيًـا ولازِمًا ؛ فاللهُ تعالَى محمُودٌ على صِفاتِه الكاملةِ منَ الحياةِ والقُـدرةِ وغيرِهـا وعـلى أفعالِه الدَّائرةِ بينَ الفَضْلِ والعَدْلِ منَ الإحسانِ والإنعامِ والأخذِ بِالعِقابِ، وأمَّا الشُّكرُ فيكـونُ عـلى الجميلِ الاخْتِـيارِيِّ المتعدِّي ؛ فيكونُ مُقابلَ الإحسانِ والنِّعمةِ فلا يُقالُ: شكرْتُ فُلانًا على شَـجاعتِه ولكنْ على إكرامِه لي، وانظر: (**إدمانَ الطُّـرُوقِ لِـمَعرِفَـةِ الفُـرُوقِ**) لياسِر العَدَني (١١٣ ـ ١١٤ ط دار الآثار ـ صنعاء). وقد أشار الشَّيخ حفظه الله إلى ذلك في شرحه للقواعـد الأربـع بقولـه: (فالشُّـكر يكون عن نعمة، وأمَّا الحمدُ فقد يكون لنعمة أو في مقابل نعمة وقد لا يكون؛ يكون ثناءً مبتدَأً).

أَنَّكَ واحد من ذلك العالم فأوَّل من يخاطب بهٰذه الآيـة المؤمن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾؛ فيستيقن المؤمن بتلاوته لهٰذه الآية ربوبية الله -جلَّ وعلا- له واستحقاقه للحمد، واستحقاقه -جلَّ وعلا- لكلِّ ثناء ولكلِّ وصْف بالكمالات.

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: (**فَـإِذَا قِيلَ لَكَ: بِـمَ عَرَفْتَ رَبَّـكَ؟**): الرُّبوبية تحتاج إلى معرفة، تحتاج إلى علم، وهٰذا العلم جاء في القرآن الدِّلالة عليه، قال جلَّ وعلا: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[2]؛ فالدَّعوة إلى النَّظر في الملكوت في القرآن، بِمَ استُدِلَّ على الله -جلَّ وعلا- على ربوبيته؟ قال الشَّيخ هنا: (**فـإِذَا قيـلَ لـكَ: بِـمَ عَرَفْـتَ رَبَّـكَ؟ فقُـلْ: بِآياتِـهِ ومَخـلُوقَاتِـهِ**).

(**ومِنْ آياتِـه: اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، ومِنْ مَخـلُوقاتِـه: السَّمٰواتُ السَّبعُ والأرَضُونَ..**): لا شكَّ أن الليل والنَّهار والشَّمس والقمر من آيات الله، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[3]، وكذلك السَّمٰوات والأرض هي آيات لله جلَّ وعلا، كما قال أبو العتاهية في شعره السَّائر: [منَ المتقارِبِ]

(١) سُورةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآيـة (١٠١).

(٢) سُورةُ الأعرافِ، الآيـة (١٨٥).

(٣) سُورةُ فُصِّلَتْ، الآيـة (٣٧).

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلَى أَنَّـهُ الوَاحِـدُ [1]

والشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ هٰهنا فرّق بيْن الآيات والمخلوقات، مع أنَّ في القرآن ما يثبت أن السَّمٰوات والأرض من الآيات[2]؛ فلِمَ فرَّق؟

الجواب: أنَّ تفريق الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى بينهما دقيق جِدًّا؛ وذلك أنَّ **الآيات**: جمع آية، والآية هي البيّنة الواضحة الدّالة على المراد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[3] يعني: لدلالة بينة واضحة على المراد منها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[4] يعني: لَدلالات واضحات بيِّنات على المراد منها.

وهنا ننظر إلى أنَّه بالنِّسبة لمن سُئل هٰذا السُّؤال كون اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر آية أظهر منه عند هٰذا المسؤول أو المجيب من السَّمٰوات

---

(١) ويُنْسَبُ إلى ابْنِ المعتَزِّ العَبَّاسِيِّ الشَّاعِرِ المشْهُورِ خليفَةِ اليَومِ واللَّيلَةِ ! ترجمتُه في وفياتِ الأعيانِ لِابْنِ خلِّكان (٣/ ٧٦ دار صادر)، وترجمةُ أبي العتاهيَـةِ فيه (١/ ٢١٩) وقبلَه:

فَـوَا عَجَبًا كَـيْفَ يُعْصَى الإلٰــ ... ـهُ أَمْ كَـيْفَ يَـجْحَـدُه الجـاحِدُ

وَللهِ فِـي كُـلِّ تَـحْـرِيـكَـةٍ ... وفِـي كُـلِّ تَـسْكِـينَـةٍ شَـاهِـدُ

(٢) كقَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [سُورةُ آلِ عِمرانَ]، وقَولِه تعالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سُورةُ الشُّورَى].

(٣) سُورةُ الشُّعراءِ، وهذا أوَّلُ ذِكرِها في السُّورةِ ثُمَّ تكرَّرتْ فيها سَبعَ مرَّاتٍ أُخَر.

(٤) سُورةُ الـحِجْرِ، و (**المتوسِّمُونَ**): النَّاظِرُونَ المعْتَبِرُونَ [الجلالين].

والأرض، لِـم؟ لأنَّ تلكمُ الأشياء التي وُصفت بأنَّها آيات متغـيِّرة متقلِّبـة، تذهب وتجيء، أمَّا السَّماء فهو يصبح ويرى السَّماء، ويُصبح ويرى الأرض، فإِلْفُه للسَّماء وللأرض يحجب عنه كون هٰذه آيـات؛ لكـن الأشـياء المتغـيرة التي تذهب وتجيء، هٰذه أظهر في كونها آية.

ولهٰـذا إبراهيم الخليل عليه السلام طلب الاستدلال بالمتغيِّرات، قال جلَّ وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾[1]؛ لم؟ لأنَّه استدلَّ بهٰذه الحركة على الحدوث، استدلَّ بهٰـذا التنقُّل على أنَّه آية لغيره، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾: استدلَّ بالقمر، ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾: استدلَّ بالشَّمس لأنَّها متغيِّرات، أمَّا السَّمٰوات والأرض فهي آيات، لكنَّها في الواقع عند النَّاظر ليست مما يدلُّ دلالة ظاهرة واضحة على المراد عند مثل المسؤول هٰذا السُّؤال، مع كونها عند ذوي الفهم وذوي الألباب العالية أنها آيات، كما وصفها الله -جلَّ وعلا- في كتابه .

فالشَّمس والقمر واللَّيل والنَّهـار متغـيِّرات تُقبِـل وتـذهب، فهـي آيـات ودِلالات على الرُّبوبية، وأنَّ هٰذه الأشياء لا يمكـن أن تـأتي بنفسـها، لكـن السَّماء ثابتة، الأرض ثابتة، ينظر إلى هٰذه وهٰذه، وتلك متغيرات والتغير يُثير السُّؤال، لم ذهب؟ ولم جاء؟ لم أتى اللَّيل؟ ولم أتى النَّهـار؟ لم زاد اللَّيـل؟ ولم

(١) سُورةُ الأنعامِ، والقِطْعتانِ بَعدَها منَ الآيَتَـيْنِ التَّـاليَـتَيْنِ، الأولى مـنَ الآيـة (٧٧) والثَّانيَـةُ مـنَ الآيَـةِ (٧٨).

نقص النَّهار؟.. وهكذا؛ فهي في الدِّلالة أكثر من دِلالة المخلوقات، مع أنَّ في الجميع دَليلاً ودِلالة، لهٰذا قال: (**فإِذَا قيلَ لَكَ: بِـمَ عَرَفْـتَ رَبَّـكَ؟ فقُـلْ: بِآياتِـهِ ومَخْلُوقَاتِـهِ**) فالآيـات تـدلُّ عـلى معرفـة الله والعلـم بـالله، وكـذلك المخلوقات تدلُّ على العلم بالله والمعرفة بالله، لكن ما سمّاه آيات أخـص ممـا سمّاه مخلوقات.

وهٰذا جواب اعتراض قد اعترض به بعضهم عـلى الشَّـيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَـالىٰ في تفريقه بين الآيات والمخلوقات؛ وتفريقُه رعايةً لحال من يُعَلَّم هٰذه الأصول تفريقٌ دقيق مناسب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ.

* (**والـــدَّليلُ قَولُـــه تعـــالَى**: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَـارُ وَٱلشَّـمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1]) يعني: مما يدلُّ عليـه دلالـة واضـحة ظـاهرة بيِّنـة جليَّـة اللَّيـل والنَّهار والشَّمس والقمر؛ فإنّ المتأمِّل إذا تأمَّل اللَّيـل والنَّهـار ووجـد هٰـذا يدخل في هٰذا وذاك يدخل في ذاك وهٰذا يطول وذاك يقصرـ علـم أنَّ اللَّيـل من حيث كونه ليلًا والنَّهار من حيث كونه نهارًا أنَّها أشياء لا يمكن أنْ تـأتي بنفسها، بل هي مفعول بها، ظاهر، اللَّيل ما هو؟ ذهاب الضَّوء، والنَّهـار مـا هو؟ مجيء الضَّوء؛ الشَّمس أتت بضيائها فصار نهـارًا، لمـا ذهبـت الشَّـمس أتى القمر فصار ليلًا؛ هٰذا لا شكَّ يدلّ على أنَّ هٰذه الأشياء مفعول بها، وإذا كانت مفعولًا بها، فمن الذي فعلها؟

هٰذا السُّؤال الجواب عليه سهل ميسور لأكثر النَّاظرين، بل لكلِّ ناظر، ألا

(١) سُورةُ فُصِّلَتْ، الآيـة (٣٧).

وهُو أنَّ هٰذه تدلُّ على أنَّها محدثة، ولابدَّ لها من محدث، وأنَّ محدثها هو الـذي خلقها وسيَّرها على هٰذا النَّحو الدَّقيق العجيب، وهو ربّ العالمين.

لهٰذا قال في الآية الأخرى آية الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يجعل اللَّيل غشاء للنَّهار، يطلبه هٰذا يذهب وهٰذا يطلب الآخر، مرَّة يأخذ اللَّيل من النَّهار ويَزيدُ جذبا ويطلبه طلبا حاثا، ومرَّة النَّهار يأخذ ويطلب من اللَّيل طلبًا حاثًّا.

قال: ﴿يُغْشِى﴾ مَن الـمُغشِي والـمُغشِّي؟ هو الله جلَّ وعلا؛ ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾؛ فذكر الرُّبوبيَّة لِلعالمين بعد ذكر هٰذه الأصناف من الآيات والمخلوقات.

* ثم ذكر أنَّ معنى الرُّبوبيـة هـو العبـادة؛ والـدَّليل قولـه جـلَّ وعـلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وهٰذه الآية فيها أمر وهو أوَّل أمـر في القـرآن، أوَّل أمر في القرآن الأمر بعبـادة الله؛ قـال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ الـرَّبّ وقعـت عليـه العِــبادة لأنَّـه مفعـول بـه؛ ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: فالعابِــد هــم النَّــاس، والمعبود هو الرَّبّ، أليس كذلك؟ فتلخَّص أنَّ الرَّبّ هو المعبود؛ لأنَّـه قـال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ فالرَّبّ مفعول به، ما الذي فُعِل؟ العبادة؛ فصار معبودًا.

ولهٰـذا ساق عن ابن كثـير رَحِمَهُ اللهُ تَعَـالىٰ أنَّ مـن فعـل هٰـذه الأشـياء هـو المسـتحقّ للعبـادة؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إلى آخر الآية (**قَالَ ابْنُ كثِيرٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **الخالقُ لِهذِه الأشْياءِ هُو المستَحقُّ لِلعبادةِ**)؛ لهٰذا جاء ما بعدها ـ ما بعد الأمر بالعبادة من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فِى ..﴾ ـ جاء تعليلًا لما سبق؛ لم كان مستحقًّا للعبادة؟، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ كأنَّ سائلًا سأل: لم كان مستحقًّا للعبادة؟ لم أمرنا بأن نعبده؟ قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] إلى آخره، فهٰذه الأشياء من معاني ربوبيّته، وقد ذكرنا من قبل أنَّ الرُّبوبيّة تستلزم الألوهيّة، ولهٰذا صارت الرُّبوبيَّة هنا في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هي العبودية، والرَّب هو المعبود، والفاعل لتلك الأشياء هو المستحقّ للعبادة وحده دون ما سواه، لأنَّه هو وحده الذي خلق، وهو وحده الذي رزق، وهو وحده الذي جعل الأرض فراشًا، وهو وحده الذي جعل السَّماء بناء، وهو وحده الذي أنزل من السَّماء ماءً، والخلق جميعًا لم يعملوا شيئًا من ذلك، فالمستحقّ للعبادة هو الذي فعل وخلق وصنع وبرأ وصوّر وأبدع تلك الأشياء.

* لـمَّا تقرَّر أنَّ الرَّب هو المعبود كان من المناسب أن تُذكَر أنواعُ العبادة التي يُعبد الله -جلَّ وعلا- بها، والتي يجب إفراد الله -جلَّ وعلا- بها.

والعبادة عُرِّفت بعدَّة تعريفات:

---

(١) سُورةُ البقرةِ.

* فمنها أنها عرِّفت بأنَّ العبادة: (**هي كلُّ ما أُمِرَ به مِنْ غير اقتضاءٍ عقليٍّ ولا اطِّرادٍ عُرفِـيٍّ**).

وهٰذا هو تعريف الأصوليين في كتبهم، ومعنى ذلك: أنَّ الشيء الذي أُمـر به من غير أن يقتضي العقل المجرَّد الأمرَ به ومن غير أن يَطَّرِدَ به عُـرف هٰـذا يسمَّى عبادة.

* يفسّر ذلك تعرِيفُ شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ تعـالى- للعبـادة في أوَّل رسالته (**العبودية**) حيث قال: (**إنّ العبادة: اسم جامع لكل مـا يحبُّـه الله ويرضاه مـن الأقـوال والأعـمال الظـاهرة والباطنَـة**)[1]، وهٰـذا التعريـف مناسب؛ لأنَّه أيسر في الفهم أوّلًا، والثاني: أنه قريب المأخذ من النَّصوص.

فقال: (**إنَّ العبادة اسم جامع**) أيْ: يجمـع أشـياء كثـيرة، جـامع لأي شيء؟ (**لكل ما يحبُّه الله ويرضاه**)، كيف نصل إلى أنَّ هٰذا العمل أو القـول يحبّـه الله ويرضاه؟ لابد أن يكون:

* مأمورًا به.
* أو مخـبَرًا عنه بأن الله -جلَّ وعلا- يحبّه ويرضاه.

أنواعها: قال: (**من الأقوال والأعمال**) فهناك قول وعمـل؛ فـإذن العبـادات تنقسم إلى:

* عبادات قولية.
* وعبادات عملية.

---

(١) «العُبُودِيَّـة»، ضِمنَ «مجموعِ الفتاوي» (١٠/ ١٤٩).

ليس ثَمَّ قسم ثالث، إمّا أن تكون العِبادةُ قولية، وإمّا أن تكون عملية.

قال: (**الظَّاهرة والباطنَـة**): قد يكون القول ظاهرًا، وقد يكون باطنًا، وقد يكون العمل ظاهرًا، وقد يكون باطنًا؛ فتحصَّـل أنّ أنـواع العبـادات هـي: **الأقوال والأعمال التي يحبُّها الله ويرضاها.**

* **والقول: قد يكون باللِّسان، وقد يكون بالـجَـنان.**

ـ قول اللِّسان أنـواع كثـيرة ممـا أمـر الله -جـلَّ وعـلا- بـه، مثـل: الـذِّكر، والتِّلاوة، كلمـة المعـروف، ونحـو ذلـك هٰـذه كلُّهـا مـن أنـواع العبـادات اللِّسانية.

ـ قول القلب: قول القلب هو نيّته، قصده، التبست النِّية على قوم فكـانوا يتلفَّظون بها، فالنِّية قول، لكنَّها قول القلـب، إذا قصـد القلـب وتوجـه إلى شيء كان قائلا به، ليس متكلِّما، لأنَّ الكـلام مـن صـفات اللِّسـان؛ الكـلام ظاهر، أمّا القول قد يكون ظاهرًا وقد يكون باطنا.

* **العمل: عمل القلب وعمل الجوارح.**

وهٰذه الأنواع التي ذكرها الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تعـالى ممـثّلًا بعضـها مـن الأقـوال والأعمال، بعضها ظاهر، وبعضها بـاطن، بعضـها لسـاني، وبعضـها قلبـي، وبعضها عملي قلبي، وبعضها من عمل الجوارح.

فمثلا: (**الإخلاص**) هٰذا عمل القلب، (**التوكل**) عمل القلب، لا يصـلح الإخلاص إلا لله جلَّ وعلا؛ إخـلاص العبـادة، إخـلاص الـدِّين إلَّا لله جـلَّ وعلا؛ كـما قـال تعـالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، ﴿قُلِ

ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾[1]، التَّوكل كذلك من أعمال القلب التـي ليسـت إلَّا لله [2].

(١) سُورةُ الزُّمر.

(٢) وسُئِلَ الشَّيخُ حفظَه اللهُ تعالَى في نِهايَـةِ هذَا الدَّرْسِ سؤالًا مبنيًّـا على هذَا التَّقرِيرِ، وهذَا نصُّه مـعَ الجوابِ: (هٰذا سؤال بالـمُناسبة، قال: هل يصحّ أن يُـقال: توكلتُ على الله ثم عليك ؟

والجواب: أنّ هٰذا لا يصلح ؛ لأنَّ الإمام أحمد وغيره من الأئمة صرّحوا بأنَّ التَّوكُّل عمل القلـب [في «مدارج السَّالكينَ» (٢/ ١١٤) نسبَه إلى الإمامِ أحمدَ، و رواهُ صَاحبُ «الحليَـةِ» (١٠/ ٢٥٦) عن الـجُنَـيْـدِ].

ما معنى التَّوكُّل ؟ هو: تفويض الأمر إلى الله –جل وعلا– بعـد بـذل السـبب ؛ إذا بُـذل السـبب فوض العبد أمره إلى الله، فصار مجموع بذله للسبب وتفويضه أمره لله مجموعها التَّوكُّل، ومعلـوم أن هٰذا عمل القلب كما قال الإمام أحمد.

ولهٰذا سُئل الشَّيخ محمد بن إبراهيم مفتي الدِّيار السُّعودية السَّـابق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى عـن هٰـذه العبـارة فقال: لا تصح؛ لأنَّ التَّوكل عمل القلب لا يَقبل أن يقال فيه (ثُمَّ): توكلت على الله ثـم عليـك، إنَّـما الذي يقال فيه (ثُمَّ) ما يسوغ أن يُنسب للبشر.

بعض أهل العلم في وقتنا، قالوا: إنَّ هٰذه العبارة لا بأس بها: (توكلتُ عـلى الله ثـم عليـك)، ولا يُنظر فيها إلى أصل معناها وما يكون من التَّوكُّل في القلب، إنما ينظر فيها إلى أنَّ العامَّة حين تستعملها ما تريد التَّوكُّل الذي يعلمه العلماء، وإنَّما تريد من مثل معنى: اعتمدت عليك، ومثل وكَّلـتُك، ونحو ذلك، فسهّلوا فيها باعتبار ما يجول في خاطر العامة من معناها وأنَّهم لا يعنون التَّوكُّل الذي هـو لله ؛ لا يصلح إلَّا لله.

لكن الأوْلى المنع؛ لأنَّ هٰذا الباب ينبغي أن يُسد، ولو فتح بابُ أنه يستسهل في الألفاظ لأجل مراد =

(الخوف) من أعمال القلب التي ليست إلَّا لله، يعني: خوف العبادة، خوف السِّر، وسيأتي إيضاحه -إن شاء الله- في موضعه، **(الرّغبة، الرّهبة، الإنابة، الخضوع، الذّل)** ذلّ العبادة، خضوع العبادة.. إلى آخره، وسيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى؛ هٰذه كلّها من أعمال القلب وهي داخلة في أنواع العبادة.

الأعمال الظَّاهرة مثل: **(الاستِغاثة)** الاستغاثة: طلب الغوث، طلب الغوث طلبٌ ظاهر، مثل: **(الاستعانَة)**: طلب العون، هٰذه من الأعمال الظَّاهرة، **(الذَّبح)** واضح أنَّه عمل الجوارح، **(النَّذر)** واضح أنَّه قول اللِّسان وعمل الجوارح، ونحو ذلك.

فإذن هٰذه العبادات التي مَثَّل بها أراد أن يشمل تمثيله أقسام العبادات القولية والعملية، الظَّاهرة والباطنة، يجمعها جميعًا أنَّها **(عبادات)**.

= العامَّة فإنَّه يأتي من يقول مثلا ألفاظًا شركية ويقول: أنا لا أقصد بها كذا !، مثل الذين يظهر ويكثر على لسانهم الحلف بغير الله، بالنّبي أو ببعض الأولياء أو نحو ذلك يقولون: لا نقصد حقيقة الحلف!؛ ينبغي وصدُ ما يتعلّق بالتَّوحيد، و ما ربَّما يكون قد يخدشه أو يُضعفه، ينبغي وَصْدُ الباب أمامه حتى تَخلُص القلوب والألسنة لله وحده لا شريك له) اهـ، وانظر مجموعَ فتاوي ورسائل العلاّمةِ محمَّدِ بْنِ إبراهيمَ آلِ الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ (١/ ١٧٠).

وسيأتي مزيدُ تَفصِيلٍ في بابِ التَّوكُّلِ مِن علاقَتِه بِالسَّببِ ومرتَبَتِه معَه وهلْ يُفصَّلُ في حُكمِ صَرْفِه لغيرِ الله والفرقِ بينهُ وبينَ التَّوكيلِ.. الخ في شَرْحِ ذكرِ المصَنِّفِ دليلَ التَّوكُّلِ وكذَا ضِمنَ الأسئِلةِ الَّتي تردَ في تِلكَ المناسبَةِ إن شاءَ اللهُ تعالَى، انظرْ ص (٨٧) وما بعدها منْ هذَا الشَّرْحِ.

والعبادة لا تصْلُح إلا لله جلَّ وعلا، العباداتُ الظَّاهرة أو الباطنـة، القلبيَّـة أو اللِّسانية، أو التي موردها الجوارح، فهـي لا تصـلح إلَّا لله؛ فمـن صرف شيئًا منها لغير الله فقد توجّه بالعبادة لغير الله منافيـا لما قـال الله جـلَّ وعـلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[1]، ومنافيًا لإقـراره بـأنّ معبـوده هـو الله جـلَّ وعلا.

إذا أقرّ العبد بأنّ قوله (**من ربك؟**) يعني: من معبودك؟ وأنّ الله جلَّ وعـلا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يعني: وحده دون ما سواه فإنه إذا توجّـه بشيء من هٰذه الأنواع لغير الله -جلَّ وعلا- كان متوجّها بالعبـادة لغـير الله، وذلك هو الشرك.

* (**والدليلُ قوله تعـالى**: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾[2]، ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾: الدُّعاء هو العبادة؛ كما جاء في الحديث الذي استدل به الشَّيخ وهو قوله عَلَيْه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ: «**الـدُّعاءُ مُـخُّ العِــبَادَةِ**»، وهـو حـديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وإسناده فيه ضعف، لكن معنـاه هـو معنـى الحـديث الصحيح حديث النُّعمان بـن بشـير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الـذي رواه أبـو داوود والترمـذي وجماعة، وهو قوله عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ: «**الـدُّعاءُ هُـو العِــبَادَةُ**»، «**هُـو العِـبَادَةُ**» يعني: «**مُخُّ العِـبَادَةِ**»؛ لأنّ «**الدُّعاءُ هُو العِـبَادَةُ**» بمنزلة قول النَّبـيِّ

(١) سُورةُ البقرةِ، الآيَـة (٢١).

(٢) سورةُ الجنِّ.

ﷺ: «**الحجُّ عَـرَفَـةٌ**»[(1)].

قـال تَعَـالَىٰ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾، ﴿فَلَا تَدْعُواْ ﴾ يعني ـ كما ذكرتُ لكم من قبل ـ: لا دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ يعنـي: لا تعبـدوا مـع الله أحـدًا، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾: هٰذا نهي أن يدعوَ الناسُ أحـدًا مـع الله جلَّ وعلا، يعني: أن يعبدوا أحدًا مع الله جلَّ وعلا.

وإذا كان الدُّعاء هنـا بمعنـى دعـاء المسـألة فيكـون معنـى الآيـة: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا ﴾ تسـألوا سـؤال عبـادة ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾، لا تطلبـوا طلـب عبادة ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾، ولفظ ﴿تَدْعُواْ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعـاء المسـألة؛ فهٰذه الآية دليل على وجوب إفراد الله -جلَّ وعلا- بالعبادة.

فإن قال قائل لك حين الاستدلال بها: إنَّ الدُّعاء هنـا هـو دعـاء المسـألة، وغيره من أنواع العبادة التي تزعمون مـن الـذَّبح والنَّـذر ومـن الاسـتغاثة والاستعاذة ونحو ذلك أنَّها لا تدخل في النَّهي في هٰذه الآية.

فيكون جوابُك: أنَّ الدُّعاء في القرآن جاء بمعنيين: جاء ويراد به العبـادة، وجاء ويراد به المسألة.

---

(١) أخرَجَـه النَّسـائيُّ رَحَمَهُ اللَّهُ (ح٣٠١٦)، وأبـو داودَ رَحَمَهُ اللَّهُ (ح١٩٤٩)، والتِّرْمِـذِيُّ رَحَمَهُ اللَّهُ (ح٨٨٩) وغيرُهمْ، من حديث عبد الرحمٰن بن يعمـر الـدَّيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصَـحَّحهُ الشَّـيخُ الألبـانيُّ رَحَمَهُ اللَّهُ، وانظُـر الإرواءَ (ح١٠٦٤) وسبقَ تخريجُ الحديثينِ الآخرَيْنِ ص (٣٩)، واسْـتِدْلالُ المصَـنِّفِ رَحَمَهُ اللَّهُ بِحـدِيثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يـأتي.

* فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ظاهر أنَّ الدُّعاء المراد به: العبادة؛ لأنَّه قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

* وكذلك في قوله تعالى مخبرًا عن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾، قال جلَّ وعلا بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]؛ ففي الآية الأولى أخبر عن إبراهيم أنَّه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ ثم قال جلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدلَّ على أنَّ إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ أي: وما تعبدون؛ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- قال بعدها: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾، وهٰذا من الأدلَّة الظَّاهرة أنَّ الآية هٰذه[3] تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

وقد أُورد على أئمتنا رحمهم الله تعالى - حين قرّروا التَّوحيد في مقالهم وفي كتبهم -: أن هٰذه الآية إنَّما هي دليل للمسألة، وأمَّا غيرها مما تدَّعون أنَّه عبادة وأنَّ هٰذه الآية فيها نهي عنه؛ كالذبح والنذر ونحو ذلك أنه لا يدخل في الآية !.

فكان الجواب: أنَّ الدُّعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهٰذا يأتي في

---

(١) سُورةُ غافِر.

(٢) سُورةُ مرْيَمَ.

(٣) أيْ: آيَةَ سُورةِ الجنِّ موضُوعَ الشَّرْحِ.

القرآن وذاك يأتي في القرآن، والآية تشمل النَّوعين؛ لأنَّ الدُّعاء إذا كان في القرآن يأتي تارات لهٰذا وتارات لهٰذا، فتحديده في هٰذه الآية بأحد النوعين ونفي النوع الآخر، هٰذا نوع تحكُّم وهو ممتنع[1].

* فالعبادة حق لله جلَّ وعلا، وإنَّ كل معبود سوى الله -جلَّ وعلا- فإنَّ عبادته بغير الحق، وإنَّما هي بالباطل والظلم والطغيان والجَوْر والتَّعدي من الخلق، فالله -جلَّ وعلا- هو الذي يستحقُّ العبادة وحده دون ما سواه من خلقه.

وبعد أن ذكر أنواع العبادات التي موردها اللِّسان والقلب والجوارح قال رَحِمَهُ اللهُ: (**فمَن صَرَفَ مِنها شَيْـئًا لِغَيْـرِ الله فهُو مُشْرِكٌ كافِرٌ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾**[2]).

(**مَنْ صَرَفَ**) يعني: من توجّه بشيء من أنواع تلك العبادات (**لِغَيرِ الله فهُو مُشْرِكٌ كافِرٌ**): يُريد الشِّرك الأكبر الذي يُخرج من الملّة.

والشِّرك حقيقته: اتّخاذ النِّدّ مع الله جلَّ وعلا، وهو المذكور في قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]، والتَّنديد يعني: أن يُجعل لله مِثْل في الاستحقاق، استحقاق التوجّه، استحقاق العبادة؛ إذا جُعل لله

(١) وانظُر ما سَبقَ من تفسيرِ هذِه الآيـةِ ص (٣٣) منْ هذَا الشَّرْحِ.

(٢) سُورةُ المؤْمنونَ.

(٣) سُورةُ البقرةِ.

مَـوْقِـعُ الـتَّفْـرِيـغِ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

نِـدٌّ إمَّا بالقول أو بالعمل فذلكم هو الشِّرك.

فكلُّ نوع من هٰذه الأنواع وغيرُها من الأنواع التي تدخل في مسمَّى العبادة صرْفها لغير الله -جلَّ وعلا- شرك أكبر يُخرج من الملة، وصاحبه مشرك كافر، إمَّا الكفر الظَّاهر، وإمَّا الكفر الظَّاهر والباطن معًا.

وهٰذا الذي ذكره بَرْهَنَ له بقوله تَعَالىٰ: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾، وقوله هنا: ﴿لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ هٰذا بيان لحقيقة من دُعي مع الله جلَّ وعلا، قال: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ هٰذا الإلٰه الآخَرُ وهٰذا الدَّاعي منعوت بأنّه ﴿لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ﴾ بما فعل ولا دليل؛ وإنَّما فعل ما فعل من دعوة غير الله بِهَواهُ وبتعدِّيه.

فقوله: ﴿لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ ليس مفهومه أنَّ ثَم دعوة لغير الله تعالى ليس لها برهان، وإنَّما كلُّ دعوة لغير الله ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ أيَّ إلٰه كان فإنَّ ذلك الدَّاعي ﴿لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ﴾ بما فعل.

والدَّليل على أنَّ دعوة غير الله -جلَّ وعلا- كفر قوله -جلَّ وعلا- في الآية نفسها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾؛ فدلَّ على أنَّ دعاء غير الله كما أنه شرك - إذْ دُعي إلٰهٌ آخر مع الله جلَّ وعلا - فهو كفر؛ لأنَّه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

والشِّرك أقسام، والعلماء يَقْسِمون الشِّرك باعتبارات مختلفة:

* فتارة يُقسم الشِّرك إلى: شرك ظاهر، وشرك خفي.
* وتارة يُقسم الشِّرك إلى: شرك أكبر، وشرك أصغر.

* وتارة يُقسم إلى: شرك أكبر، وأصغر، وخفي.

وهٰذه تقسيمات معروفة عند العلماء، وكلّ تقسيم باعتبار، وهـي تلتقـي في نتيجة كلِّ قسم والتعريف، لكنه اختلاف في التقسيم باعتبارات مختلفة.

فمثلا من يَقْسِمون الشِّرك إلى ظاهر وخفي، إلى جلي وخفي:

* فيكون الجليّ منه ما هو أصغر ومنه ما هو أكبر، الجـليّ: الظّـاهر الـذي يُحس، مثل: الذَّبح لغير الله، النَّذر لغير الله، هٰذا جليّ، هٰذا من نـوع الشِّــرك الأكبر، هو جليّ أكبر، كذلك مثل: الاستغاثة بغير الله فيما لا يقـدر عليـه إلَّا الله، كذلك هٰذه من نوع الشِّرك الجليّ الأكـبر، الحلِـفُ بغـير الله تعـالى شرك جليّ؛ ولكنَّه أصغر، هٰذا قسم، شرك جليّ.

* قَسِيمُه: الشِّرك الخفيّ، منه ما هو أكبر كشرك المنـافقين؛ فـإنّ شركهـم خفيّ لم يُظهروه وإنَّما أظهروا الإسلام، فما قام بقلوبهم من التَّنديـد والشِّـرك صار خفيًّا لأنَّهم لم يُظهروه، فهو شرك خفيّ ولكنَّه أكبر.

وهناك شرك خفيّ أصغر، مثل: يسير الرِّياء، فإنَّ كان الرِّياء كـاملًا كـان ذلك شركًا أكبر كشرك الـمُنافقين، وإن كـان يسـيرًا كتصـنُّع المـرء بالعبـادة لمخلوق مثله ـ لغير الله ـ فهٰذا إذا كان يسيرًا فإنَّـه شرك أصـغر خفـيّ، هٰـذا نوع من أنواع التَّقاسيم.

بعض العلماء يقول: الشِّرك قسمان: أكـبر وأصغــر؛ فــإذا كـان الأكـبر قَسم الأكبر إلى: جـليّ وخفيّ، وقَسَم الأصغر إلى: جليّ وخفيّ.

والأوضح أن يقسم إلى ثلاثة، إلى: أكبر وأصغر وخفي:

* ويكون الخفي مثل: يسير الرياء.

* والأصغر مثل: الحلف بغير الله، تعليق التمائم.. ونحو ذلك.
* والأكبر مثل: الذبح والنذر والاستغاثة ودعوة غير الله جلَّ وعلا.

هٰذه تقسيمات للشِّرك؛ قد تجد هٰذا أو ذاك في كلام طائفة من أهل العلم، لكن كلّها محصَّلُها واحد، وإنما التقسيم باعتبارات، وهي ملتقية في التعريف وفي النتيجة. [1]

مُراد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هٰهنا بقوله: (**فمَنْ صَرَفَ منها شيئًا لغيرِ الله فهو مُشرِكٌ كافرٌ**) يريد الشِّرك الأكبر الذي يُخرج من الملة؛ فكلّ شيء صحَّ عليه قيد (**العِبادة**) فإن صرْفه لغير الله – يعني: التوجه به، التعبد به لغير الله – هٰذا كفر؛ مثل: نِداء الموتى، أو نداء الغائبين، أو خوف السِّر، أو الذّبح لغير الله، أو النذر لغير الله، أو الاستغاثة بالأموات، أو طلبِ أنواع الطّلب المختلفة من الاستعانة ونحوها، أو بعض أعمال القلوب مثل الاستعاذة ونحو ذلك.

هٰذه كلها أنواع للعبادات بعضها في القلب وبعضها للجوارح، جميعا من توجّه بشيء منها لغير الله فهو مشركٌ الشِّركَ الأكبر الذي يخرج من الملة.

البرهان قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ وقد قدَّمتُ لك أن ﴿يَدْعُ﴾ والدُّعاء في القرآن قد يكون دعاء مسألة وقد يكون دعاء عبادة، فإذا لم يكن في الدَّليل ـ في النص ـ قرينة تحدِّد أحد المعنيين حُمل على المعنيين جميعًا؛ لأنَّ حمل النَّص على أحد المعنيين دون دليل وبرهان تحكُّم في النص؛

---

(١) وقد مثّل الشيخ حفظَهُ الله لهٰذه التّقسيمات في مقدِّمة شرحه لكتاب التَّوحيد.

وذلك لا يجوز.

* قال رَحِمَهُ اللهُ: (**وفي الحدِيثِ: «الـدُّعاءُ مُـخُّ العِـبَادَةِ»**)، «**مُـخُّ العبَـادَةِ**» يعني: لبُّها وجوهرها، وهو كما جاء في الحديث الآخر الصحيح ـ حديث النُّعمان ـ: «**الدُّعاءُ هُـو العِـبَادَةُ**»، وكما قال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، وسبق أنْ أوضحتُ لكم هٰذه المسألة بتفصيل فيما مضى.

* بعد ذلك شرَعَ المؤلفُ – رَحِمَهُ اللهُ تعالى وأجزل له المثوبة – في بيان أدلَّة كون تلك التي ذكر من العبادات، وذكر الخوف، وذكر الرّجاء، وذكر الرّغبة، وذكر الرّهبة، وذكر الخشوع، وذكر التَّوكُّل، وذكر أشياء، والذَّبح والنذر.. إلى آخره.

فكأنَّ قائِلا قال: ما الدليل على أنَّ هٰذه من العِبادات التي من صرَفها لغير الله جلَّ وعلا كَفر؟؛ فهو يسوق الأدلةَ، والأدلة على هٰذه المسألة على نوعين:

* **الأوَّل**: أن يُستدل بدليل يُثبت كون تلك المسألة من العبادة، يثبت كون الخوف من العبادة، يثبت كون الرَّجاء من العبادة؛ فإذا ثبت كونه من العبادة استدل بالأدلَّة السَّابقة كقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقوله: «**الدُّعَاءُ هُـو العِـبَادَةُ**»، «**الـدُّعَاءُ مُـخُّ العِـبَادَةِ**»، ﴿إِنَّ

---

(١)سورةُ غافر، الآيـة (٦٠)، وسبقَ الحديثانِ ص (٣٩) و (٥٧) و (٨٢)، وانظُرْ تَـفْصِيلَ المسألةِ في (٨٢) وما بعدها.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾[1]، ونحوها من الأدلة العامَّة بأن من توجَّه بالعبادة لغير الله فهو مشرك.

إذن النَّوع الأوَّل منَ الأدلَّةِ متركِّب من شيئين، الأوَّل أن يقام الدَّليل على أنَّ هٰذه المسألة من العبادة، على أن الخوف من العبادة، على أن الرجاء من العبادة؛ فإذا استقام الدليل والاستدلال على أن هٰذه المسألة من العبادة استدللتَ بالأدلة العامة على أن من صرف شيئا من العبادة لغير الله فهو مشرك، هٰذا نوع.

* **النوع الثاني**: خاص؛ وهو: أنَّ كلّ نوع من تلك الأنواع له دليل خاص يُثبت أنَّ صرفه لغير الله -جلَّ وعلا- شرك، وأنَّه يجب إفراد المولى -جلَّ وعلا- بذلك النَّوع من أنواع العبادة.

وهٰذا مما ينبغي أن يتنبه له طالب العلم في مقامات الاستدلال؛ لأنَّ تنويع الاستدلال عند الاحتجاج على الخرافيين والقبوريين وأشباههم مما يقوي الحجة، تُنوِّع الاستدلال: مرَّة بأدلَّة مجملة، مرَّة بأدلَّة مفصَّلة، مرَّة بأدلَّة عامَّة، مرَّة بأدلَّة خاصَّة؛ حتى لا يُتوهَّم أنَّه ليس ثَمَّ إلَّا دليل واحد يمكن أن ينازع المستدل به الفهم؛ فإذا نوّعتها صارت الحجة أقوى والبرهان أجلى.

بدأ في ذكر هٰذه الأدلة، بعضها من النَّوع الأول وبعضها من النَّوع الثَّاني:

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**دليلُ الخوفِ**) يعني: دليل كون الخوف عِبادة (**قَولُه تعالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾**)، هٰذا الدَّليل فيه أنَّ الخوف

---

(١) سبقَتْ هذِه الأدلَّـةُ قريبًـا.

من غير الله منهي عنه، وأنَّ الخوف من الله -جلَّ وعلا- مأمور بـه، قـال جـلَّ وعلا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ نهي عن الخـوف مـن غـير الله، ثـم قـال: ﴿وَخَافُونِ﴾ وهٰذا أمر بالخوف من الله جلَّ وعلا.

وما دام أنّ الله -جلَّ وعلا- أمر بالخوف منه فإنه يصدق عـلى الخـوف إذن تعريف العبادة؛ لأنه إذْ أَمر بالخوف منه فمعنى ذلك أن الخوف منه محبـوب له مرضي عنده، فيصدق عليه تعريـف شـيخ الإسـلام للعبـادة أنَّهـا **(اسـم جامع لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه)**، وهٰذا ما دام أنَّه أمر به فمعنـاه أنَّ الله -جـلَّ وعلا- يحبُّه، لأنَّه إنَّما يأمر شرعًا بما يحبُّه ويرضاه.

وفي هٰـذه الآيـة دليل من النَّوع الثَّاني، وهو: أنَّ الـخوف يجب أن يفرد به الله جـلَّ وعـلا؛ قـال هٰهنـا: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فجعـل حصـول الإيمان مشروطًا بالخوف منه جلَّ وعلا؛ قال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾: إن كنتم مؤمنين فخافونِ ولا تخافوهم[1]، وهٰذا فيه دليل على إفراد الله -جلَّ

(١) سواءٌ قيلَ: إنَّ الجوابَ مُتقَـدِّمٌ، وهو قَولُه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ على الشَّرطِ وهُو قَولُـه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أوْ قيلَ: إنَّ الجوابَ محذُوفٌ مقدَّرٌ بعدَ الشَّرطِ دلَّ عليه ما قبله، أيْ: إن كُنـتمْ مُـؤْمنينَ فلا تَخافُوهُمْ وخافُونِ، وهُما قولانِ عند النَّحْوِيِّـينَ، و **(المعنى واحدٌ، ولا بُدَّ من أخذِ الآيَـةِ بِمَنطُوقِها ومَفْـهُومِها ؛ المنطُوقُ: إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنينَ خافُونِ، والمفْهُومُ: منْ لَـمْ يَـخَفِ اللهَ تعـالَى ويُفْـرِدْهُ بِـالخوْفِ مِنهُ لَيْسَ بِمُـؤْمِنٍ)** اهــ مـن شَرحِ العلَّامـةِ محمَّـد أمـان الجـاميِّ رَحِمَهُ اللهُ لِثلاثَـةِ الأُصُـولِ (٥٩ ط دار النَّصيحةِ بِالمدينَـةِ) ؛ لأنَّ **(المعلَّـقَ على الشَّرْطِ يُعْـدَمُ عِندَ عَـدَمِه... وهذَا يدُلُّ على انْحِصـارِ المؤْمِنينَ** =

وعلا- بهٰذا النَّوع من الخوف.

والخوف الذي يجب إفراد الله -جلَّ وعلا- به ومن لم يُفرد الله -جلَّ وعلا- به فهو مشرك كافر هو نوع من أنواع الخوف، وليس كل أنواع الخوف، هو: **خوفُ السِّـرِّ**، وهو: أن يخاف غيرَ الله -جلَّ وعلا- في ما لا يقدر عليه إلَّا الله جلَّ وعلا، وهو المسمَّى عند العلماء: خوفَ السِّرِّ، وهو: أن يخـاف أن يصـيبه هٰذا المخوف منه أن يصيبه ذلك الشَّيء بشيء في نفسه – يعني: في نفس ذلك الخائف – كما يصيبه الله -جلَّ وعـلا- بأنواع المصائب من غير أسباب ظاهرة ولا شيء يمكن الاحتراز منه.

فإنّ الله -جلَّ وعلا- له الملكوت كله، وله الملك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، بيده تصريف الأمر، يرسل ما يشاء من الخير، ويمسك ما يشـاء مـن الخـير، يرسل المصائب، وكل ذلك دون أسباب يعلمها العبد، وقد يكـون لبعضـها أسباب، لٰكن هـو في الجملـة مـن دون أسـباب يمكـن للعبـد أن يعلمهـا؛ يموت هٰذا، ينقضي عمر ذاك، هٰذا يموت صغيرا، ذاك يمـوت كبـيرا، هٰـذا يأتيه مرض، وذاك يُصيبه بلاء في ماله ونحو ذلك، الذي يفعل هٰذه الأشـياء هو الله جلَّ وعلا؛ فيُخاف من الله جلَّ وعلا خـوف السِّــر أن يصـيب العبـد بشيء من العذاب في الدُّنيا أو في الآخرة.

فيمَنْ كانَ بِهذِه الصِّفَـةِ) كما في «مدارِجِ السَّالِكينَ» (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩) ويأتي النَّقلُ بتمامِـه ص(١٠٤) حاشية.

المشركون يخافون آلهتهم خوف السّر: أن يصيبهم ذلك الإلٰه ـ ذلك السيد، ذلك الولي ـ أن يصيبهم بشيء كما يصيبهم الله جلَّ وعلا بالأشياء، فيقع في قلوبهم الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله جلَّ وعلا.

يُوضِح ذلك أنّ عُبَّاد القبور وعبّاد الأضرحة وعبّاد الأولياء يخافون أشدّ الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء إذا تُنُقِّص الوليُّ، أو إذا لم يُقَم بحقه.

وقد حُكِيَتْ لي في ذلك حكاية من أحد طلبَة العلم: أنه كان مجتازا مرَّة مع سائق سيارة أجرة ببلدة (طنطا) المعروفة في مصر التي فيها قبر البدوي، والبدوي عندهم معظَّم ويعطونه من الأوصاف بعض ما لله جلَّ وعلا.

هم اجتازوا بالبلدة فأتى صغير – متوسِّط السِّن – يسأل هٰذا صَدقة؛ فأعطاه شيئًا، فحلف له بالبدوي أن يعطيه أكثر، وكان من العادة عندهم أنَّ من حُلف له بمثل ذلك فلا يمكن أن يرد؛ بل لا بد أن يُعطي؛ لأنَّه يخاف أن لا يقيم لذلك الولي حقَّه !، فقال هٰذا – وهو من طلبة العلم والمتحقّقين بالتَّوحيد – فقال: هات ما أعطيتك؛ فظنَّ ذلك أنه يريد أن يعطيه زيادة، فأخذ ما أعطاه وقال: لأنَّك أقسمت بالبدوي فلن أعطيك شيئا؛ لأنَّ القسم بغير الله شرك.

هٰذا مثال للتَّوضيح ليس من باب القَصص؛ لكنه يُوضِح المراد بِخوف السِّر وضوحًا تامًّا.

سائق الأجرة علاهُ الخوف في وجهه ومضى سائقا وهو يقول: اسْتُر اسْتُر

اسْتُرْ اسْتُرْ !؛ فسأله ذاكَ قال: تخاطب من؟، قال: أنت أهنت البـدوي، وأنـا أخاطبه أدعوه بأن يستر، فإن لم يعف فإنّنا نستحق مصيبة، وسيرسـل علينـا البدوي مصيبة؛ لأننا أهنّاه !، وكان في قلبه خوف بحيـث إنهـم مشـوا أكثـر من مائة كيلو ولم يتكلم إلَّا بـ: استُر، استُرْ !.

يقول: فلمّا وصلنا سالمين معافين توجهـتُ لـه فقلـت: يـا فـلان أيـن مـا زعمت؟ وأيـن مـا ذكـرت مـن أن هٰـذا الإلٰـه الـذي تؤلّهونـه أنـه سـيفعل ويفعل؟، فتنفَّس الصعداء وقال: أصله السّيّد البدوي حليم !!

هٰذه الحالة هي حالة تعلّق القلب بغير الله الـذي يكـون عنـد الخـرافيين، خوف من غير الله خوف السِّر، البدوي ميت في قبره، يخشى أن يرسـل إليـه أحدًا يصدِمه، أو مصيبة في سيارته أو في نفسه، هٰذا هو خوف السر، وهٰـذا هو الذي جاء في مثل قـول الله جـلَّ وعـلا: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(١).

قال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾؛ لأنَّهم يخافون آلهتهم هٰذا النّـوع من الخوف؛ لهٰذا تجد قلوبهم معلَّقة بآلهتهم لأنَّهم يخافونهم خوف السِّر.

وقال -جلَّ وعـلا- مخـبرًا عـن قـول قـوم هـود حيـث قـالوا لهـود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾(٢) فهم خافوا الآلهة؛ عنـدهم أنَّ الآلهـة

---

(١) سورةُ الأنعام.

(٢) سورةُ هودٍ عليه السلام، الآية (٥٤).

تُصيب بسوء وكان الواجب ـ على حد زعمهم ـ أن يخاف هودٌ عليه السلام من الآلهة أن تصيبه بسوء؛ فقالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يعني: بمصيبة في نفسك إذِ اختل عقلك، أو اختلت جوارحك أو نحو ذلك.

هٰذا النَّوع من الخوف هو الذي إذا صُرف لغير الله -جلَّ وعلا- فهو شرك أكبر، هناك أنواع من الخوف:

* **خوف جائز**: وهو الخوف الطَّبيعي: أن يخاف من الأسباب العادية التي جعل الله -جلَّ وعلا- فيها ما يخاف ابن آدم منه: أن يخاف من النَّار أن تحرقه، يخاف من السّبُع أن يعدو عليه، من العقرب أن تلدغه، يخاف من ذي سلطان غشوم أن يعتدي عليه ونحو ذلك، هٰذا النوع خوف طبيعي من الأشياء لا يُنقص الإيمان؛ لأنه مما جَبل الله -جلَّ وعلا- الخلْقَ عليه[1].

* هناك نوع: **خوف محرّم** ـ هٰذا القسم الثَّالث؛ لأن الخوف أربعة أقسام[2]: قسم منه شركي شركًا أكبر، وقسم منه جائز، وقسم محرم ـ وهو:

(١) كما قالَ تعالَى في قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، انظرْ: «تيسيرَ العزيز الحميد» (٨٥٠).

(٢) قَصْدُ الشَّيخِ (الخوْفُ) عَامَّةً: هذِه الثَّلاثَةُ ـ مِنْ غيرِ الله ـ معَ الخوْفِ المأمورِ به وهُو الخوْفُ مِنَ الله جَلَّ وعلَا، كما في تيسيرِ العَزيزِ الحميدِ (٨٥٠)، وقالَ في شَرْحِه لِكِتابِ التَّوحيدِ: (**والخوفُ مِن غيرِ الله جَلَّ وعلا يَنقسِمُ إلى: ما هُو شِرْكٌ، وإلى ما هُو مُحَرَّمٌ، وإلى ما هُو مُباحٌ ؛ فهذِه ثلاثَةُ أقْسَامٍ**) =

أن يخاف من الخلق في أداء واجب من واجبات الله: يخاف من الخلـق في أداء الصلاة، يخاف إن قام للصّلاة من مجلس يقطنه كثيرون أن يعابه، فإذا خـاف هٰذا الخوف فإن هٰذا الخوف يكون محرّما.

وفي مثـله نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ وفي قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1]؛ لأن الواجب أن يُجاهَدوا، فإذا خافوهم عن أداء ذلك الواجب خوفًا ليس بمأذون به في الشرع وإنما هو من تَسْوِيل الشيطان كما قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾[2]، هٰذا النوع من الخوف محرَّم لا يجوز؛ لأنَّ فيه تفويتَ فريضة من فرائض الله لأجل الخلقِ، خاف من غير الله لكنَّه ليس خوف السِّر، وإنَّما هو خوف ظاهر، وهٰذا محرَّم من المحرَّمات[3].

= اهـ، وقالَ في «فَتحِ المجيدِ» (٣٨٦) عنِ النَّوعِ المحرَّمِ: (**وهُو نوعٌ مِـنَ الشّـرْكِ بِـالله الـمُنافي لِكـمالِ التَّوحيدِ**) اهـ

(١) سُورةُ آلِ عِمرانَ.

(٢) بِدايَـةُ الآيَـةِ السَّابِقَـةِ.

(٣) وممَّا يدخُلُ في هذَا النَّوعِ وتقعُ عليه الآيـةُ ما سُئِلَ عنهُ الشَّيخُ في آخرِ الدَّرسِ:

(بعض النَّاس يخاف أن يُنكِر المنكر إذا كان في مجلس مـثلا فيقـوم مـن المجلـس ويكتفـي بإنكـار القلب، فهل يدخل هٰذا في الخوف المحرم ؟

الجوابُ: لو جلس كان هٰذا داخلا في الخوف المحرم، وذلك بشرط أن لا يكون مستطيعًا أن ينكر =

هٰذه أقسام ثلاثة مشهورة، وبها تَجمع مسائل أقسام الخوف والشركيّ منه وما ليس بشركي منه، وهٰذه المسألة ممَّا يكثر فيها اضطراب طلاب العلم؛ لأنَّهم ليس عندهم ضبط للخوف الذي يحصل به إن صُرف لغير الله جلَّ وعلا الشِّرك، الذي يوصف به من قام به أنَّه مشرك، أيُّ خوف هٰذا؟ هو خوف السِّر، ووصفه وضبط حاله هو ما ذكرته لك من قبل، فكن منه على ذُكْرٍ[1] وبينة في فهمك لهٰذه المسألة العظيمة.

الخوف عبادة قلبية، موردها القلب، قد يظهر أثره على الجوارح.

* قال بعد ذلك: : (**ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

=

بيده، أو مستطيعا أن ينكر بلسانه، فإن كان بوسعه أن ينكر بيده إذْ له مقدرة على الإنكار بيده ؛ بأن يكون الأمر في بيته أو عند من له عليهم سلطة من قرابته ونحو ذلك، هٰذا ينكر بيده، إن لم يستطع ذلك ينكر بلسانه، وبعد ذلك يفارق المكان إن لم يُغَيِّر، الثالث: إن لم يستطع الإنكار باللِّسان ينكر بقلبه ببغضه لهٰذا المنكر، وإن تمكّن من الخروج من مكان المنكر فإنه يجب عليه الخروج.

إن خاف الناس في إنكاره بيده مع استطاعته أن ينكر بيده، فهٰذا من الخوف المحرَّم الذي هو المرتبة الثالثة، إن خاف أن ينكر بلسانه خاف الناس مع إمكانه أن ينكر بلسانه فهٰذا من الخوف المحرم، إن خاف أن يفارق مع إمكانه أن يفارق دون مفسدة راجحة تحصُل ولم يفارق كان هٰذا من الخوف المحرم، والله المستعان غفر الله لنا جميعا) اهـ، وانظر: تيسير العزيز الحميد (ص٨٤٩).

(١) (**الذُّكْرُ**) بِضَمِّ الذَّالِ: اسمٌ للتَّذَكُّرِ، ونُقِلَ فيه الكسرُ، وقيلَ: بِالكسْرِ ما يُذكرُ بِاللِّسانِ وبِالضَّمِّ ما يُذْكرُ بِالقَلْبِ، انظر: التَّاجُ: [ذ ك ر].

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1]): الرَّجاء أيضًا عبادة قلبية، حقيقتها: الطَّمع في الحصول على شيء مرجو، الرَّغبة في الحصول على شيء، يرجو أن يحصل على هٰذا الشَّيء.

* فإن كان الرَّجاء لشيء ممن يملك ذلك الشيء فإنّ هٰذا رجاءٌ طبيعي: (أرجو أن تحضر)؛ لأنه يمكنك أن تحضر، (أرجوك أن تفعل)؛ يمكنك أن تفعل؛ فهٰذا الرَّجاء ليس هو رجاء العبادة.

* النوع الثاني: هو رجاء العبادة، وهو: أن يطمع في شيء لا يملكه إلّا الله جلَّ وعلا: أن يطمع في شفائه من مرض، يرجو أن يشفى، يرجو أن يُدخل الجنة وينجو من النار، يرجو أن لا يصاب بمصيبة، ونحو ذلك، هٰذه أنواع من الرّجاء لا يمكن أن تُرجى وتُطلب وتُؤمَّل إلَّا من الله جلَّ وعلا، وهٰذا هو معنى رجاء العبادة.

فالرّجاء منه ما هو رجاء عبادة، ومنه ما هو رجاء ليس من العبادة، والمقصود هٰهنا هو رجاء العبادة.

قال جلَّ وعلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ هٰذا النوع من الرجاء امتدح الله -جلَّ وعلا- من قام به، قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ فدلّ على أن هٰذا الرَّجاء ممدوحٌ مَنْ رجاهُ، وإذا كان ممدوحا قد مدحه الله -جلَّ وعلا- فهو مرضي عند الله جلَّ وعلا، فيصدق عليه حد العبادة من أنها (**اسم جامع لكل ما يحبه الله**

(١) سُورةُ الكَهْفِ.

ويرضاه)، وهٰذا بِنص هٰذه الآية داخل فيما يرضاه الله جلَّ وعلا؛ لأنه أثنى على من قام به ذلك الرجاء.

وقوله هنا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، **(اللِّقاء)** فُسر بالملاقاة، وفُسر بالمعاينة، بالرُّؤية، رؤية الله جلَّ وعلا، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أيْ: ملاقاة الله جلَّ وعلا والرجوع إليه، أو فمن كان يرجو رؤية ربِّه؛ لأنَّ اللِّقاء يحتمل هٰذا وذاك، وهما تفسيران مشهوران عن السَّلف(١).

* قال بعدها: **(ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٢)) التَّوكل أيضًا من العبادات القلبيَّةِ، حقيقته أنَّه يجمع شيئين:

- **الأوَّل:** تفويض الأمر إلى الله جلَّ وعلا.
- **الثاني:** عدم رؤية السَّبب بعد عمله.

والتَّفويض وعدم رؤية السَّبب شيئان قلبيان، فالعبد المؤمن إذا فعل السَّبب ـ وهو جزء بـما تحصل به حقيقة التَّوكُّل ـ فإنه لا يلتفت لهٰذا السَّبب؛ لأنَّه يعلم أن هٰذا السَّبب لا يُحصِّل المقصود ولا يَحصُلُ المراد به وحده، وإنَّما قد يحصل المراد به وقد لا يحصل؛ لأنَّ حصول المرادات يكون بأشياء، منها: السَّبب، ومنها: صلاحية المحل، ومنها: خلو الأمر من

(١) قَالَ أبو محمدٍ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أيْ: يَخافُ المصِيرَ إليه، وقِيلَ: يأمَلُ رُؤْيَةَ رَبِّه، فالرَّجاءُ يكونُ بِمَعْنى الخوفِ والأملِ جميعًا) اهـ، «معالِمُ التَّنزيلِ» (٥/ ٢١٣).

(٢) سُورةُ المائِدةِ.

المضاد؛ فـثَم ثلاثة أشياء تحصل بها المرادات:

* **الأول: السَّبب**؛ نعلم بِمَا خلـق الله -جـلَّ وعـلا- خلقـه عليـه أن هٰـذا السَّبب يُنتج المسبَّب، النتيجة.

* **الثاني: صلاحية المحل** لقيام الأمر به، أي: الأمر المراد.

* **الثَّالث: خلوّ الأمر ـ أو المحل ـ من المضاد له.**

مثالـه: **الـدّواء**؛ النَّبـي ﷺ أمـر بالـدَّواء فقـال: «**تَـدَاوَوْا عِـبادَ الله**»[(١)]؛ فالمسلم الموحد يتناول الدَّواء باعتباره سببًا للشِّفاء، لكنَّه ليس علَّة وحيـدة، بل لا يحصل الشِّفاء بهٰذا وحده، وإنَّما لابد من أشياء أُخَر، منها:

- أن يكون المحل الذي هو داخل الإنسـان - بـاطن متنـاول الـدّواء - يكون صالحا لقَبول ذلك الدَّواء، وهٰذا معنى قولي: أن يكون المحل صالحا.

- أيضًا من العلل التي يكمل بها المراد: أن يكـون السَّـبب هٰــذا الـذي عمل خاليا من المعارض له؛ قد يكون يتناول شيـئًا وفي البدن ما يفسد ذلك الشَّيء؛ فلا يصل إلى المقصود[(٢)].

* ومنها ـ وهو الأعظم ـ: **أن يأذن الله -جـلَّ وعـلا- بـأن يكـون السَّـبب مؤثِّرا منتجا للمسبّب**، وهٰذا يعطيك أنّ فعل السَّبب ليس كافيًا في حصـول المراد.

---

(١) أخْرجَه أبو داودَ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٨٥٥)، والتِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٠٣٨)، وابْنُ ماجَـه رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٤٩٩)، من حديث أسامة بن شريك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الصَّحيحة» (ح١٦٣٣).

(٢) وانظُر: «الدَّاءَ والدَّواءَ» لِابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (٨ ـ ٩ ط المجمع).

من الأمثلة التي نُمَثِّـلُ بها كثيرا في هٰذا الباب ـ غير مثال الـدَّواء ـ: رجـل رام سفرًا على سيَّارة؛ فأعدّ العُدَّة، وفعل أسباب السَّلامة جميعًا: من رعايـة ـ مثلا ـ للكابحات (الفرامل)، ومـن رعايـة للإطـارات ونحـو ذلـك، فعـل أسباب السّلامة جميعا، وسار على مهل؛ هٰذا كلّ ما يمكنـه أن يفعلـه، لكـن هل هٰذا وحده يحصِّل السّلامة؟ لا يحصِّل السّلامة هٰذا وحـده؛ فهنـاك مـن قد يكون معتدِّيا عليه، تأتيه سيارة كبيرة ـ وهو قد بـذل أسـباب السَّـلامة ـ تأتيه في طريقه ويصاب بالمصيبة من جـرّاء ذلـك، فهـو فعـل مـا يُمكنـه أن يفعله، لـٰكن هناك أشياء بيد الله -جلَّ وعـلا- تتم السّلامة باجتماعها، وليس بهٰذا السَّبب الوحيد الذي عمله العبد.

لا يجوز للعبد أن يتخلَّى عن بذل السَّبب؛ لأنَّ بذل السَّبب من تمام التَّوكُّل ولـٰكن لا يَلتفِتْ إلى السَّبب، ولهٰـذا قال علماؤنا – علماء التَّوحيد مـن أئمـة السّلف فمن بعدهم -: **(الالتفـات إلى الأسـباب قَـدْحٌ في التَّوحيـد، ومحـو الأسباب أن تكون أسبابا قَـدْحٌ في العقل)**[1]؛ إذا التفت القلـب إلى السَّـبب وأنَّه ينتج المسبّب هٰذا قدح في التَّوحيد؛ لهٰـذا نقول: التَّوكُّـل هـو مـا يجمـع شيئين:

* **أولا**: تفويض الأمر إلى الله جلَّ وعلا؛ لأنّ الله هو الذي بيده الملك.
* **الثاني**: عدم رؤية السَّبب الذي فُعل.

---

(١) قالَه شَيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ في «الفَتاوي» (٨/ ٥٢٨) وتَـتِمَّـتُه: (.. **والإعراضُ عنِ الأسبابِ المأمُورِ بِها قَـدْحٌ في الشَّرْعِ**)، وانظر: «مدارِجَ السَّالكينَ» (٢/ ١٢٠)، و أيْضًا (٢/ ١٣٣) ؛ ففِيه كلامٌ نفيسٌ.

فإذن لا بد من فعل السَّبب، ويقوم بالقلب عدم رؤية هٰذا السبب أنه ينتج المقصود وحده، وإنَّما يعلم أنه جزء مما ينتج المقصود، والباقي على الله جلَّ وعلا، ثم يفوّض الأمر إلى الله جلَّ وعلا.

[السبب يكون قبلُ؛ تريد أمرا من الأمور تَفعل السبب الذي يحصِّلُ المسبَّب عادة به؛ شفاء من مرض: السبب أن تذهب إلى الطبيب، إذا فعلت السَّبب يقوم بالقلب شيئان:

أولا: تفويض أمر الشّفاء لله جلَّ وعلا.

الثاني: أن لا يرى القلب هٰذا السَّبب محصّلا للمقصود وحده، لا يرى القلب هٰذا السَّبب الذي هو الذَّهاب للطبيب محصِّلا للشِّفاء وحده، ولٰكن يعلم أنه ثَم أسباب أخرى كلّها جميعا بيد الله جلَّ وعلا.

فهٰذا السَّبب يتلوه شيئان هما (**التَّوكل**)، وفعل السبب من تمام التوكُّل؛ ولهٰذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «**اعْقِلْها وتَوَكَّلْ**»[1].

توكَّلَ على الله -جلَّ وعلا- في حفظ ناقَته بدون أن يعقِلها، فسرحت وذهبت وبَعُدت عنه؛ فَقال: «**اعْقِلْها وتَوَكَّلْ**» يعني: ابذل السبب ثم بعد ذلك فوّض الأمر إلى الله -جلَّ وعلا- في أن ينفع بهٰذا السبب؛ إذ بيده ملكوت كل شيء، وليقُمْ بقلبك عدمُ رؤية أن هٰذا السَّبب الذي فعلته -

(١) أخرجَه التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٥١٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسَّنَه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

وهو العقل ـ كافيا في حصول المراد ـ وهو حفظ تلك الناقة ـ] [(١)].

هٰذا يُنتج لك أن التَّوكُّل عبادة قلبية محضة، ولهٰذا صار صرفه لغير الله جلَّ وعلا شركًا، بمعنى أن يفوض الأمر لغير الله جلَّ وعلا، كما يقول بعض مشايخ الصُّوفية لبعض مريديهم: إذا أُصبت بمصيبة فاذكرني؛ فإني أخلِّصك منها !.

(اذكرني)؛ يَقُومُ بالقلب ذلك المتذكَّر - ذلك المذكور - وإذا قام به أنه يخلصه من ذلك الشيء، فمعناه أنه فوض الأمر إليه، فصار متوكلا على غير الله جلَّ وعلا، وهٰذا هو حقيقة ما يفعله المشركون في الجاهلية ومن شابههم ممن بعدهم.

[التوكل على غير الله يكون شركا أكبر، إذا فوّض أمره لغير الله ـ فوض هٰذا الأمر: المصيبة التي وقع فيها أو ما يريد إنجاحه من تجارة أو عبادة أو درس أو نحو ذلك، فوّض إنجاح هٰذا الأمر لغير الله ـ وقام بقلبه هٰذا التعلق يكون شركا أكبر، ولا يكون التَّوكُّل على غير الله شركا أصغر، إنما هو شرك أكبر] [(٢)].

(دليلُ التَّوَكُّلِ قَوله تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾):

---

(١) ما بينَ المعكوفينِ جوابُ سُؤالٍ وُجِّهَ للشَّيخِ حفِظهُ اللهُ نهايَةَ هذَا الدَّرْسِ ونَصُّه: **(هلْ يُقَدَّمُ السَّبَبُ على التَّوكُّلِ ؟ وما مَعنى قَولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «اعْقِلْها وتَوَكَّلْ» ؟)**.

(٢) ما بينَ المعكُوفينِ جوابُ سُؤالٍ وُجِّه للشَّيخِ نَصُّه: **(متَى يكونُ التَّوكُّلُ شِركًا أكبرَ ومتَى يكونُ شِرْكًا أصْغرَ ؟)** أيْ: على غيرِ الله تعالَى.

ففي هٰذه الآية الأمر بالتَّوكُّل؛ وما دام أنه أمر به فهو عبادة؛ لأنَّ العبادة (**ما أُمر به من غير اقـتضاء عقلي ولا اطِّراد عُرفي**)، وما دام أنه أمر به فهـو راض له أن يُتوكَّل عليه، وهٰذا معنى كونه عبادة.

ثم أيضًا في هٰذا الـدَّليل أنـه جعـل التَّوكُّـل شرطَ الإيـمان فقـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فمعنى ذلك: أنَّـه لا يحصـل الإيـمان إلَّا بالتوكُّل على الله وحده[1].

أيضًا: هنا قدَّم الجـارّ والمجـرور فقـال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ وتقـديم مـا حقُّه التَّأخير في علم المعاني يفيد الحصر والقصر، أو يفيـد الاختصـاص[2]، وهنا يفيدهما، يفيد الاختصاص ويفيد الحصر والقصر، فمعنى هٰذه الآية في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ يعني: احصروا توكلكم في الله، اقصروا توكلكم على الله ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، خُصُّوا الله بتوكلكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وهٰذه الآية ـ هٰذا الدَّليل ـ مركَّب من نوعي الدَّليل اللـذَين ذكـرتهما لـك

---

(١) لأنَّ (**المعلَّـقَ على الشَّرْطِ يُعْـدَمُ عِندَ عَـدَمِه ؛ وهذَا يدُلُّ على انتِـفَاءِ الإيمانِ عِندَ انْـتِفاءِ التَّوكُّلِ، فَمنْ لا توكُّلَ لَه لا إيمانَ لَه**) كما قالَ ابنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ، وقالَ أيضًا: (**قالَ تعالَى**: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سُورةُ الأنفال]، **وهذَا يدُلُّ على انْحِصارِ المؤْمِنينَ فيمَنْ كانَ بِهذِه الصِّفَـةِ**) اهـ، مدارِجُ السَّالِكينَ (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، وانظر ما سبقَ ص (٩١) ـ الحاشية ـ من الكلامِ على آيـةِ الخوفِ، وهيَ مِثلُها في الإعرابِ.

(٢) انظر: «البلاغة الاصْطِلاحيَّـةِ» (٢٤٣).

من قبل، النَّوع الأول: إثبات أن هٰذا الأمـر عبـادة، الثـاني: إثبـات أن هٰـذه العبادة يجب صرفها لله -جلَّ وعـلا- بدليل خاص، وهُو المستفادُ مِـن قَولِـه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، وهو المستفاد من قوله: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

* وكذلك في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ هٰذا فيه الثَّناء على من يتوكَّل عـلى الله، ففيـه الـدَّليل عـلى أنَّ التَّوكـل عـلى الله عمـل يحبـه الله ويرضاه، ومعنى ذلك أنَّه من أنواع العبادات.

هٰذا هو توكُّل العبادة، وهناك شيء آخر ليس مـن توكـل العبـادة، وهـو: **التَّوكيل**، وهو المعروف في باب **(الوكالـة)** عنـد الفقهـاء: وكّلـت فلانـا في أمري، كما جاء في الحديث: **(ووكّل عليّ عقـيلا في خصـومة)**[1]، هٰـذا مـن باب الوَكالة، وهو شيء آخر غير التوكُّل، التَّوكيل والوكالة باب آخـر، أمَّـا التوكُّل فهو عبادة قلبية، يضبِطُ ذلك: أنَّ الوكالة فيها المعنـى الظـاهر، فيهـا

---

(١)أخرجَه البَيْهقيُّ رَحِمَهُ اللهُ في سُنَنِه (ح١١٦٢٧ و١١٦٢٨) عنْ عبدِ الله بْنِ جَعْفَـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذلِـكَ أنَّـه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانَ يكرهُ الخصُومةَ ويَقُولُ: **(إنَّ للخُصُومةِ قُحَمًا)** أيْ: مهالِكَ ـ كما في المصْدرِ ـ ؛ فكانَ يُوكِّلُ أخاهُ عَقيلًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلمَّـا كبرَ عقيلٌ وكَّلَ عبدَ الله بْنَ جَعْفَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابْنَ أخيه.

و**عقيلُ بْنُ أبي طالِبٍ** هُو أكبرُ أبناءِ أبي طالِبٍ وقيلَ أكبرُهمْ **(طالِبٌ)** وعقيلٌ الثَّاني، أسلَمَ عامَ الفَـتحِ، **(وكانَ عالِـمًا بأنسابِ قريشٍ ومآثرها وكانَ النَّاسُ يأخذونَ ذلك عنـهُ بمسـجِد المدينـةِ وكـان سريـعَ الجوابِ الـمُسكِتِ.. وفي تاريخِ البُخاريِّ الأصغرِ بسنَدٍ صحيحٍ أنَّـه مـاتَ في أوَّلِ خِلافـةِ يَزيـدَ قبـلَ الـحَرَّةِ)** انظُرِ «الإصابةَ» لِابْنِ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٥٣٠ الترجمة ٥٦٣٢ ط دار الجيل) وما بـينَ القَوسـينِ منهُ نصًّا.

شيء ظاهر، أمَّا التَّوكُّل فهو عمل قلبي.

على كل حال، هٰذه الجمل مزيد تفصيل؛ لكن المقام يضيق عن تفصيلات ما يتعلَّق بهٰذه الأنواع من العبادات، وتفصيلها في (**كتاب التَّوحيد**)؛ لأنَّ كل واحدة منها عُقد لها باب في (**كتاب التوحيد**).

* قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: : (**ودليلُ الرَّغبَةِ والرَّهْبَةِ والخُشُوعِ قَولُه تعالَى**: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾[1]) هٰذه الآية فيها: المسارعة في الخيرات، الدُّعاء رغَبًا ورهَبًا، ووصفُهم بأنَّ حالهم أنَّهم كانوا خاشعين لله، ففيها أنواع من العبادات.

خصّ الشّيخ منها بالاستدلال (**الرّغبة والرّهبة والخشوع**)، ووجه الاستدلال من الآية: أن الله -جلَّ وعلا- أثنى على الأنبياء والمُرسلين الذين ذكرهم في سورة الأنبياء التي هٰذه الآية في أواخرها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، يعني: ويدعوننا راغبين، ويدعوننا ذوي رغبة وذوي رهبة وذوي خشوع، وهٰذا في مقام الثَّناء عليهم، الثَّناء على الأنبياء والمرسلين؛ وما دام أنَّه أثنى عليهم فإن هٰذه العبادات من العبادات المَرْضِيَّةِ له؛ فتدخل في حدِّ (**العبادة**).

الرَّغبة رجاء خاص، والرَّهبة خوف خاص، وَجَلٌ خاص، والخشوع هو التَّطامن والذُّل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، يعني:

(١) سُورةُ الأنبياءِ.

ليس فيها حركة بالنبات، ليس فيها حياة، متطامنة ذليلة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1]، فالخشوع سكون فيه ذل وخضوع، هٰذا الخشوع الذي هو نوع من أنواع العبادة وتلك الرغبة وتلك الرهبة هٰذه من العبادات القلبية التي يظهر أثرها على الجوارح[2].

لو تأمّلت أو رأيت حال المشركين عند آلهتهم، حال عباد القبور - مثلا - عند أوثانهم عند المشاهد لوجدت أنّهم في خشوع ليسوا عليه في مساجد لله ليس فيها قبر ولا قبة !، وهٰذا مُشاهَد، فإنه يكون عنده وَجَلٌ خاص، رهبة، ومزيد رجاء هو الرغبة، وخشوع وتطامن وعدم حركة وسكون في الجوارح والأنفاس وحتى في الألحاظ في الرؤية !.

وهٰذا كله ممَّا لا يسوغ أن يكون إلَّا لله؛ لأنَّ المسلم في صلاته إذا صلَّى فإنَّه يكون يقوم به الرغبة، يقوم به الرهبة المستفادة من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ تفتح له باب

---

(١) سُورةُ فُصِّلَتْ، الآية (٣٩)، ونَحْوُها الآية (٥) منْ سُورةِ الحجِّ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

(٢) وبهذَا يتجَلَّى الفَرْقُ بينَ الرَّغبةِ والرَّجاءِ، وبينَ الرَّهبَةِ والخوْفِ، فالرَّجاءُ ـ كما سبقَ ـ طمَعٌ وهُو قلبيٌّ مَحْضٌ والرَّغبةُ ثَمرةُ هذَا الطَّمعِ القائِمِ في القَلْبِ فإنَّها تُفيدُ طَلَبَ المرجُوِّ بِالعَملِ ولِذَا قالَ الشَّيخُ: (منَ **العِباداتِ القَلْبِيَّةِ الَّتي يَظهَرُ أَثَرُها على الجوارِحِ**) وكذَا الخوفُ هُو الاضْطِرابُ في القَلْبِ، وثَمرَتُه الرَّهبَةُ فَهيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِالعَملِ وهُو الهرَبُ منَ المخوفِ، انظُرْ «مدارِجَ السَّالكينَ» (٢/ ٥٥).

الرَّغبات وباب الرَّجـاء، و﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ يفـتح عليـه بـاب الرهبـة وباب الخوف من الله جلَّ وعلا؛ فتأتي عبادته حال كونه راغبا راهبا.

والخشوع سكونه وخضوعه وعدم حراكه في صَـوتِه وفي عملـه، هٰـذا لله جلَّ وعـلا في عبادة الصَّلاة، والخشوع يكون بالصَّوت ويكون بـالأعمال كـما قـال جــلَّ وعـــلا: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ۝١٠٨﴾[1] فالهمْس لا ينافي الخشوع في الصوت، وهٰذه حال المصـلِّي حـين ينـاجي ربـه جلَّ وعلا، فهو في حال رغبة ورجـاء، وفي حـال خـوفٍ و رهبـة، وفي حـال خشوع لربه جلَّ وعلا، يزيـد هٰـذا في القلـب وربَّـما غلـب عليـه حتـى نـال المقامات العالية في تلك العبادة، وربما قلَّ وَضَعُف حتى لم يُكتب من صلاته إلا عُشرها أو إلا تُسعها[2]؛ هٰذا لأنَّه من أنواع العبادات التي يحبها الله -جلَّ وعلا- ويرضاها.

فإذن وجه الاستدلال: أنّ الله -جلَّ وعلا- أثنى على أولئك الأنبياء وعـلى أولئك المرسلين بِـأنَّهم ذووا رغـب، وذووا رهـب، وذووا خشـوع لله جـلَّ وعلا، هٰذا بالدَّليل العام.

وبالدليل الخاص في الخشوع وحده، قـال هنـا: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ

(١) سُورةُ طـه.

(٢) كما في الحديثِ الَّذي رواهُ أبو داودَ رَحِمَهُ اللهُ (ح٧٩٦) وحسَّنَـه الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ عنْ عَمَّـارِ بْـنِ ياسِـرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرْفُوعًـا: «إنَّ الرَّجلَ لَيَـنصَرِفُ وما كُتِبَ لَه إلَّا عُشرُ صَلاتِـهِ، تُسعُها، ثُمنُها، سُـبعُها، سُدسُها، خُمسُها، رُبعُها، ثُلـثُها، نِصْفُها».

مَـوْقِـعُ الـتَّفـرِيـغ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com

﴿٩٠﴾ وكما قدَّمت أنَّ الجارّ والمجرور هنا قُـدِّم على ما يتعلق بـه وهـو اسـم الفاعل (**خاشع**)؛ لأنَّ الجارّ والمجرور - كما أسلفت لك - يتعلـق بالفعـل، أو ما فيه معنى الفعل وهو: اسم الفاعل أو اسم المفعـول أو مـا أشـبهه مـن مصدر ونحو ذلك، وهنا قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أصل سَـبْكِ الكلام: كانوا خاشعين لنـا؛ فلـما قـدم مـا حقـه التـأخير كـان ذلـك مفيـدا للاختصاص وللحصر وللقصر كما هو معلوم في علم المعاني.

* قال: (**ودليلُ الإنَـابَـةِ قَولُه تعـالَى:** ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[1]): وحقيقة الإنابَـة الرُّجوعُ، رجوع القلب عما سوى الله -جلَّ وعـلا- إلى الله -جلَّ وعلا- وحده.

والإنابة إذْ كان معناها الرُّجوع فإنَّ القلـب إذا توجّـه إلى غـير الله -جـلَّ وعلا- قد يتعلق به تعلُّقًا بحيث يكون ذلك القلب في تعلقه تاركا غير ذلـك الشيء وراجعا ومنيبًا إلى ذلك الشيء، كما يحصل عند الـذين يتعلَّقـون بغـير الله؛ تتعلق قلـوبهم بـالأموات والأوليـاء أو بالأنبيـاء والرُّسـل أو بـالجن.. ونحو ذلك، فتجد أنَّ قلوبهم قد فُـرِّغَت ـ إمَّا على وجه التمام أو عـلى وجـه كبير ـ من التعلق إلَّا بذلك الشيء، هٰذا الذي يسمى (**الإنابـة**).

---

(١) سورةُ الزُّمر، الآيَـة (٥٤).

وبقيتْ فقرةُ (**الخشيَـة**)، والكلامُ فيها كالكلامِ في (الـخوفِ) مـنْ حيـثُ: نوعُـه في العــباداتِ، ودليلُ كونِه عبادةً ـ الدَّليلُ العامِّ والخاصُّ ـ، وأنواعُه الأربعةُ.. الـخ، انظـر: تيسـيرَ العَزيـزِ الحميـد (٨٥٢ـ٨٥٣) وشَرحَ العلَّامةِ الجاميِّ (٦٢) وما سبقَ ص (٩٠ـ٩٧) من هذا الشَّرحِ.

أَنَـابَ: رجع، ترك غيره ورجع إليه، وهٰذا الرُّجوع ليس رجوعا مجـرّدا، ولكنه رجوع للقلب مع تعلّقه ورجائه، فحقيقة الإنابة أنَّها لا تقوم وحْدها؛ القلب المنيب إلى الله -جلَّ وعلا- إذا أناب إليه فإنه يرجع وقد قام بـه أنـواع من العبودية منها: الرَّجاء والخوف والمحبة ونحـو ذلـك، فالمنيـب إلى الله -جلَّ وعلا- هو: الذي رجع إلى الله -جلَّ وعلا- عما سوى الله جلَّ وعـلا، ولا يكون رجوعه هٰذا إلَّا بعد أن يقـوم بقلبـه أنـواع مـن العبوديـات أعظمهـا المحبَّة والخوف والرَّجاء: محبة الله، الخوف من الله، الرجاء في الله.

فإذن الإنابة صارت عبادة بهٰذا الدَّليل ـ وسيأتي بيان وجـه الاسـتدلال ـ وأيضا لأنها شيء متعلق بالقلب ولأنها لا تقوم بالقـلب إلا مع أنـواع أُخـرَ مـن العبوديَّـات؛ ولهٰـذا استَـدَل لـه بقولـه تعـالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾، ووجه الاستدلال: أنّ الله جلَّ وعلا قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾؛ فأمر بالإنابة؛ وإذْ أَمَـرَ بها فمعنى ذلك أنـه يحبهـا ويرضـاها ممن أتى بها، فهي إذن داخلة في تعريف العبادة سواء عند الأصوليين أو عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وهٰذا الدَّليل العام على كونها من العبادة.

ما الدَّليل على كون هٰذه العبادة يجب إفراد الله -جلَّ وعلا- بها؟ ـ فـإن في هٰذا: الأمر بالإنابة إلى الله جلَّ وعلا ـ مـا دليـل كـوْن هٰـذه العبـادة - وهـي الإنابة - لا يجوز ولا يسوغ أن يُـتَوَجّه بها إلى غير الله جلَّ وعلا؟

هناك دليل عام، ألا وهو: أنَّه إذ ثبت أنها عبادة فالأدلة العامة ـ كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن يَدۡعُ

مَـوْقِـعُ الـتَّفـريـغ
للـدُّرُوسِ العِلْمِيَّـةِ وَالبُحُـوثِ الشَّـرْعِيَّةِ
www.attafreegh.com
سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾، وغير ذلك، وقوله عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**الدُّعاءُ هُو العِبَادَةِ**»، «**الدُّعاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»[1]، ونحو هٰذه الأدلة ـ تدل على أنّ أي نوع من العبادة لا يجوز أن يُتوجَّه به إلى غير الله؛ ومن توجه به إلى غير الله جلَّ وعلا فقد كفر، فهٰذا الاستدلال العام.

وهناك دليل خاص في الإنابة أنه يجب إفراد الله جلَّ وعلا بالإنابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ في سورة هود[2]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ قالها شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخبر الله جلَّ وعلا بها عن شعيب في معرض الثناء عليه.

قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أيْ: ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده لا غير ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: فوَّضتُ أمري وأخليت قلبي من الاعتماد على غيره، ومجيء الجارّ والمجرور متقدمًا على ما يتعلق به وهو الفعل دلّ على وجوب حصرها وقصرها واختصاصها بالله جلَّ وعلا.

ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ فقال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى سواه ﴿أُنِيبُ﴾: أرجعُ محبًّا راجيًا خائفًا عن كل ما سوى الله جلَّ وعلا إلى الله وحده، فلما قدَّم الجارّ والمجرور على ما يتعلق به وهو الفعل دل على أن هٰذه العبادة وهي الإنابة مختصة بالله جلَّ وعلا، وهٰذا أتى في معرض الثناء على شعيب،

---

(١) الآيةُ الأولى من سورة الجنِّ والثَّانيةُ من سورة المؤمنون، والحديثانِ سبق تَخرِيجُهما ص (٣٩).

(٢) وكذلِكَ في سورةِ الشُّورى، الآية (١٠) أمرًا لِلنَّبيِّ ﷺ أن يقُولَ.

وهناك أدلة أخرى.

فإذن هٰذه المسألة مع غيرها: أحيانا يورد الشَّيخ دليلا عاما على كونها مـن العبادة، وأحيانا يورد دليلا عامًّا على كونها عبادة وخاصًّا في أنه يجـب إفـراد الله جلَّ وعلا بها، والحمد لله مـا مـن مسـألة مـن مسـائل العبـادة القلبيـة أو العملية ـ عمل الجوارح أو عمل القلب أو عمل اللسان ـ ما مـن مسـألة إلا وثَم دليل عام على أنها من العبادة، وثَم دليل خاص على أن من صرفها لغير الله جلَّ وعلا فقد أشرك.

وهٰذا – والحمـد لله – بَـيِّن ظـاهر، وهٰـذا التَّوحيـد في بيانـه ووضـوحه وظهور براهينه وأدلته وآياته مما هو بمكان واضح ظاهر لا يكون معـه بعـد ذلك حجة للمخالفين الذين تنكّبوا هٰذا الطريق، ولم يُسْـلِمُوا وجـوههم لله جلَّ وعلا، ويخلصوا دينهم لله جلَّ وعلا وحده.

* بعـد **(الإنابـة)** ذكر **(الاستعانـة)** حيث قال: **(ودليلُ الاسْتِعانَـةِ قَولُـهُ تعالَى:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾**)** هٰذا دليل عام في العبـادات جميعًـا حيث قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

و ﴿إِيَّاكَ﴾ – كما هو معلوم – ضمير منفصل في محـل نصـب مفعـول بـه مقدّم، أصل الكلام: نَعْبُدُ إِيَّاكَ ومن المعلوم أنّ المفعول به يتأخّر عـن فعلـه، فإذا قُـدّم كان ثم فائدة ـ في علم المعاني من علـوم البلاغـة ـ ألا وهـي: أنـه يُفيد الاختصاص، وطائفة من البلاغيين يقولون: يفيد الحصر والقصر(١).

(١) انظر: «البلاغة الاصْطِلاحيَّـة» (٢٤٣).

وعلى العموم الخَطْبُ يسيرٌ؛ يفيد الاختصاص أو يفيد الحَصْرَ والقَصْرَ، هنا أفاد أنّ العبادة من خصوصيات الله جلَّ وعلا، خاصة بالله جلَّ وعلا؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني: لا نعبد إلا أنت.

ثم قال بعدها ـ وهو مراد الشّيخ بالاستدلال ـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وهٰذه الآية من سورة الفاتحة؛ السّورة العظيمة التي هي أمّ القرآن، التي يردِّدها المسلمون في صلواتهم، فيها إفراد الله -جلَّ وعلا- بالعِبادة، وعقْد العهد والإقرار على النّفس بأن القائل لتلك الكلمات لا يعبد إلَّا الله جلَّ وعلا.

قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كذلك لا يستعين إلا بالله جلَّ وعلا، وجه الاستدلال: أنَّه قدّم الضَّمير المنفصل الذي هو في محل نصب مفعول به على الفعل الذي هو العامل فيه، وتقديم المعمول على العامل يفيد الاختصاص أو يفيد الحصر والقصر.

فإذن هنا أثبت أنها عبادة، وأثبت أنه لا يجوز صرفها لغير الله؛ إذْ هي مختصة بالله جلَّ وعلا.

وهٰهنا قال العلماء ـ شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم ـ: إنّ عبادة غير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله، مع أن جنس الاستعانة قد يكون من الرُّبوبية؛ يعني: طلب الإعانة هو طلبٌ لمقتضيات الرُّبوبية؛ لأنَّ الله -جلَّ وعلا- هو مدبر الأمر، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هٰذا فيه معنى الألوهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ طلب الإعانة من الله، استعانة المسلم بالله، هٰذه فيها طلب لمقتضى الرُّبوبية.

ومن حيث كَـوْنُ الاستِـعانَـة طلَـبًا صارت عِـبَادة[1]؛ ولهٰــذا قَـال: (إنّ عبادة غَـير الله أعْظَـمُ كُـفْـرًا من الاسـتعانة بغـير الله)؛[2] وهٰـذا لأجـل أنّ العبادة إذا صرفت لغير الله جلَّ وعلا فإنَّها يكون معها تحوّلٌ في القلب الـذي هو المضغة إذا صلحت صلح العمل كله، صلح الجسد كله؛ إذا توجّه بقلبـه لغير الله في عبادته هٰذا صار قلبه فاسدًا، ومقتضيات الرُّبوبيَّة أحيانًا تخفى.

ولهٰذا الإشراك في الإلٰهية في بعض أوجهه أعظم مـن إنكـار بعـض أفـراد الرُّبوبية، ألم تر أنَّ ذلك الرَّجل من بني إسرائيل الـذي قـال في وصـيته: (**إن مُتُّ فأحرقوني ثُـمَّ ذُرُّوني في البحر؛ فوالله لئِن قدِر الله عليَّ ليعذبَـنِّي عذابًــا لم يعذبْـهُ أحدًا من العالمـين**) وغفر الله -جلَّ وعلا- له[3] لأنَّه شكَّ في بعـض أفراد القدرة والتي هي راجعة إلى شيء من معنى الرُّبوبية.

كـذلك قــال -جـلَّ وعـلا- عـن حواريِّـــي عيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[4]، وأُجيبـوا ولم يؤاخـذوا بكلمـتهم تلك؛ لأنها شك في بعض أفـراد القـدرة، وهٰـذا راجـع إلى شـك في بعـض

---

(١) فـ (**عطفُها على العِبادةِ منْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ ؛ لِلاهْتِمامِ بِها**) اهـ من شَرحِ الشَّـيخِ الفَـوزانِ حفظهُ اللهُ لِلأربعينِ النَّوَوِيَّـةِ (١٧٦).

(٢) «اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسـلام ابـن تيميـة رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٦٥، ت: ناصر بن عبد الكريم العقل).

(٣) أخرَجَه البُخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٧٥٠٦)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) سورةُ المائِـدةِ، الآيَـة (١١٢).

مقتضيات الرُّبوبية.

أمَّا العبادة لغير الله -جلَّ وعلا- فهي التي لا يُقبل من أحد أن يصرف شيئًا منها لغير الله؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1]، وعيسى عليه السلام قال لقومه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾[2]، وقال جلَّ وعلا لعيسى في آخر السورة ـ سورة المائدة ـ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ إلى آخر الآيات.

المقصود من هٰذا أنَّ ما قاله شيخ الإسلام وجماعة (أنَّ العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانَة بغير الله) هٰذا صحيح ومتّجه؛ ولهٰذا قُدِّمَتْ في سورة الفاتحة العبادة على الاستعانة؛ لأنَّها أعظم شأنًا وأجلُّ خطرًا؛ لأنَّها هي التي وقَعَ فيها الابتِلاء، فلهٰذا كان حَرِيًّا بأهل الإيمان أن يعتَنُوا بأمر إخلاص القلب لله جلَّ وعلا، وتوجُّهِ المرء في عباداته وعبوديَّاته لله وحده دون ما سواه.

* ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: **(وفي الحديث: «إذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ**

---

(١) سورةُ النِّساءِ، الآيَة (٤٨)، والآيَة (١١٦).

(٢) سورةُ المائِدةِ.

بِـالله»)، وجـه الاسـتدلال: أنَّ الأمـر بالاستعانَــة بـالله رُتِّـبَ عـلى إرادة الاستَعانة؛ قَـال: «**إِذَا اسْـتَعَنْتَ فاسْتَـعِنْ بِـالله**» يعنـي: إذا كنـت متوجِّهـا للاستعانة فلا تستعن بأحد إلَّا بالله؛ لأنَّ الأمر جَاء في جواب الشَّرط.

قال: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ**»، (**إِذَا**) هٰذه شرطية غـير جازمـة، و(**اسْـتَعَنْتَ**) هٰـذا فعل الشرط، «**إِذَا اسْتَعَـنْتَ**» إذا حصل منك حاجـة للاسـتعانة فاسـتعن - هٰذا الأمر - فاستعن بالله، لما أمر به علمنا أنه من العِـبَادة، ثـم لِـما جـاء في جواب الشرط صار مُتَـرَتِّـبًا مع ما قبـله بِـما يفـيد الـحصر والقصرـ؛ وهـو معنى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

ما حقيقة الاستعانة؟ الاستعانـة: طلب العون.

* لأنَّ كثِـيرًا فـيما أوَّلُـه السـين والتـاء يـدلُّ عـلى الطلـب: اسـتعان، استغاث، استسقى.. ونحو ذلك، استعان: يعني طلب الإعانـة، اسـتغاث: طلب الغوث، استعاذ: طلب العوذ، استسقى: طلب السُّـقيا؛ ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾[1] يعني: وإذ طلب موسى السُّقيا لقومه، هٰذا نوع.

* النَّوع الثَّاني: تـأتي استفعل ويُراد بها الفعـل بـدون طلـب، كقولـه: ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾: وغَنِـيَ اللهُ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾[2]، اسـتقام: مـا فيهـا طلب.. في أمثال ذلك.

المقصود أنَّ كثيرًا ما يـأتي اسـتفعل بطلـب الفعـل، هنـا اسـتعان: طلـب

(١) سورةُ البقرةِ، الآيـة (٦٠).

(٢) سورةُ التَّغابُن.

العون، استعاذ: طلب العوذ، استغاث: طلب الغوث.. وهكذا.

فإذن إذْ كان جميعًا في معنى الطَّلب ـ أو فيها معنى الطلب ـ يصلح دليلا لها كل ما فيه وجوب إفراد الله -جلَّ وعلا- بما يحتاجه المرء في طلباته، في الدُّعاء؛ جميع أدلة الدُّعاء تصلح دليلا لما كان فيه نوع طلب؛ أيُّ دليلٍ في وجوبِ إفراد الله -جلَّ وعلا- بالدُّعاء يصلح دليلًا لوُجُوبِ إفراد الله جلَّ وعلا بأنواع الطلب: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، يصلح دليلا للاستغاثة والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك.

* بعد ذلك قال: : (**ودليلُ الاسْتِعاذَةِ قَولُه تعالَى**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾)، الاستعاذة - كما ذكرتُ لك - هي: طلب العوذ.

وأعوذ معناها: ألتجئُ وأعتصمُ وأتحرز، تقول: (أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) معناها: ألتجئ وأعتصم وأتحرز بالله من شرِّ الشَّيطان الرجيم.

فإذن الاستعاذة: طلب العوذ، طلب المعتصَم، طلب الحِرز، طلب ما يعصم، طلب ما يحمي، هٰذه الاستعاذة.

وإذن هي من حيث كونُها طلب هٰذه ظاهرة، ومن حيث كونُها فيها الاعتصام والالتجاء والتّحرُّز صارت عبادة قلبية، ولهٰذا قال كثير من أهل العلم: **إنّ الاستعاذة عبادة قلبيَّة**.

وطلب العوذ – نعم – يكون باللسان، في قَوْل أحد لآخر: أعوذ بك،

(١) سورةُ غافِر، الآيَـة (٦٠).

أعِذْني.. ونحـو ذلـك، ولكنهـا هـي تقـوم بالقلـب؛ يعنـي يقـوم بالقلـب الاعتصام بهٰذا المطلوب منه العوذ، يقوم بالقلب الالتجاء لهٰذا المطلوب منـه العوذ، يقوم بالقلب التحرّز بهٰذا المطلوب منه العوذ؛ فإذا قام بالقلـب هٰـذه الأشياء وهٰذه الأمور صار مُسْتعيذا، ولـو لم يُفصـح لسـانه بطلـب العَـوْذ؛ يعني: أنها عبادة قلبية.

الاستعاذة عبـادة قلبيـة؛ لأن حقيقتهـا طلـب العـوذ، فـإذا قـام بالقلـب اعتصامه بالله احترازه وتحرُّزُه بالله التجاؤه إلى الله مِن شر مَن فيـه شر صـار ذلك استعاذة، قد يُفصح باللسان عنها يطلب: اللهم أعـذني مـن مُضِـلاَّت الفتن، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعـوذ بـرب الفلـق.. ونحـو ذلـك، **(أعـوذ بكلـمات الله التامـات مـن شر مـا خلـق)** [1] يعنـي: ألتجـئ وأعتصم وأتحرَّز بكلمات الله الكونية التامة التي لا يلحقها نقص من شرِّ كل من فيه شر مما خلقه الله جلَّ وعلا، ونحو ذلك.

لأجل هٰذا المعنى قال جمْع من أهل العلم: **إنَّه لا يجـوز أن يقـول قائـل: أعوذ بالله ثُم بك**؛ وذلك لأنَّ العوذ عبادة قلبِيَّة، وهٰـذا هو الصَّـحيح؛ فـإنَّ العَـوْذَ ـ إذا قِـيل: أعوذ بالله ثم بك ـ الاستعاذة عمل قلبي بحـت؛ لهٰـذا لا يصلح أن يتعلَّق بغير الله جلَّ وعلا.

(١) أخرجَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٧٠٨) وغيرُه مرفُوعًـا: «مـنْ نـزلَ منـزِلًا ثُـمَّ قـالَ: (أعـوذُ بكلـماتِ الله التَّـامَّاتِ مِن شرِّ ما خلَق) لَـم يَضُرَّه شَيْءٌ حتَّى يرتَحِلَ منْ منزِلِه ذلِكَ» من حديث خولة بنت حكيم السُّلمية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقـال آخـرون مـن أهـل العلـم: **الاستعاذة طلـبٌ لِلَّجَـإ والاحـتراز والاعتصام**، فقد يكون المطلوب منه يُمكِن ويَمْلك أن يُعطي هٰـذا معتصَـما، وأن يقِـيَه شرًّا، مثلًا: يأتي واحد من النَّاس إلى قوي من الناس إلى كبير ملك أو أمير أو رئيس قبيلة أو نحو ذلك فيقول له: أعوذ بك، أو أعـوذ بـالله ثـم بك من شرِّ هٰذا الذي أتاني ـ رجـل مثلا يأتيه يطلبه بشيء ـ يقولـون: هٰـذا يمكن أن يقيه شرا، أن يمنعه ممن يريد به سوءا، يمكن أن يكـون ممـن يقـدر عليه مِنَ البشر، فإذا كان بهٰذا المعنى يجوز أن يقول: أعوذ بك ـ بمخلـوق ـ، أعوذ بالله ثم بك ـ لمخلوق ـ.

ولكن قَول (أعوذُ بك) هٰذا أبعد في الإجازة، وأمَّا قـول (أعـوذ بـالله ثـم بك) فهٰذا من راعَى المعنى الظَّاهر وإمكانَ المخلوق أن يُعيذ صحَّحه وقال: لا بأس أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، ولـٰكن الأظهر أنَّ العـوذ عبـادة قلبيـة، وأنَّها إنَّما تكون بالله جلَّ وعلا.

وهٰذا على نحو ما مرَّنا[1] في قوله: (توكَّلـتُ عـلى الله ثـم عليـك) ونحـو ذلك؛ فمن أهل العلم من يجيز مثل هٰذه الألفاظ مع أن أصلها عمل قلبـي، عبادة قلبية، مراعيًا الظَّاهر، ما يراعي تعلّق القلب، مُراعيا الحماية الظَّـاهرة، مُراعيا التحرُّز الظاهر، مُراعيًا الاعتصام الظَّاهر، ومنهم من لم يُجِزْها مراعيًا أنَّها عبادة قلبية، وأنَّك إذا أجزتها في الظاهر فإنه قد يكون تبعا لذلك إجـازة تعلق القلب عند من لا يفهم المراد، وعلى العموم هما قولان مشهوران حتى

(١) هكذَا عدَّاهُ الشَّيْخُ حفِظهُ اللهُ، وهيَ لُغةٌ، يُقالُ: مَـرَّه و مَـرَّ بِـهِ أيْ: جازَ عليه، التَّاج [م ر ر].

عند مشايخنا المفتين في هٰذا الوَقت وما قبل[1].

يُـقابل الاستعاذة ـ التي هي طلب العَـوْذ ـ: [اللِّـيَاذ]؛ لأنَّ طَـلَبَ العوذ من شيء فيه شَرٌّ؛ لِـهٰذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، فالاستعاذة مما فيه شرّ وأمَّا اللّياذ واللَّوذ فإنه مما فيه خير، قال: ألوذ بك يعني إذا كنت مؤمِّلا خيرًا، وإذا كنت خائفًا من شر تقول لربك جلَّ وعلا: أعوذ بك، وإذا كنت مؤملا خيرا تقول: ألوذ بك وهكذا[2].

قال: (**ودليلُ الاسْتِعاذَةِ قَولُـه تعالَى:** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ **و** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾) وجه الاستدلال: أنَّه أمر نبيَّه الكريم بـأن يسـتعيذ بربِّ النَّاس، وما دام أنَّه أمر به فهـو عبـادة؛ لأنَّـه لا يـأمر إلَّا بشـيء يحبُّـه ويرضـاه، كـذلك قولـه تعـالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾[3] ؛ أمَر بالاستعاذة به فدلَّ على أنَّها عبادة.

---

(١) قـالَ العلَّامةُ ابْنُ قاسِمٍ رَحِمَهُ اللهُ مُعلِّـقًا على فَـتوَى العلَّامَـةِ ابْنِ إبراهيمَ رَحِمَهُ اللهُ في قولِ (توكَّلتُ عـلى الله ثُمَّ عليك) ـ الَّتي أشارَ إليها الشَّارِحُ حفِظهُ اللهُ ص (٧١) ـ: (قُـلْتُ: **والفَرْقُ بينَ هذَا وبينَ (أعُوذُ بِالله ثُمَّ بِكَ): أنَّه تَجوزُ الاسْتِعاذَةُ بِالمخلُوقِ مُفْرَدًا فيما يَقدِرُ عليه، بِخِلافِ التَّوكُّلِ فإنَّه كُلَّه عِـبادةٌ ؛ كما لا يَجوزُ: أَسْجُدُ لله ثُمَّ لَكَ يا فُلانُ !، أوْ: أَعبُـدُ اللهَ ثُمَّ أَعبُـدُكَ يا فُلانُ !**) اهـ، مجمُوعُ فتـاوي العلَّامـةِ ابْنِ إبراهيمَ رَحِمَهُ اللهُ (١/ ١٧٠) الحاشِيَـة (٢).

(٢) ذكرهُ ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في تفسِيرِ الاسْتِعاذَةِ وأحكامِها أوَّلَ تَفْسِيره.

(٣) سورةُ النَّحلِ، الآيَـة (٩٨).

* ثُـمَّ ذكَـرَ الاستغاثَـة:، قَـال رَحِمَهُ اللَّهُ تعـالَى: (**ودليـلُ الاسْتِـغاثَـةِ قَولُـه تعـالَى**: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[1]) الاستغاثة: طلب الغوث، والغوث يُفسَّر بأنه: الإغاثة، المدد، النُّصرة.. ونحو ذلك، فإذا وقع ـ مثلا ـ أحد في غرق ينادي: أَغثني أغثني؛ يطلب الإغاثة، يطلب إزالة هٰذا الشيء، يطلب النُّصرة.

الاستغاثة عبادة؛ وجه كونها عبادة أنَّ الله -جلَّ وعلا- قال هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وجه الاستدلال: أنَّه أتى بها في معرض الثَّناء عليهم، وأنَّه رتّب عليها الإجابة؛ وما دام أنَّ الله -جلَّ وعلا- رتّب على استغاثتهم به إجابتَه -جلَّ وعلا- دلّ على أنَّه يحبها، وقد رضيها منهم، فنتج أنها من العبادة.

وَ﴿إِذْ﴾ هنا بمعنى حين ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أيْ: حين ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

وتلاحظ أنّ الآية هنا ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وقبلها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾: الاستغاثة – كما ذكرتُ لك – والاستعاذة والاستعانة ونحو ذلك تتعلق بالرُّبوبيَّة كثيرًا، هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، قال قبلها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ لأنَّ حقيقتها من مقتضيات الرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّه من الذي يُغيث؟ هو المالك، هو المدبِّر، هو الذي يُصرِّف الأمر، وهو ربّ كل شيء جلَّ وعلا.

(١) سورةُ الأنفالِ، الآيـة (٩).

الاستغاثـة عمل ظاهر، ولهٰـذا يجـوز أن يستغيث المرء بمخلـوق، لـٰكن بشروطه، وهي: أن يكون هٰذا المطلوب منه الغوث: حيًّـا، حـاضرًا، قـادرًا، يسمع.

فإذا لم يكن حيًّا ـ كان ميّتا ـ صارت الاستغاثة بهٰذا الميـت كفـرا، قلنـا: أن يكون حيًّا حاضرًا قادرًا يسمع صحيح؟ طيّب؛ إذا لم يكـن حيًّـا كـان ميتًـا؟ ولو اعتقد المستغيث أنَّه يسمع وأنَّه قادر؛ فإنَّه إذْ كان ميتا فإنَّ الاسـتغاثة بـه شرك.

الأموات جميعًا لا يقدرون على الإغاثة، لـٰكن قد يقوم بقلوب المشـــركين بهم أنَّهم يسمعون، وأنَّهم أحياء مثل حال الشُّهداء، وأنهم يقدرون مثـل مـا يُزعم في حال النَّبي -عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ونحو ذلك.

فنقول: إذْ كان ميتا فإنَّه لا يجوز الطَّلب منه.

قالوا: فما يحصل يوم القيامة مـن استغاثَـــة النَّـاس بـآدم ثـم استغاثَـــتهم بنوح.. إلى آخر أنهم استغاثوا بنبيِّنا محمَّد ﷺ[1]؟

نقول: هٰذا ليس استغاثة بأموات، يوم القيامة هؤلاء أحياء، يُبعث النَّـاس ويُحيَوْن من جديد، كانوا في حياة ثم ماتوا ثم أعيدوا إلى حياة أخـرى؛ فهـي استغاثة بمن؟ بحيّ، حاضر، قادر، يسمع؛ بهٰذا ليس فـيما احتجـوا بـه مـن حال أولئك الأنبياء يوم القيامة حُجّة على جـواز الاسـتغاثة بغـير الله -جـلَّ وعلا-، والاستغاثة بغير الله -جلَّ وعلا- أعظم كفرًا مـن كثـير مـن المسـائل

(١) أخرَجَه البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٣٤٠)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

التي صَرْفها لغير الله -جلَّ وعلا- شرك.

إذن فالشروط:

* أن يكون **حيًّا**: إذا كان ميّتا لا يجوز الاستغاثة به.

* أن يكون **حاضرًا**: إذا كان غائبا لا يجوز الاستغاثة به؛ حيّ قادر لكنّه غائب، مثل: لو استغاث بجبريل عليه السلام؛ ليس بحاضر، حي ـ نعم ـ وقادر ـ قد يَطلُبُ منه ما يقدر عليه ـ ولكنه ليس بحاضر.

مثل: أن يطلب من حيٍّ قادر من النَّاس، يأتي يَطلب من ملِك يملك أو أمير يستغيث به: أغثني يا فلان وهو ليس عنده؛ مع أنَّه لو كان عنده لأمكن بقوَّته، لكنَّه لما لم يكن حاضرًا صارت الاستغاثة تعلُّق القلب بغير حاضر هٰذا شرك بالله جلَّ وعلا.

* أن يكون **قادرًا**: إذا لَم يكن قادرًا فالاستغاثة به شرك، ولو كان حيًّا حاضرًا يسمع، مثل: لو استغاث بمخلوق فيما لا يقدر عليه، وهو حي حاضر يسمعه، وتعلقَ القلبُ - قلب المستغيث - على هٰذا النَّحو؛ تعلق قلبُه بأن هٰذا يستطيع ويقدر أن يغيثه، فمعنى ذلك أنه استغاث بمن لا يقدر على الإغاثة، فتعلُّق القلب بهٰذا المستغاث به، فصارت الاستغاثة وهي طلب الغوث شركًا على هٰذا النَّحو.

* وكذلك **يسمعُ**: لو كان حيًّا قادرًا، ولكنَّه لا يسمع، حاضرًا لا يسمع كالنائم ونحوه، كذلك لا تجوز الاستغاثة به.

وقد تلتبس بعض المسائل بهٰذه الشّروط في أنّها في بعض الحالات تكون شركًا أكبرَ، وفي بعض الحالات يكون منهيًّا عنها من ذرائع

الشرك، ونحو ذلك، مثل: الذي يسأل ميتًـا، يسأل أعمى بجنبه أو مشـلولًا بجنبه أن يغيثه ونحو ذلك.

الـمَقصود: أن العلماء اشترطوا لِـجواز الاستِغاثة بغــير الله جـلَّ وعـلا: أن يكون الـمُستغاث به حَـيًّا حاضرًا قادرًا يسْمع.

* قـال رَحِمَهُ اللَّهُ تعـالى: (**ودليـلُ الـذَّبْحِ قَولُـه تعـالَى**: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1]): الذَّبح الذي هو النَّحر، والذَّبح يشمل النَّحـر الخـاص ويشـمل الذَّبح الذي هو قسيم النَّحر؛ لأنَّ:

* **النَّحر**: هو الطعن بالسِّكين أو بالـحَرْبَـة في الوَهْدة[2]، مثل مـا يُفعـل بالإبل ـ كما تعلمون ـ لا تُذبح ذبحـا وإنَّـما تطعـن في وَهـدتها، وإذا طُعنـت حُرِّكت السكين وانـتَـشر الدم وماتت، ليس ثَم ذبح، كذلك البقر قد تُنحر.

* **وأما الذَّبح**: فيكون في الغنم من الضأن والمعز، وكذلك في البقر.[3]

الذَّبح والنَّحر عبادة، الـمَقصود منها إراقَـةُ الـدم، و إراقــة الـدَّم – مـن

---

(١) سورةُ الأنعامِ.

(٢) أصْلُها المطمئنُّ منَ الأرْضِ، والمقصُودُ هُنا النُّقرةُ الَّتي في العُنُقِ، ولها معانٍ أُخْرَى، انظر التَّاج [و هـ د].

(٣) قال الشَّيخ حفظه الله في محاضرة (أحكام الهدي والأضاحي): والمضحِّي ينحر الإبل ويذبح البقر والغنم لقوله جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[البقرة:٦٧]، البقر يُذبح، وكـذلك الغـنم تذبح وصفة ذلك تأتي. اهـ

حيث هي – لا يكون إلَّا بتعلقٍ للقلب؛ فإذا أراق الدَّم لله -جلَّ وعلا- تعلق القلب بالله جلَّ وعلا.

فالذبح عبادة ظاهرة يتبعها أو يكون معها عبادة باطنة قلبية؛ فمن ذبح لغير الله وقع في شرك ظاهر؛ لأنَّ هٰذه عبادة صرفها لغير الله، وكذلك قلبه تعلَّق بغير الله فصار شركه من جهتين.

وجه الاستدلال من قوله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾: أنه قال: ﴿وَنُسُكِي﴾ والنُّسك فُسِّرت بعدّة تفسيرات عن السَّلف، منها: الذّبح والنَّحر[1].

وهٰذا كما قال -جلَّ وعلا- في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: أمره بأن يوحِّد الله -جلَّ وعلا- بالصّلاة، وكذلك أمره بالنحر لربه جلَّ وعلا وحده، إذن النّسك هنا الذبح.

قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾؛ الصلاة لِـمَن؟ لله، وجْهُ اللام هُنَا: أنّها لام الاستحقاق، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ..... لِلَّهِ﴾ يعني: صلاتي مستحَقّة لله، هٰذا وجه الاستدلال، ﴿وَنُسُكِي رَبِّكَ.... لِلَّهِ﴾ يعني: نسكي ـ الذي هو ذبحي ـ مستحقٌّ لله وحده لا شريك له.

﴿وَمَحْيَايَ رَبِّكَ... لِلَّهِ﴾، ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾: هٰذه لام أخرى وهي: لام المِلك، الصَّلاة والنُّسك لله استحقاقًا، والمحيا والمات لله مُلكا؛ لأنَّ اللّام قلنا أنَّها

(١) وقيلَ: الحجُّ، وقيلَ: الدِّينُ، انظر: معالـمَ التَّنزيلِ لِلبَغَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ٢١١).

تأتي للاستحقاق وتأتي للمُلك، تذكرون؟

في هٰذه الآية جعل هٰذه الأفعال الأربعة ـ الصَّلاة والنُّسك والمحيى والممات ـ جعلها جميعًا باللَّام مؤخرة بقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ لكن تختلف؛ الصَّلاة والنُّسُك لله استحقاقًا، والمحيا والممات لله -جلَّ وعلا- مُلكا؛ فجمعت هٰذه الآية بين توحيدي الله جلَّ وعلا: في إلٰهيته، وهو الأول، وفي ربوبيته وهو الثاني، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي رَبِّكَ.... لِلَّهِ﴾ هٰذا توحيد لله جلَّ وعلا في إلٰهيته، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ هٰذا توحيد لله -جلَّ وعلا- في ربوبيته.

فكما أنه -جلَّ وعلا- هو مالك محياي ومماتي فكذلك هو المستحق لصلاتي ونسكي، قال جلَّ وعلا لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ مُستحَقَّةٌ ﴿لِلَّهِ﴾، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ مُلْك ﴿لِلَّهِ﴾ جلَّ وعلا ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ فذكر الربوبية ثم ذكر الألوهية.

ثم بَيَّن أن هٰذا من علامات الإسلام العظيمة فقال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ وهٰذا وجه استدلال آخر؛ إذ إنَّ هٰذه مأمور بها، قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾.

الذَّبح كما أنَّه عمل ظاهر وهو إراقة الدَّم، والدَّم الذي بَثَّهُ في أعضاء المذبوح هو الله جلَّ وعلا، وهو علامة الحياة؛ فلا يُزهق إلا لمن خلَقه ولمن بَثَّهُ في أعضاء من به الحياة.

ولهٰذا قال العلماء: إنَّ العبد حال الذَّبح يجتمع في قلبه أنواع من

العبوديات، منها:

* الذلّ لربِّه جلَّ وعلا.
* ومنها: التَّعظيم له جلَّ وعلا.
* ومنها: الرَّجاء؛ رجاء ما عنده حال ذبحه.
* ومنها: طلب البركة؛ لأنه ما ذُبح إلَّا لله.

وهٰذه كلُّها عبادات قلبِية، فكما أنَّ الذَّبح عمل ظاهر فيه تحريكٌ لِليد وتحريك للِّسان ببعض القول كذلك يقوم بالقلب حال الذّبح أنواع من العبوديات.

قد ما يقوم بالقلب شيء البتة، مثل: ما يُذبح لضيافة أو يذبح لنحو ذلك، فهٰذا يجب أن يكون ظاهرًا لله جلَّ وعلا وحده، وإذا اجتمع أن يكون في الذَّبيحة أن تكون اجتمعت فيها العبادة الظاهرة والعبادة الباطنة ـ العبادة القلبية ـ كانت أكمل في رجاء ثواب الذَّبح ولو كان في الأمور العادية من ضيافة ونحوها.

فيكون الذبح لله -جلَّ وعلا- ظاهرا لم يُرد بهٰذا إلا الله جلَّ وعلا، وباسمه لم يذكر إلَّا اسم الله جلَّ وعلا، ثم يكون بالقلب ذلّ لله -جلَّ وعلا- وخضوع وتعظيم ورجاء المثوبة منه وحده، فتجتمع العبادات القلبية وعبادات الجوارح حال الذَّبح.

ولهٰذا الذّبح من العبادات العظيمة، لٰكن قد يغفل النَّاس عن تعلُّق القلب وفعل الجوارح حين الذَّبح وكيف تكون لله جلَّ وعلا.

ولهٰذا على طالب العلم أن يتعلَّم هٰذا إن لم يحسنه، يتعلّم كيف يكون حال

الذَّبح ـ حال ذبحه لذبيحته ـ للأضحية وهي آكد وآكد وآكد أو لغيرها أن يكون موحّدا تمامًا، ويرجو في ذبحه أن يكون على غاية من العبودية في لسانه وقلبه وجوارحه؛ لأنَّه فيه حركة لسان بالتسمية والتَّكبير، وفيه عمل القلب بأنواع من العبوديات ذكرتُ بعضها، وفيه أيضا حركة اليد، وهٰذا كله مما يجب أن يكون لله -جلَّ وعلا- وحده.

* قال: (ومنَ السُّنَّةِ: «**لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ**»)، وجْه الاستِدلال: أن من ذبَح لغير الله ـ لَم يذبَح لله وإنَّما ذبَح لغيره ـ أنَّه ملعون؛ لعنَه الله، وهٰذا الدُّعاء من النبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بقوله: «**لَعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**» يدلّ على أنَّ الذّبح لغير الله كبيرة من الكبائر، وإذا كانت كذلك فهي إذن يُبغضها الله جلَّ وعلا، وإذا كان يُبغض الله -جلَّ وعلا- الذَّبح لغيره، فمعنى ذلك أنَّ الذَّبح له وحده محبوب له؛ بالمقابلة، فيستقيم بذلك الاستدلال.

* قال بعدها: (**ودليلُ النَّذْرِ قَولُه تعالَى**: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾[1]) **النذر**: هو إيجاب المرء على نفسه شيئا لم يجب عليه، وتارة يكون النَّذر مطلقا، وتارة يكون بالمقابلة مُقيّد، والنّذر المطلق غير مكروه، والنذر المقيّد مكروه.

لهٰذا استشكل جمع من أهل العلم؛ استشكلوا كون النذر عبادة مع أن النذر مكروه، والنبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يقول في النذر: «**إنَّه لا يأتي**

(١) سورةُ الإنسانِ.

بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»(١).

فيقولون: إذا كان مكروها كيف يكون عبادة؟ ومعلوم أن العبادة يحبها الله جلَّ وعلا، والنذر يكون مكروها كما دل عليه هٰذا الحديث، فكيف إذا كان مكروهًا يكون عبادة؟

وهٰذا الاستشكال منهم غير وارد أصلا؛ لأن النذر ينقسم إلى قسمين: نذر مطلق، ونذر مقيد.

* النّذر **المطلق**: لا يكون عن مقابلة، وهٰذا غير مكروه، أن يوجب على نفسه عبادة لله -جلَّ وعلا- بدون مقابلة، فيقول قائل مثلا: (لله عليَّ نذر أن أصلّي اللَّيلة عشرة ركعات طويلات) بدون مقابلة، فهٰذا إيجاب المرء على نفسه عبادة لم تجب عليه دون أن يقابلها شيء، هٰذا النَّوع مطلق، وهٰذا محمود.

* النَّوع الثَّاني **المكروه**: وهو ما كان عن مقابلة، وهو أن يقول قائل مثلا: إن شفى الله -جلَّ وعلا- مريضي صُمْتُ يومًا، إن نجحت في الاختبار صلّيت ركعتين، إن تزوَّجت هٰذه المرأة تصدَّقت بخمسين ريالا – مثلا – أو بمائَةِ ريالٍ !

هٰذا مشروط، يوجب عبادة على نفسه مشروطة بشيء يحصل له قَدَرًا، من الذي يحصِّل الشّيء ويجعله كائنًا؟ هو الله جلَّ وعلا؛ فكأنَّه قال: إنَّ

(١) أخرجه البخاري رَحِمَهُ اللهُ (ح٦٦٠٨)، ومسلم رَحِمَهُ اللهُ (ح ١٦٣٩)، واللَّفظ له. من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أعطيتَـني هٰـذه الزوجة وإن يسـّرت لي الزَّواج بها صليت لـك ركعتـين، أو تصدَّقت بكذا، إن أنجحتَـني في الاختِبار صمت يومًا.. ونحو ذلك، وهٰذا كما قال النبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**إنـما يُسـتخرج بـه مـن البخيـل**»؛ لأنَّ المؤمن المقبل على ربِّـه ما يعبد الله -جـلَّ وعـلا- بالمقايضـة، يعبـد الله -جـلَّ وعلا- ويتقرَّب إليه لأنَّ الله يستحق ذلك منه، فهٰـذا النَّـوع مكـروه، النَّـوع الأول محمود، وهٰذا النَّوع مكروه.

والوفاء بالنَّذر في كِلا الأمرين واجب؛ كما قـال النَّبـي ﷺ: «**مَـن نـذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعصِه**»[1].

فتحصل عندنا أنَّ النَّذر فيه أربعة أشياء:

* نذر محمود، لاحِظْ أنَّا ما نقول: مشروع؛ بِحيثُ يفهم أحد أنَّه واجـب أو مستحب، لا؛ نقول: محمود، غير مكروه في الشَّرع، وهو المطلق الذي مـا فيه مقايضة ولا مقابلة.
* النَّوع الثاني: مكروه وهو الذي يكون عن مقابلة.
- الوفاء بالأول ـ بنذر التبرّر والطاعة ـ: واجب.
- الوفاء بالثاني ـ حتى ولو كان مكروها ـ: واجب.

وهو الذي أثنـى الله -جـلَّ وعـلا- عـلى أهلـه في الحـالين بقولـه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ لأنه أوجب على نفسه، فلما كان واجبا صار الوفاء به واجبا، فامتثـل للوجوب الذي أوجبه على نفسه لأنَّه يخشى عقابه، فتحصّل أنَّ هٰذه الأربـع

---

(١) أخرجَه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ (ح ٦٧٠٠) من حَديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

منها اثْـنَـتان واجبَـتان وهمـا الوفــاء، وواحـــد محمـود، و واحـد مكـروه، ولهٰـذا صار غالب الحال- إذ كان عبادة - صار غالب الحال هو الحال التـي أنه محمود فيها أو واجب.

فلهٰذا صار النذر عبـادة مـن العبـادات التـي يرضـاها الله -جلَّ وعـلا- ويحبها، إلَّا في حال واحدة وهي حال نذر المقابلة.

اتّضح لكم هٰذا المقام؟ لأنَّـه بهٰذا التحرير تخلصون مـن إشـكالات عِـدَّة ربَّما أوردها عليكم خصوم الدَّعوة والـخُرافيون في مسألة النّـذر، ظـاهر؟، تأمَّلوها؛ لأنَّه قد لا تجد هٰذا التَّحرير في كثير من الكتب.

قـال: (**ودليلُ النَّـذْرِ قَولُه تعالَى**: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾)، وجـه الاستــدلال: أن الله -جلَّ وعلا- امتدحهم بذلك بأنّهم يوفون بالنـذر، وإذِ امتـدحهم بـذلك دل على أن هٰذا العمل منهم وهو الوفاء بالنـذر أنـه محبـوب لـه جـلَّ وعـلا، فثبت أنه عبادة لله جلَّ وعلا.

والنذر له شقان، الشِّق الأول: النَّذر، والثاني: الوفاء بـه؛ وكـلا الأمـرين إذا صُرفت لغير الله -جلَّ وعلا- فهي شرك:

❋ من نـذر لغـير الله:

ـ كـأن ينـذر لأصـحاب المشـاهد أو الأوليـاء أو القبـور، ينـذر للمشـهد الفلاني، ينذر مثلا للنبي ﷺ، أو ينذر لأحد من الموتى، ينذر لفاطمة رضي الله عنها، أو ينذر لأحد آل البيت، أو لخديجة رضي الله عنها، أو ينذر لأحد من الأولياء أو نحو ذلك، يقول: عليَّ نذر للولي الفلاني، ولو كان غير مقابلة، هٰـذا إيجـاب عـلى نفسه عبادة لمن؟ لغير الله؛ فصار شركًا أكبر.

ـ القسم الثاني: أن يقول: إن شفى الله – لاحظ – إن شفى الله مريضي ـ فللولي الفلاني عليَّ نذر بكذا وكذا، فهٰذا على المقابلة، ولو كان على هٰذا النَّحو فصرفه لغير الله -جلَّ وعلا- شرك؛ لأنَّ القول الأول منه وهو قوله: (إن شفى الله مريضي) هٰذا ربوبية، وقوله: (فللولي الفلاني عليّ نذر) هٰذا شرك في العبودية فهو أقرَّ بالرُّبوبية ولكنَّه أشرك في العبودية، هٰذا جهة النذر.

* الوفاء لأصحاب القبور أو نحوهم، أو الجن، أو الملائكة، هٰذا كله شرك، فلو حصل منه النَّذر لغير الله فلا يجوز أن يوفِي به، فإن وفَّى به لغير الله فيكون ذلك شركا بعد شرك؛ لهٰذا قال عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصِه**»، يدخل في ذلك إذا كان النذر لغير الله جلَّ وعلا.

قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ مدحهم بذلك، فدلَّ أنَّ وفاءهم بالنذر عبادة يحبها الله جلَّ وعلا.

ونكتفي بهٰذا القدر، ونقف على الأصل الثَّاني وهو (**معرفة دين الإسْلام بالأدلَّة**)، وأسأل الله -جلَّ وعلا- لي ولكم الانتفاع والسَّداد.

الأصلُ الثَّـاني..
معرفَةُ دينِ الإِسْلامِ بِـالأَدِلَّـةِ

الأَصْلُ الثَّـاني: مَعْرِفَـةُ دِينِ الإِسْلام بِالأَدِلَّـةِ.

وهُو: الاسْتِسْلامُ لله بِالتَّـوْحِيـدِ، والانْـقِـيَادُ لَه بِالطَّاعَـةِ، والـبَراءةُ مِـنَ الشِّرْكِ وأَهْلِـه(١).

وهُو ثَلاثُ مَراتِـبَ: الإِسْـلامُ والإِيـمانُ والإِحْسَـانُ، وكُـلُّ مرْتَـبَــةٍ لَهَـا أَرْكانٌ.

فَأَرْكانُ الإِسْلامِ خَمسَةٌ: شَهَادةُ أن لا إلٰـهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّــدًا رَسُـولُ الله، وإِقَامُ الصَّلاةِ، وإِيـتَاءُ الزَّكاةِ، وصَوْمُ رَمَضَانَ، وحَجُّ بَـيْتِ الله الـحَرَام.

فدليلُ الشَّهادةِ قولُه تعـالَى: ﴿ شَهِـدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾(٢).

ومَعناها: لا مَعْـبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ؛ ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ نافِـيًا جَميـعَ مـا يُعْبَــدُ مـنْ دُونِ الله، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ مُثْـبِتًا العِبادةَ لله وَحْدَه لا شَرِيكَ لَه في عِبادتِـه؛ كما أنَّـه لا شَرِيكَ لَه في ملْكِـه.

(١) وفي بَعْضِ النُّسَخِ (والـخُلُوصُ منَ الشِّرْكِ) وما أُثْبِتَ أَوْلَى رِوايةً و دِرايةً كما يُبيِّـنُه الشَّيخُ حفِظهُ اللهُ ص (١٢٥) وكما نبَّه قبلُ ص (٤٢).

(٢) سورةُ آلِ عِمرانَ.

وتَـفْسِــيرُها الَّـــذي يُوَضِّــحُها قَولُــه تعــالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وقَولُه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا﴾ ﴿يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

ودليلُ شَهادةِ أنَّ محمَّـدًا رَسُولُ الله قَولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[3].

ومَعْنى شَهادةِ أنَّ محمَّـدًا رسُولُ الله: طاعتُـه فيما أَمـرَ، وتَصْدِيقُـهُ فيـما أخبَـرَ، واجْتِـنابُ ما عنـهُ نَهَى وزَجَـرَ، وأن لا يُعْـبَدَ اللهُ إلَّا بما شَرَعَ.

ودليلُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ وتَـفْسيرِ التَّوحيـدِ قَولُـه تعـالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[4].

ودليلُ الصِّيَـامِ قَولُه تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ

---

(١) سورةُ الزُّخْرُفِ.

(٢) سورةُ آلِ عِمْرانَ.

(٣) سورةُ التَّوبَـةِ.

(٤) سورةُ البَيِّـنَـةِ.

كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[1].

ودليلُ الحَجِّ قَولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[2].

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإيمانُ، وهُو بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، فأعْلاها قَولُ لا إلَـهَ إلَّا اللهُ، وأدْناها إماطةُ الأذَى عنِ الطَّريقِ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الإيمانِ.

وأركانُه سِتَّةٌ: أن تُؤْمِنَ باللهِ ومَلائكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه.

ودليلُ هذِه الأركانِ السِّتَّةِ قَولُه تعالَى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[3]، ودليلُ القَدَرِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾[4].

المَرْتَبةُ الثَّالِثةُ: الإحْسَانُ، رُكْنٌ واحِدٌ وهُو: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فَإنَّهُ يَراكَ.

والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[5]، وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾

---

(١) سورةُ البقرَةِ.

(٢) سورةُ آلِ عِمرانَ.

(٣) سورةُ البَقَرَةِ، الآيـة (١٧٧).

(٤) سورةُ القَمَرِ.

(٥) سورةُ النَّحلِ.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾[1]، وقولُـه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2] الآية.

والدَّليـلُ منَ السُّنَّةِ: حديثُ جَبْرائِيلَ المشْهُورُ، عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: بَيْنَما نحنُ جُلُوسٌ عِنـدَ رسُـولِ الله ﷺ إذْ طَلَـعَ عليْنَا رَجُـلٌ شَديدُ بَيَاضِ الثِّيابِ شَدِيدُ سوادِ الشَّعرِ لا يُـرَى عليه أَثَـرُ السَّفَـرِ ولا يَعْرِفُـهُ مِنَّـا أحدٌ، حتَّى جلَسَ إلَى النَّبيِّ ﷺ، فأسْنَدَ رُكبَتَـيْه إلى رُكبَتَـيْه، ووَضَعَ كَفَّـيْه على فَخِذَيْـهِ، وقالَ: يا محمَّدُ، أخْبِرْني عنِ الإسْلامِ، قـالَ: «أن تَـشْهَدَ أن لا إلٰـهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّـدًا رَسُولُ الله، وتُـقِيمَ الصَّـلاةَ، وتُـؤْتِـيَ الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَـحُجَّ البَـيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليـه سَبِـيلًا»، قـالَ: صَدَقْتَ؛ فَعَجِبْنا لَه يَسْأَلُه ويُصَدِّقُه ! قالَ: فـأخبِرني عـنِ الإيـمانِ، قـالَ: «أن تُـؤْمِنَ بِالله، ومَلائِكتِـهِ، وكُـتُبِه، و رُسُلِه، واليَوْمِ الآخِـرِ، وتُـؤْمِنَ بالقَـدَرِ خَيْرِه وشَـرِّه»، قالَ: صَدَقْتَ، قالَ: فأخْبِرْني عنِ الإحْسَانِ، قالَ: «أن تَـعْـبُدَ اللهَ كأنَّـكَ تراهُ، فإنْ لَـمْ تكُنْ تَراهُ فإنَّـهُ يَراكَ»، قَـالَ: فَـأَخْبِرْني عنِ السَّـاعةِ، قالَ: «ما الـمَسْؤُولُ عَنها بأعْلَمَ مِن السَّائِـلِ»، قالَ: فـأَخْبِرْني عـنْ أماراتِهـا، قالَ: «أن تَـلِـدَ الأَمَـةُ رَبَّـتَها، وأنْ تَـرَى الـحُفاةَ العُراةَ العالَـةَ رِعـاءَ الشَّـاءِ يَـتَـطاوَلُونَ في البُـنْـيَانِ»، قالَ: فَمضَى، فلَـبِثْـنا مَلِـيًّـا فَـقالَ: «يـا عُـمَرُ،

---

(١) سورةُ الشُّعَراءِ.

(٢) سورةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآيَـة (٦١).

أَتَـدْرِي مَنِ السَّائِـلُ؟» قُلْتُ: اللهُ و رَسُـولُه أعلَـمُ، قـالَ: «هـذَا جِبْرِيـلُ[١]، أَتَـاكُمْ يُعلِّمُـكُمْ أمْرَ دِيـنِكُمْ»[٢].

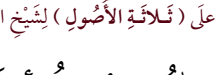

۞۞۞۞

الشَّـرحُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

* الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام عـلى نبيِّنـا محمَّـد وعـلى آلـه وصحبه أجمعين، أمَّا بعدُ..

فهٰذه الرِّسالة تُسمَّى **(ثلاثة الأصول وأدلَّـتُها)**.

وقد ذكر - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأجزل له المثوبة - الأصلَ الأول ـ فيما مـرّ معنـا ـ وهو: **(معرفة العبد ربَّه)**، ومعرفة العبد ربه يعني به: معرفة العبـد معبـودَه؛

---

(١) جَبرائِـيلُ، جَبرَئِـيلُ، جَبرائِـلُ، جَبرَئِـلُ، جَبرَئِـلُّ، جِـبرِيلُ، جَبرِيـلُ، جَبرَيْـلُ، جَبرَيَـلُ، جَبرَيِيلُ، جَبرايِيلُ، جَبرايِـلُ، جَبرالُ، جِبرالُ، جَبرِينُ، جِبْرِينُ، جَبرائِـينُ، لُغـاتٌ في اسْـمِه عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختُلْفَ في تَفصِيلِ مَعناهُ وأصْلِه، انظُرِ التَّاجَ [ج ب ر].

(٢) أَخْرَجَه مُسْلِمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح٨).

لأنَّ الرَّب هنا بمعنى المعبود، والرُّبوبية في هٰذا الموقع بمعنى العبادة، لأنّ الابتلاء وقع فيها، وهٰذا أصل من الأصول.

والمقبور أو الميِّت يُسأل أوّل سؤال عن ربِّه، يعني: عن **معبوده الذي كان يعبده من هو؟**؛ فإن كان يعبد الله وحده لا شريك له أجاب بأن معبودي ربي الله، يعني: وحده لا شريك له، وإن كان يعبد مع الله آلهة أخرى ـ والعياذ بالله ـ قال: ربِّي الله، وربِّي فلان، وربِّي فلان، وربِّي فلان.. من المعبودات المختلفة يعني: معبودي فلان، ومعبودي فلان، ومعبودي فلان مع الله جلَّ وعلا.

فيسأله منكر ونكير عن دينه: **مَا دينك؟**؛ فلهٰذا كان لزامًا أن يتعلّم العبد دينه بأدلَّة ذلك حتى يخرج عن التَّقليد، ويكون اعتقاده بهٰذا عن علم ومعرفة وبصيرة، لا على وجه المتابعة للنَّاس؛ ولهٰذا جاء في بعض طرق السُّؤال: «**وأمَّا المنافِقُ ـ أوْ قالَ: الفاجِرُ ـ فيقُولُ: هاهْ هاهْ لا أدْرِي؛ سَمِعْتُ النَّاسَ يقُولُونَ شَيْئًا فقُلْتُهُ**»(١) وهٰذا يدلّ على أنَّه جَرى معهم على التَّقليد وأنَّ التَّقليد لا يسوغ في أصول الدِّين، هٰذه الأصول الثلاثة: التَّقليد في دين الإسلام، التَّقليد في العبادة، التَّقليد في الشَّهادة بأنّ محمَّدًا رسول الله، لا يكفي.

فإذا قال قائل: (أنا مسلم بحكم أنِّي في بلد إسلام) وهو لم يعتقد هٰذه الأمور اعتقادًا عن علم ولو لمرَّة في حياته ولو كانت قبل البُلوغ فإنَّه لا

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة (٦١).

يَخلص من التَّبِعة، فلا بد أن يعتقد ما يجب اعتقاده عن معرفة، وهي هٰذه الأصول الثَّلاثة، وعن معرفة وعلم ودليل؛ ولهٰذا الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ ـ كما ترى ـ توسّع في الأدلَّة، كلّ مسألة يذكرها يذكر دليلًا عليها؛ لأنّ المتعلّم لِهذَا يخرج به عن رِبقة التَّقليد لمن علّمه، فيكون اعتقاده كان عن دليل.

ولهٰذا ينبغي تعليم الصِّغار المميزين هٰذه الرِّسالة، أو الكبار، يُعلَّمونها بأدلَّتها لا على وجه التَّفصيل كما نذكر في هٰذا الشَّرح، لكن يتعلَّم أنَّ العبادة معناها كذا ودليلها كذا؛ فيعتقدها بدليلها، يعلم أنَّ الله -جلَّ وعلا- هو الذي فرض هٰذا الشَّيء وهٰذا دليل المسألة؛ فيخرج عن رِبقَة التَّقليد في هٰذه المسائل العظام.

* قال هنا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: (**الأصلُ الثَّاني: معرفَةُ دينِ الإسلامِ بالأدلَّةِ**): ما هو الإسلام؟ قال: (**وهو: الاستسلامُ لله بالتَّوحيدِ، والانقيادُ له بالطَّاعةِ، والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) وهٰذه العبارة ـ وهي الأخيرة: (**والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) ـ الصَّواب أنَّها: (**والبراءةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِه**) هٰذا هو الموجود في النُّسخ المعتمدة، وأمَّا (**والخُلوصُ مِنَ الشِّركِ**) فهٰذه ليست في النُّسخ المعتمدة، وهي في هٰذه الطبعة التي بين يديَّ، والصَّحيح في النسخ المعتمدة أنَّ الإسلام (**هو: الاستسلامُ لله بالتوحيدِ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والبراءةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِه**).

ومن المعلوم أنَّ (**البراءةَ مِنَ الشّركِ وأهلِه**) أدلُّ على المراد من لفظ (**الخُلوص مِنَ الشِّركِ**)؛ لأنَّ الخلوص من الشّرك إنَّما هو خروج عن الشِّرك، وليس فيه معنى البراءة من الشِّرك وأهله، ولهٰذا كان الأصح أن

يُجعل بدل (**الـخُلوص مِنَ الشِّركِ**) في هٰذه النُّسخة ما هو في النُّسخ المعتمـدة الأخـرى وهـي أنَّ الإسـلام: (**الاستسـلامُ لله بالتوحيـدِ، والانقِـيادُ لـه بالطاعةِ، والبراءةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِـه**).

وهٰذا هو الذي يناسب الاستدلال الذي استدلَّ بـه الشَّـيْخ، وهـو قولـه تعـالى في سـورة الزُّخـرف: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِي ﴾ فـذكر الـبراءة وهـو الـذي يناسـب هٰـذا التَّعريف.

والإسلام يُراد به تارة الإسلام العام، ويراد به تارة الإسـلام الخـاص[1]، يأتي هٰذا في القرآن وهٰذا.

* **فالإسْلام العام** يراد به: الإسلام الذي خوطب بـه جميـع النَّـاس مـن لَدُنْ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أن يرث -جلَّ وعلا- الأرض ومن عليها، بل خوطـب بـه جميع المخلوقات كما قال جلَّ وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[2]، أسـلم له كلُّ شيء كما قال زَيْـدُ بْنُ عَمرِو بنِ نُفَـيْلٍ ـ فيما أحسـب ـ قـال: [مـن المتقارِبِ]

(١) يطلق (الإسلام) على دين جميع المرسلين، ويطلق على دين محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويطلق على الشرائع الظاهرة وهو مرتبة كالإيمان والإحسان، انظر ما يأتي من شرح حـديث جبريـل وشرح فضل الإسلام باب وجوب الدخول في الإسلام، من شرح الشَّيخ حفظه الله.

(٢)سورةُ آلِ عِمرانَ.

وأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِـمَنْ أَسْلَـمَتْ لَـهُ الـمُزْنُ تَـحْمِلُ عَـذْبًـا زُلَالَا(١)

فالإسلام هٰذا العام (**الاستسلامُ لله**)، استسلام لله عن طواعية واختيار، هٰذا الإسلام العام الذي خوطب به جميع الخلق.

حصل التَّكليف على آدم وبنيه قال جلَّ وعلا: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾(٢) يعني: حمل الإنسان الأمانة، وهي أمانة التَّكليف، التَّكليفِ بالإسلام.

قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٣)، وهٰذا هو الإسلام العام الذي دعا إليه كل رسول وكل نبي من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، الجميع يدعو إلى الإسلام، وهٰذا الإسلام يسميه العلماء: الإسلام العام الذي يشترك فيه جميع الرسل.

* أمَّا **الإسلام الخاص**: فهو القسم الثَّاني، وهو المراد هٰهنا؛ فـ (**معرفة دين الإسلام**) لا يريد به دين الإسلام العام، وإنَّما بعد بعثة محمَّد ﷺ صار

---

(١) قبلَه وبَعدَه أبياتٌ في مَقْطُوعةٍ ذَكَرَها عنهُ أهلُ السِّيَرِ، انظُرْ: السِّيرةَ النَّبَوِيَّةَ لِابْنِ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٢٤٤ ط دار إحياء التُّراثِ وبهامِشِه الرَّوضُ الأُنُف لِلسُّهيليِّ)، وانظُر أخبارَه ومناقِبَهُ فيها (٢/ ٢٣١ ـ ٢٤٧) و في: صَحيحِ البُخاريِّ (كتابُ فَضَائِلِ الصَّحابةِ، باب حديثِ زَيدِ بْنِ عَمرِو بْنِ نُفَيْلٍ)، وقدْ أطالَ ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ النَّفسَ في ذِكرِ أخبارِه وأشْعارِه وما وردَ منَ الآثارِ في فَضَائلِه في البِدايَةِ والنِّهايَةِ (٣/ ٣١٦ ـ ٣٣١ ط التّركي)، وهُو والِدُ سَعيدٍ الصَّحابيِّ أحدِ العَشَرةِ المبَشَّرينَ بالجنَّةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعنْ أبيه.

(٢) سورةُ الأحزابِ، الآيَة (٧٢).

(٣) سورةُ آلِ عِمرانَ، الآيَة (١٩).

المقصود بالإسلام الذي طُلب من النَّـاس أن يـدينوا بـه وأن يعتقـدوه هـو: الإسلام الذي جاء به النَّبيّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وهو دين الإسلام الخاص، حتى صار الإطلاق ـ إذا أُطلق الإسلام ـ لا يراد به إلَّا دين الإسـلام الـذي بُعث به نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، الَّذي يشمل عقيدة الإسلام وشريعة الإسلام.

ثبت في الحديث الصَّحيح أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا يَسْمَعُ بِي أحـدٌ مـن هٰـذه الأمة ولا يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثُم لا يؤمن بي إلا أكَـبَّه الله في النار**»[1].

«**لَا يَسْمَعُ بِي**» يعني: ببعثتي، برسالتي وبما أرسلت به «**أحدٌ من هٰذه الأمَّة ولا يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ**» وفي الرِّواية الأخرى: «**أحدٌ من هٰذه الأمَّـة يهـوديٌّ أو نصرانيٌّ**» المراد: أمَّة الدَّعوة، «**ثُم لا يؤمن بي إلَّا أكَـبَّه الله في النَّـار**»؛ فمـن كان على دين الإسلام العام وقد بُعث النبيّ ﷺ فإنه لا يُقبـل منـه، لا يقبـل بعد بعثة النبَّيّ ﷺ مِن أحد إلَّا أن يتَّبع دين الإسلام الخاص، يعنـي: الـذي بُعث به النَّبيّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وهو المراد هٰهنا، وهو الذي يحصـل بـه الابتلاء في القبر والفتنة في القـبر، يحصـل الابـتلاء والفتنـة بـدين الإسـلام

(١) أخرَجَـهُ الإمـامُ أحمـدُ رَحِمَهُ اللهُ (ح٨٢٠٣)، والرِّوايَـةُ الأُخـرَى الَّتـي يُشِـيرُ إليهـا الشَّـيخُ عِنـدهُ (ح٨٦٠٩)، وعِندَ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٥٣) بِلَفْظِ: «**يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ**»، وأخرجَه غيرُهما منْ حـديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي حديثِ أبي مُوسَـى الأشْـعرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنـدَ أحمـدَ رَحِمَهُ اللهُ (ح١٩٥٣٦) بِلفْـظِ: «**أوْ يَهودِيٌّ أوْ نَصْرانيٌّ**»، غيرَ أنَّ الجملةَ الأخيرةَ فيها كافَّـةً بِلَفظِ: «**إلَّا كانَ منْ أهلِ النَّـارِ**» أوْ قريبًـا مِـن هذا اللَّفْظِ، ولَمْ أقِفْ عليها في هذا الحديثِ بِاللَّفْظِ الَّذي ذكرهُ الشَّيخُ، وهو في أحاديـثَ أُخْـرَى غـيرَ هذَا الحديثِ، واللهُ أعلَمُ.

الذي بُعث به محمَّد ﷺ.

قال: (**هو: الاستسلامُ لله بالتَّوحيـدِ**) الاستسلام: أن يكون فاعله - فاعل الاستسلام - كهيئة المستسلِم، والمستسلم لغيره تابع له؛ لا يفعل إلَّا ما يريد، خَلُص قلبه إلَّا من رغبة من استسلم له، ولو قال: (وهو: الإسلام لله بالتَّوحيد) لصَحّ أيضًا، فالاستسلام هنا بمعنى الإسلام؛ ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾، ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾[1]، كلُّها بمعنى الاستسلام والإسلام، الإسلام لله والاستسلام لله بمعنى واحد.

قَيَّدها في هٰذا الموضع بقوله: (**بالتَّوحيد**)، والتَّوحيد يشمل: توحيد الله جلَّ وعلا في ربوبيَّته وفي إلٰهيَّتِه وفي أسمائه وصفاته، والمقصود الأخصّ ـ من هٰذه الثَّلاثة ـ: توحيد العبادة؛ لأنَّ الخصومة وقعت فيه، ومعلوم أنَّ توحيد العبادة متضمِّن لتوحيد الرُّبوبية ولتوحيد الأسماء والصِّفات.

ثم قال: (**والانقيادُ له بالطَّاعةِ**) الانقياد لله -جلَّ وعلا- بالطَّاعة يعني: أن يكون منقادًا غير ممانِع ولا متولٍّ عن طاعة الله جلَّ وعلا، إنَّما ينقاد ويُذعن، كما قال جلَّ وعلا: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡ﴾[2]؛ أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، يعني: الانقياد لله وللرَّسول فيما أمر الله -جلَّ وعلا- به وفيما أمر به النَّبيّ ﷺ، قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا ولم يذعنوا ولم ينقادوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ﴾ يعني: على الرَّسول

---

(١) سورةُ الزُّمَر، الآيَـة (٥٤).

(٢) سورةُ النُّورِ، الآية (٥٤).

﴿مَا حُمِّلَ﴾ مـا حمِّـل إيَّـاه وهـو الرِّسـالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ وهـو: الاستجابة لله وللرَّسول.

فإذن هنا الانقياد له بالطَّاعة، لله جلَّ وعلا، بطاعته وطاعة رسوله ﷺ الذي بُعِث بهٰذا الإسلام الأخير.

قال: **(والبراءةُ مِنَ الشِّرك وأهلِه)** فُسِّرت البراءة بعدة تفسيرات: أصلٌ وفروعُه.

* أصل البراءة: البُغض في القلب، يعني: بغض الشِّرك وأهله.
* ويتبع ذلك، يتبع بُغضَهم: معاداتُهم، وتكفير من كفَّره الله جلَّ وعلا ورسولُه، تكفير المشركين، ومقاتلتهم عند مشروعية ذلك.

وهٰذا هو معنى الكفر بالطَّاغوت أيضًا؛ فإنَّ الكفر بالطَّاغوت هو: بُغضه، ومعاداة أهله، وتكفير أهل الطَّاغوت وهم: أهل عبادة غير الله جلَّ وعلا، وقتالهم عند مشروعيَّة ذلك.

فَـ **(البراءة مِنَ الشِّرك)** أصلها: البُغض، يتبع البغض أشياء:

* أولا: المعاداة.
* ثانيا: التَّكفير، ومعلوم أن التَّكفير تَبَعٌ للعلم.
* ثم قتالهم عند مشروعيَّة ذلك، وذلك أيضًا مستلزم للعلم.

فتلخَّص أنَّ على العامَّة ـ وهم من ليسوا علماء ـ عليهم من البراءة أصلها وهو البُغض، وأمَّا فروعها فإنَّها هي بحسب درجات العلم، البُغض لا بدَّ أن يُوجَدَ؛ فإن لم يبغض الشِّرك فإنه ليس بمسلم.

إذا كان يحب الإسلام وأهلَه، ويحبُّ التَّوحيد وأهله، ولكن لا يبغض

الشِّركَ وأهلَه فإنه ليس بمسلم.

لكن قد يبغض الشِّرك وأهل الشِّــرك باعتبـار الأصـل لكنَّـه يحـبّ بعـض المشركين لغرض من أغراض الدُّنيا، فهٰذا ليس بمشرك وإنما ناقصٌ إسـلامه كما أوضحتُ لكم فيما سبق في تقسيم الموالاة إلى: موالاة وتولٍّ [1].

المقصود من هٰذا أنَّ مسألة البراءة هٰذه من الشِّرك وأهلـه: أصـل الـبراءة البغض، يتبعه أشياء: المعاداة، التَّكفير، المقاتلة، وكلُّها تبـع للعلـم؛ ويتنـوَّع ذلك بحَسَب النَّاس.

وأسهل ما يكون في الموحِّدين، عنـد الموحِّـدين، عنـد عـامّتهم: معـاداة المشركين، ولو لم يكن عندهم من الحجة أو من بيان تكفـيرهم، ومـن إقامـة الدّلائل على مشروعية مقاتلـة أهـل الشّـرِك، فإنَّـه قـائم في قلبـه بُغْضُـهم ومعاداتهم، وهٰذا به يحصل الإسلام.

إذن تعريف الإسلام شمل ثلاثة أشياء:

* **أولا**: الاستسلام لله بالتَّوحيد.
* **ثانيا**: الانقياد لله بالطَّاعة.
* **الثالث**: البراءة من الشِّرك وأهله.

يُلاحَظ أنَّه بهٰذا شمل هٰذا التَّعريف معنى الشَّهادتين كما سيأتي.

* هٰذا الدِّين دين الإسلام الذي جاء به نبيُّنـا محمَّـد ﷺ ثـلاث مراتـب؛ قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: **(وهـو ثـلاثُ مراتـبَ)**: **(الإسـلامُ)** هٰـذه مرتبـة في ديـن

(١) ص (٤٥) وما بعدها.

الإسلام، نتيجة هٰذه المرتبـة أن يُحكَـم لأهلهـا بـأنّهم مسـلمون (**والإيـمانُ**) ونتيجة هٰذه المرتبة أن يحكم لأهلها بأنَّهم مؤمنون (**والإحسانُ**) ونتيجتها أن يحكم لأهلها بأنَّهم محسنون.

فالمحسن والمؤمن والمسلم الجميع من أهـل ديـن الإسـلام، لـٰكن لكـلٍّ مرتبَـتُه الخاصَّة به؛ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾(1).

* **فالإسلام** هو: إقامة الأعمال الظَّاهرة؛ الشَّهادتين مع الأركان الأربعـة المعروفة: إقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وصوم رمضان وحجُّ البيت، مع بعـض الإيمان الذي يُصحِّح هٰذا العمَلَ الظَّاهر.

* **والإيمان** هو: الإيمان بأركانـه السِّـتّة: بـالله وملائكتـه وكُتبـه ورسـله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه مع بعض الإسلام الظَّاهر، بعضِ العمـل الظَّاهر الذي بِه يصحُّ هٰذا الإيمان الباطن.

* **والإحسان** هو: مقام المراقبة لله جلَّ وعلا.

* قال: (**وكلُّ مرتبَـةٍ لَـها أركانٌ؛ فأركانُ الإسـلامِ خمسَــةٌ**) ذكرهـا، ثـم ذكر الأدلَّة على ذلك فقال:

* (**فـدليلُ الشَّــهادةِ قولُـه تعـالَى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾(2)) وجـــــه الاسـتدلال: أن الله -جـلَّ وعـلا- شـهد بـذلك لنفسـه، وشـهد لـه بـذلك

(1) سورةُ آلِ عِمْرانَ، الآيـة (١٦٣).

(2) سورةُ آلِ عِمرانَ.

الملائكة، وهم عُمَّار السَّماء، وشهد له بذلك أيضًا أولوا العلم من الثَّـقَلَين.

قال جلَّ وعلا: ﴿قَآيِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ فبعد أن شهد بذلك لنفسه وأخبر بشهادة ملائكته له بذلك وبشهادة أولي العلم له بذلك أخبر مرَّة أخرى بمضمون ذلك فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾؛ واضح ظاهر وجه الاستدلال من هٰذه الآية.

* ما معنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟ قال: (معناها: **لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ وحده**).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أربع كلمات: (لَآ) ثم (إِلَٰهَ) ثم (إِلَّا) ثم (ٱللَّهُ): معنى (لَآ) هٰذه: حرف لنفي الجنس، وهي تعمل عمل (إنَّ) كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الرَّجز]

عمَلَ إنَّ اجْعَلْ لِـ (لَا) في نَكِرَهْ .... (١)

ويكون اسمها نكرة كما قال هنا: (لَآ إِلَٰهَ).

(إِلَٰهَ): الإلٰه فِعَالٌ بمعنى مَفعول يعني: معبودٌ، إلٰه بمعنى: مألوه، يعني معبود؛ لأنَّ الإلٰهةَ بمعنى العبادة، والألوهة بمعنى العبودية، وأصلها من: أَلَهَ يَأْلَهُ إلٰهةً وألوهة: إذا عبد مع الحبِّ والخوف والرَّجاء؛ إذا عبد عابدٌ ما يعبده خائفًا راجيًا محبًّا فإنَّه يكون قد أَلَـهَ، قال الرَّاجز في رَجَزِهِ المشهور:

(١) في ألفِيَّتِهِ، البيْتُ (١٩٧)، انظُرْهُ معَ شَرْحِ ابْنِ عقيلٍ (٢/ ٥ ط محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد).

لله دَرُّ الـغَـانِـيَـاتِ الـمُـدَّهِ   سَبَّحْنَ واسْتَـرْجَعْنَ مِنْ تَـأَلُّـهِي[1]

يعني: من عبادتي، التألُّه هو العبادة، فإذَنْ (لَآ إِلَٰهَ) كما قال هنا: (**معناها: لا معبودَ**)، فسَّر الإلٰـه بمعنى المعبود؛ لأنَّ ذلك الذي يقتضيه لسان العرب، وكذلك هو الذي جاء في القرآن، قال جلَّ وعلا: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[2] والذي جاء من عند الله جلَّ وعلا هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال هنا: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فتفسير الإلٰـه بالمعبود هٰذا موافق للقرآن وموافق للغة العرب.

وبه تعلم أنّ من فسَّر الإلٰـه في هـذا المـوطِنِ بـالرَّبِّ، يعنـي: القـادر عـلى الاختـراع، كـما هـو تفسـير أهـل الكـلام المـذموم والأشـاعرة والماتريديَّـة ونحوهم، فإنّ هٰذا من أبطل ما يكون؛ لأنَّه مناقض للغة العرب وتردُّه لغـة العرب، ومناقض للقرآن ويردُّه القرآن والسُّنَّة؛ فإن مـادَّة الإلٰــه غـير مـادَّة الرَّب، والإلٰـه هو المعبود كما أوضحتُ لكم في الاشتقاق.

---

(١) وهو لرؤبَـةَ بنِ عبد الله العجَّاجِ بنِ رُؤْبـةَ المتوفى سنة (١٤٥)، قال عنـه الخليـل لما مـات: دفنّـا الشعر واللغة والفصاحة، هو وأبُوهُ راجِزانِ مَشْهُورانِ ممَّنْ يُسْتَشْـهدُ بِـه في اللُّغـةِ، ولِكلـيْهما ديـوانٌ مَطْبُوعٌ، وهـٰذا البيتُ لرُؤْبـةَ ضِمنَ أبياتٍ في ديوانِـه (١٦٦)، وهُـو تـابعُ تـابِعِيٍّ ترجمتُـه في تهـذيبِ التَّهذِيبِ (١/ ٦١٣ ط الرِّسالة)، وأبوهُ تابعِيٌّ لقيَ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسمِعَ منهُ، وانظرُ: طبقات فُحولِ الشُّعراءِ لِابْنِ سَلَّام الجمَحِيِّ (٢/ ٧٥٣ ـ ٧٦١ ط محمـود شـاكر)، والشِّـعر والشُّـعراء لِابْـنِ قُتَيبَـةَ (٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٨ ط أحمد شاكر).

(٢) سورةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقولون: معنى (لَآ إِلَهَ) أي لا قادر على الاختراع (إِلَّا ٱللَّهُ)؛ ولهٰذا لا يكفِّرون من أشرك مع الله -جلَّ وعلا- إلٰها آخر في العبادة؛ يقولون: ما دام أنَّه مقر بتوحيد الرُّبوبية وبأنَّ الله جلَّ وعلا هو المتوحّد في أفعاله ـ في رَزقه وإحيائه وإماتته وفي تدبيره الأمر وفي ملكه وفيما يفعل ـ فإن هٰذا مؤمن !، وهٰذا باطل.

وبعضهم يفسِّر الإلٰه بتفسير آخر يرجع إلى معنى الرُّبوبيَّة، يقول أحد كبار وأئمَّة الأشاعرة ـ وهو السَّنوسي ـ في كتابه المعروف **بأمِّ البراهين** في العقائد الأشعرية يقول: (فالإلٰه هو المستغني عمَّا سواه، المفتقر إليه كلُّ ما عداه)، يقول: (فمعنى ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لا مستغنيًا عمَّا سواه ولا مفتقرا إليه كلّ ما عداه إلا الله)؛ فصار معنى كلمة التَّوحيد عندهم توحيدَ الله جلَّ وعلا في ربوبيَّته.

وهٰذا من أبطل الباطل؛ لأنَّ المشركين قد أخبر اللهُ جلَّ وعلا في كتابه أنهم مقرُّون بهٰذا الذي جعله معنى كلمة التَّوحيد، يقول: (معنى ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لا مستغنيا عمّا سواه ولا مفتقرا إليه كلُّ ما عداه إلَّا الله) !.

أرأيتم أبا جهل وصَحْبَه؟؛ ألم يكونوا موقنين بأنه لا مستغنيًا عما سواه ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلَّا الله؟ هم يؤمنون بذلك كما بيّنه الله جلَّ وعلا في القرآن في آيات كثيرة جدًا، كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

(١) سورةُ العَنكبُوتِ، الآيَـة (٦١).

خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى آخر الآية قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[2]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾، ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[3] إلى آخر ما جاء في هٰذه الآيات.

إذن فتفسير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بأنَّها (لا معبود إلَّا الله) هٰذا التَّفسير ليس تفسيرًا اجتهاديًّا، وإنَّما هو تفسير قرآني لهٰذه الكلمة، قال جلَّ وعلا: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[4]؛ فمن زعم أنَّ هٰذا التَّفسير من اجتهادات إمام هٰذه الدَّعوة فهٰذا مناقض ورادٌّ أو جاهل بالقرآن العظيم، فإنَّ الَّذي فسَّر الإلٰهيَّةَ بهٰذا المعنى هو الله جلَّ وعلا في كتابه في غير ما آية، قال جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[5] وهٰذا واضح؛ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أتى بعد أمرهم بعبادة الله -جلَّ وعلا- وحده دون ما سواه.

---

(١) سورةُ الزُّخْرُفِ، الآيـة (٨٧).

(٢) سورةُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) سورةُ المؤْمنونَ.

(٤) سورةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٥) سورةُ الأعراف، الآية (٥٩)، ومِثلُها الآيـة (٢٣) منْ سورةِ المؤْمنون.

وهٰذا مبيَّن كثيرًا في الكتاب وفي السُّنة، والنبيّ ﷺ قال لِـحُصَين بن عبد الرَّحمٰـن: «**كَمْ إِلٰـهًا تَعْـبُدُ؟**» قال: أعبد سبعة؛ ستَّة في الأرض وواحد في السَّماء، قال: «**فَمَنْ ذَا الَّذي تُعِدُّ لِرَغَبِكَ ولِرَهَبِكَ؟**»، قال: الذي في السَّماء(١).

فهٰذا معنى الإلٰـه، وهٰـذا معنـى (لَآ إِلَٰهَ) أي: لا معبـود، فهٰـذا التَّفسـير تفسير من القرآن، تفسير جاء مـن الله -جـلَّ وعـلا- ومـن نبيِّـه ﷺ، لـيس تفسيرًا اجتهاديًّا من أئمَّة هٰذه الدَّعوة كما زعمه الخرافيُّون وأعداء التَّوحيـد، إذن هنا قال: (**معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ**).

الكلمة الثَّالثة: (**إِلَّا**)، و(**إِلَّا**) هٰذه عند بعض العلماء أداة اسـتثناء، وعنـد بعضهم أداة حصر؛ فصار معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لا معبـود إلَّا الله، خـبر (**لا**) أين هو؟؛ (**لا معبود إلا الله**) يعني: لا معبود **موجود** إلَّا الله؟ لا معبـود **بحق** إلَّا الله؟ لا معبود **يُعبد** إلَّا الله؟، خبر (**لا**) أين هو؟

قال العلماء: خبر (**لا**) محذوف؛ ذلك لأنَّ العرب جرى في لغتهـا أنَّ خـبر (لا) النَّافية للجنس يحذف إذا كان واضحًا؛ ومن الواضـح أنَّ المشـركين لم ينازعوا في وجود آلهة أخرى، هم يعلمون أنَّ ثَمَّ آلهة كثيرة موجـودة، ولهٰـذا لا يصلح أن يقال: إنَّ الخبرَ: لا إلٰه **موجود**؛ لأنَّهم قـالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَٰلِهَةَ إِلَٰهًا

(١) أخرجَه الترمذيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٤٨٣) وقال: (**حديثٌ حسنٌ غريبٌ**)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما وضَعَّفهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَٰحِدًا ﴾[1]؛ فلو كان الخبر (**مَوْجُودٌ**): (**لا إلٰـه موجود**) لقالوا له: هٰذه الآلهـة موجودة؛ فكلمتك هٰذه ليست بصحيحة !.

ولٰـكن الخبر معلوم؛ لأنـه زُبـدة الرسـالة، وهـو مـا قـدّره الشَّـيخ هنـا: (**بحقٍّ**)، أو يقدّر: (**حقٌّ**) بدون الباء؛ وذلك لأن خـبر (**لا**) إذا حُـذف قُـدر بالمناسـب الـذي يُعلَـم، وإذا حُـذِفَ الخـبر كـان حَذْفُـه لأجـل العلـم بـه ولوضوحه؛ كما قال ابن مالك في الألفية في آخر بـاب (لا النَّافيـة للجـنس) يقول: (**وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ**) يعني باب لا النّافية للجنس:

وَشَاعَ فِي ذَا الْـبَابِ إِسْقَاطُ الـخَبَـرْ   إِذَا الْـمُـرَادُ مَـعْ سُقُوطِـهِ ظَـهَـرْ [2]

إذا ظهر المراد مع الحذف فإنَّـه يُحـذف، ولهٰــذا لا يُحـذف خـبر لا النَّافيـة للجنس إلّا إذا كان واضحًا، إذا كان الخبر واضحا، وهنا الخبر واضح لأنّـه هو زبدة الرِّسالة؛ زُبدة ما بُعث به النبيّ ﷺ، بل هو عين ما بعـث بـه النبـيّ ﷺ أن يكون تقدير الكـلام: لا معبـود حـقٌّ إلا الله؛ لأنَّ النَّبـيّ عَلَيـه الصَّـلاةُ وَالسَّلامُ بُعث لتوحيد الله جلَّ وعـلا بالعبـادة ولإبطـال عبـادة غـيره وأنّـه لا معبود حقٌّ إلا الله؛ وأنّ كـل معبـود سـوى الله جـلَّ وعـلا فعبادتـه بالباطـل والظُّلم والطُّغيان والتَّعدِّي من الخلق.

فإذن هنا حُذِف لأنَّه معلوم، فصار تقديره: لا إلٰه حقٌّ ـ أو لا إلٰه بحقٍّ ـ إلّا الله؛ وذلك لأنّ الله جلَّ وعلا قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ

---

(١) سُورةُ ص، الآية (٥).

(٢) البيْتُ رقم (٢٠٥)، انظُرْهُ معَ شَرْحِ ابْنِ عقيلٍ (٢/ ٢٤ ط محمد محيي الدِّين عبد الحميد).

مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾[1]، وفي الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾[2]، قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ؛ فلمَّا كانت هٰذه الآية ـ وقد جاءت في القرآن في سورتين ـ مشتملة على أنّ عبادة الله حقّ وأنَّ عبادة غيره باطلة ناسب أن يكون المحذوف هنا كلمة (**حقّ**) أو كلمة (**بحقٌّ**): لا إلٰـه بحق، أو لا إلٰـه حق؛ لأنها هي التي دلَّت عليها الآيات.

إذن فصار معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: لا أحد يستحقُّ العبادة إلَّا الله جلَّ وعلا، لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، هناك معبودات غير الله جلَّ وعلا، ولكنَّها معبودات بحق أو بالباطل؟ معبودات بالباطل، فصار التَّقدير هٰذا من أنسب ما يكون.

* قال: (**معناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ وحده**) فسَّر ذلك بقوله: (**لا إلٰـه: نافِيًا جميعَ مَا يُعْبدُ مِنْ دونِ الله**) يعني:الّذي يقول: (**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**) ماذا يقول حين يقول: (**لَآ إِلَٰهَ**)؟ يقول: أنفي جميع ما يُعبد من دون الله، (**إِلَّا ٱللَّهُ**) تقول: وأُثبت العبادة لله وحده؛ لأنّ (**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**) نفي وإثبات، نفي لاستحقاق العبادة عمَّا سوى الله وإثبات للعبادة المستحَقَّة لله جلَّ وعلا.

* قال رَحِمَهُ اللهُ هنا: (**لا شريكَ لَـهُ في عبادتِـهِ؛ كما أنَّــه لـيس لـه شريـكٌ في**

---

(١) سُورةُ لُقْمانَ.

(٢) سُورةُ الحجِّ.

مُلْكِهِ): عدم الشَّركَة في الملك تَتنوَّع:

❋ أحيانًا تكون الشِّركة في الملك ـ يعني مطلقًا دون إضافتها إلى الله طبعًا: بأنْ يكون لكلِّ شريك قسم خاص، ليس مشاعا، له قسم خاص مما اشتركا فيه؛ اشتركت أنا وأنت في مِلك إبل ـ مثلا ـ؛ لك خمسون ولي خمسون معروفة، هٰذه خمسونَ لي معروفة بأعيانها وهٰذه خمسون لك معروفة بأعيانها، أو اشتركت أنا وأنت في كتب معروفة؛ هٰذه الكتب لك وهٰذه الكتب لي، هٰذه شركة؛ كل من الشريكين له قسمه استقلالًا.

❋ الثاني: أن تكون شركة مشاعة؛ يَشترِكان شركة مشاعة، هٰذا وهٰذا مشتركان في ملك لا يتميز مِلك أحدهما عن الآخر، بل هو لهما جميعا.

الله -جلَّ وعلا- بَيَّن في القرآن أنّه لو كان له شريك في الملك ـ في ملكه ـ لابتغى إليه سبيلا، قال جلَّ وعلا: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، لو كان معه آلهة ـ معبودات ـ تستحقّ العبادة فعلًا ما الّذي سيلزم من ذلك؟ يلزم أنَّ لهم نصيبًا في ملك الله؛ لأنّه لا يستحقُّ العبادة إلّا من يملك النَّفع والضُّر؛ ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾[1]، وليس مع الله أحد في ملكه بل هو المتوحِّد في ملكه؛ ينتج من ذلك ويلزم: أنه هو المستحقُّ للعبادة وحده.

لهٰذا قال هنا: **(لا شريكَ لهُ في عبادتِهِ؛ كما أنَّه ليس له شريك في**

(١) سُورةُ الإِسْراءِ.

مُلْكِـهِ)، لهٰذا يقول العلماء: إنَّ توحيد الرُّبوبيَّة يستلزم توحيد الإلهيَّة، الإقرار بأن الله جلَّ وعلا ليس له شريك في ملكه لا على وجه الاستقلال ولا على وجه الإشاعة ـ الشُّيوع ـ هٰذا يلزم منه لزوما أكيدا أنّ الله جلَّ وعلا هو الواحد في استحقاقه العبادة، لا يستحقّ العبادة إلّا هو، هو وحده المستحقّ للعبادة لا شريك له؛ كما أنه هو وحده الَّذي له الملك لا شريك له.

كما جاء في آية الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، وقد بيَّنتُ لكم معناها، وأنَّ معناها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقًا، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ مُلكًا؛ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في عبادته وَ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في ملكه، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾، هٰذا معنى الآية، وهٰذا التَّفسير منَ الشَّيخ لكلمة التَّوحيد تفسير واضحٌ ظاهر.

* أيضًا قال: (**وتَفْسِيرُها الَّذي يُوَضِّحُها قَولُه تعالَى**: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1])، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ ماذا قال إبراهيم؟ المَقُول سيأتي، قال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾: اشتملت كلمتُه هٰذه على نفي وإثْبات، على بُغض ومحبَّة:

❋ فشِقُّها الأوَّل ـ جزؤها الأوَّل ـ: نفي وبغض؛ قال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا

(١) سُورةُ الزُّخْرُفِ.

تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهٰذا فيه نفي؛ ما دام أنَّه تبرَّأ منها ففيه نفي لاستحقاقها العبادة، ومعنى البراءة البُغض، فاشتمل قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ على النَّفي والبغض.

* ثمَّ أتى بالإثبات والمحبَّة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أُثبِتُ له العبادة، ثمَّ أتى بما يدلُّ على المحبَّة فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، محبَّة فيها الرَّجاء.

هٰذه كلمة وهي معنى (لا إلٰه إلّا الله)؛ لأنَّها اشتملت على براءة وعلى ولاء، اشتملت على بغض وعلى محبَّة، اشتملت على نفي وعلى إثبات.

قال: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعني: تلك الكلمة ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: في ولد إبراهيم، ومعلوم أنَّ إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء، والأنبياء من بعده جاؤوا بِتَقرير هٰذه الكلمة؛ قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾: يرجو أن يرجع إليها عقبه من بعده، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ يعني: إليها.

أيضًا يُفسِّرها قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾[1]: قُل يا محمَّد: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: يا أهل التّوراة ويا أهل الإنجيل ويا أهل الزَّبور، ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾: إلى كلمة نَصَفٍ، كلمة عدْل بيننا وبينكم، نعلم أنه قد جاء بها رسولُكم، وقد جاء بها محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ما هٰذه الكلمة؟: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾؛ وجه الاستدلال: أنَّ هٰذه الكلمة بيننا وبينهم، وهي كلمة التَّوحيد، تفسيرها:

---

(١) سُورةُ آلِ عِمرانَ، الآية (٦٤).

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾، وهٰذا واضح؛ التَّفسير لكلمة التَّوحيد، قال مؤكِّدا لمعناها: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ﴿أَرۡبَابًا﴾ يعني: آلهة ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهم ما ادّعوا في الخلق أنَّه ربّ، بمعنى أنه يخلق استقلالًا ويرزق استقلالًا ويحيي ويميت استقلالًا، هٰذا ما ادُّعي؛ فكان تفسير الرُّبوبيَّة هنا بالإلٰهيَّة.

قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾: آخر الآية يبيِّن أنَّ من ترك ما دلّ عليه أوّلُها فإنَّه ليس بمسلم؛ لأنَّه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ إذْ خالفناكم، وإذْ لم تذعنوا لهٰذه الكلمة السَّواء التي بيننا وبينكم: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ فأنتم لستم من أهل الإسلام.

* قال بعد ذلك: (**ودليلُ شَهادةِ أنَّ محمَّدًا رَسُولُ الله قَولُه تعالَى**: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[1]).

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: هٰذا قَسَم؛ اللَّام هٰذه هي التي تسمَّى (**الموطِّئة للقسم**) دائمًا تصحب (**قد**): ﴿لَقَدۡ﴾؛ نعلم أن ثَمَّ قَسَما محذوفا: وَ الله ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾.

وهنا الـمُقْسِم هو الله جلَّ وعلا، أقسم بأنَّه قد جاءكم رسول؛ وهٰذا لتأكيد الكلام وتعظيمه بأنفس السَّامع؛ لأنَّه أُكِّد بالقسم والمقسِم هو الله والمقسَم

(١) سورةُ التَّوبَـةِ.

به هو الله -جلَّ وعلا- على مجيء الرَّسول لَـنا من أنفسنا.

﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني: من جنسكم، من بني جلدتكم؛ يتكلَّم بلسانكم وتعقلون عنه، وهٰذا واضح الدِّلالة على الشَّهادة بأنّ محمَّدًا رسول الله، لأن معنى (**شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله**): أن تعتقد أنَّ محمَّدا أرسله الله جلَّ وعلا بدين الإسلام، تعتقد ذلك اعتقادًا يصحبه قولٌ وإخبار عنه، وهٰذه الآية واضحة الدِّلالة على المراد.

* بيّن معنى شهادة أن محمَّدًا رسول الله قال: (**ومعنى شهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله: طاعتُهُ فيما أَمَرَ**) هٰذا التَّفسير والمعنى بالمقتضى، أيْ: معناها الّذي تقتضيه؛ تقتضي طاعتَه فيما أمر، إذن فـ(**معنى شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله: طاعتُه فيما أمر**)؛ كونك شَهِدتَّ بِأنَّه مرسل من عند الله معنى ذلك أنَّه إذا أمرك فإنَّ الآمر هو الله جلَّ وعلا، كما جاء في الحديث الّذي رواه أبو داود وغيره ـ الحديث الصَّحيح ـ قال عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**ألَا وإنَّ ما حرّم رسول الله مثلُ ما حرّم الله**»(١)؛ إذا اعتقدت أنَّ هٰذا الذي جاءَ بِه محمَّد ﷺ لم يأتِ به من عنده وإنَّما هو رسول فمعنى ذلك أن تطيعه فيما أمر، هٰذا مقتضى لكونك شهدت بأنّه رسول الله؛ فإن لم تطعه فيما أمر اعتقادًا أنَّه لا يُطاع كان ذلك تكذيبًا لشهادتكَ، فمن قال: (**أشهد أنّ محمَّدًا رسول الله**) وهو يعتقد أنَّه لا تلزمه طاعة الرَّسول ﷺ فحاله حالُ المنافقين؛ شهادته

(١) أخرَجهُ أَبُو دَاودَ رَحِمَهُ اللهُ (ح٤٦٠٤) وابْنُ ماجَه رَحِمَهُ اللهُ (ح١٢) واللَّفْظُ لَه، من حديث المقدام بن معدي كَرِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحهُ الشَّيْخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

مردودة، كاذب في شهادته، وأمَّا إذا اعتقد أنَّه تجب عليه طاعة الرَّسول ﷺ فيما أمر وخالف لغلبة هوى فهٰذا يكون عاصيًا قد نَقَصَ من تحقيقه لشهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله بقدر مخالفته.

* قال: (**وتصديقُهُ فيما أَخْبَرَ**): ما أخبر به النَّبي ﷺ من الغيب وحيٌ من عند الله، ولا يتخرّص عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ لهٰذا ما أتى به من أخبار الغيبيَّات ـ منَ الكلام عنِ الله جلَّ وعلا، عنْ أسمائه وصفاته وأفعاله، عن الجنة والنار، عن أخبار الغيب، عن قصص الماضين ـ هو كلُّه بوحي من الله جلَّ وعلا؛ فمقتضى أنك شهدت أنه رسول الله أن تصدِّقه فيما أخبر، وألّا يكون في قلبك شكٌّ بِأنَّ ما أخبر به حقّ، وأنَّ كلَّ خبر أخبر به النَّبيُّ ﷺ نقول: عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فيه صادق، ولو كنَّا لا نرى ذلك الشَّيء؛ كما ثبت في الصَّحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: (**حدَّثني الصَّادق المصدوق**)[1] يعني به: رسولَ الله ﷺ.

فالمؤمن يصدِّق رسول الله بما أخبر به، سواء عقل ذلك أو لم يعقله، وسواء أدرك ذلك بنظره أو لم يدركه؛ فقد كان الصَّحابة يتناقلون فيما بينهم الأخبار الكثيرة عن رسول الله ﷺ بأنَّ عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ سينزل، وكان أبو هريرة إذا حدَّث بهٰذا الحديث يقول لأصحابه ولمن ينقل عنه الحديث ـ

(١) أخرجَهُ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٢٠٨ وغيره) ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٦٤٣).

لتلامذته ـ يقول: (**فإذا لقِيَـه أحدكم فليقرئه منِّي السَّـلامَ**)[1]؛ تصـديق لا يصاحبه شك، إذا كان المؤمن يعتقد أنَّه رسول الله فمعنى ذلك أنَّ كلَّ خـبر أخبر به فهو حقٌّ بلا شكَّ وبلا ريب، عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* قال ـ ومن معناها ـ: (**واجتنابُ ما عنـهُ نهى وزَجَـرَ**): النَّهـيُ والزَّجْـرُ بِمَعْنًى، والأصل في النَّهي وفي الزَّجر التَّحريم؛ لأنَّها نهي جازِمٌ كما هو مقرَّر في الأصول، فما نهى عنه الرَّسـول ﷺ وزجـر عنـه أو حرَّمـه فإنَّـه يَـجب اجتِـنابُـه طاعةً له عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ كـما قـال جـلَّ وعـلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[2]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من الأوامر أو من الأخْـبَار ﴿فَخُـذُوهُ﴾ امتِـثالًا للأمر وتصديقًا في الخـبر، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ مـا نهـاكم عنـه يجـب علـيكم أن تتركـوه طاعـةً لله جـلَّ وعـلا ولرسوله.

وهنا نقول مثل ما قلنا أوَّلًا: إنَّ من لم يجتنـب مـا نهـى عنـه الرَّسـول ﷺ وزجر اعتقادًا أنَّه لا يجب عليه الانتهاء ـ يعني: لم يلتـزم ذلـك، لم يلتـزم أنَّـه مخاطبٌ بهٰذه المنهيَّات ـ فهٰذا قدْحٌ في الشَّهادة؛ فلا يكون شاهدًا بـأن محمَّـدًا رسول الله وإن كان يقولها بلسانه.

---

(١) أخرجَهُ ابْنُ أبي شَيْبَة رَحِمَهُ اللهُ في المصَنَّفِ (ح٣٨٥١٨) وأحمـدُ رَحِمَهُ اللهُ في المسْـندِ (ح٧٩٧٠ و٧٩٧١ و٧٩٧٨) وأبو عَمرٍو الدَّانيُّ في الفِتنِ (ح٦٩٢ و ٦٩٤) مَوْقُوفًـا في بَعْـضِ ذلِـكَ ومَرْفُوعًـا، وأصْـلُ الخبرِ المرفُوعِ دُونَ جُملةِ إقْراءِ السَّلامِ عندَ البُخارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٤٤٨) ومُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٤٢).

(٢) سُورةُ الـحَشْرِ.

وإن التزم ذلك ـ قال: نعم، نلتزم بالّذي نهى عنه النبيّ ﷺ يجب تركه ـ لـٰكن غلبته نفسه وخالف ذلك ـ قليلاً كانت المخالفة أو كثيرةً في نفسه أو في غيره ـ فإن ذلك يكون نقصًا في شهادته ومعصية لله ولرسوله.

* قال: (**وأنْ لا يُعبدَ اللهُ إلّا بِما شَرَعَ**) يعني: لا يُعبد بالبدع والأهواء والمحْدثات، وإنَّما يُعبد الله جلَّ وعلا بالطَّريق وعلى الطَّريق الَّتي بيّنها نبيُّه ﷺ ، لا يُعبد الله جلَّ وعلا بالأهواء والآراء والاستحسانات المختلفة، وإنَّما يُعبد الله -جلَّ وعلا- عن طريق واحدة وهي طريق الرَّسول ﷺ، بما شرعه هٰذا الرَّسول؛ فإذا اعتقد المسلم ذلك كمُلت له شهادته بأنَّ محمَّدًا رسول الله وصار مسلمًا حقًّا.

* بعد ذلك قال: (**ودليلُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ وتَفْسيرِ التَّوحيدِ قَولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾**[1]): بيّن أن هٰذه الأشياء مأمور بها، وهو دليل على أنَّها من دين الإسلام.

* ثم ذكر دليل الصِّيام، ثم ذكر دليل الحجِّ، وهٰذه واضحةٌ ظاهرة.

بهٰذا تتبيَّن المرتبة الأولى من الأصل الثَّاني؛ ألَا وهي مرتبة الإسلام، وأعظم أركان الإسلام الشَّهادتان؛ فعلى طالب العلم أن يكون معنى الشَّهادتين واضحًا في قلبه، واضحًا في ذهنه، فاهمًا له، بحيث يستطيع أن يعبِّر عن ذلك بأيسر عبارة وبتنوُّع العبارة؛ لأنَّ أعظم ما يُدعى إليه ما دلَّت

(١) سُورةُ البَيِّنَةِ.

عليه الشَّهادتان، فعلى طالب العلم أن يعوّد لسانه على تفسير الشَّهادتين بتنويع العبارة، وعلى حفظ الأدلَّة التي فيها معنى الشَّهادتين، وعلى تفسير ذلك.

وإذا دَرَبَ على ذلك فسوف يرى أنَّه تُفتح له أبواب بفضل الله -جلَّ وعلا- وبرحمته منْ معرفة التَّوحيد وحُسن التَّعبير عنه، وأمَّا أن يترك طالب العلم نفسه لفهم ما دلّت عليه، دون أن يمرِّن نفسه على تأدية المعنى وتعليمه لأهله وللصِّغار ولمن حوله ولمن يلقاه ممَّن لا يعلم حقيقة معنى هٰذه الكلمة، فإنَّ هٰذا تضييعٌ للنَّفس ولا يَصْدُق على فاعله بِأنه طالب علمٍ؛ لأنَّ العامِّي هو الّذي يفهم ذلك؛ يفهم ذلك فهمًا لٰكن لا يستطيع أن يعبِّر عن فهمه بالتَّعبير العلمي الصَّحيح، وأمَّا طالب العلم فعليه أن يهتمَّ بأصل الأصول ألَا وهو تفسير الشَّهادتين، ومرّ معنا بعض ما يتَّصل بتفسيرها.

أسأل الله -جلَّ وعلا- أن يُلهمني وإيَّاكم الرُّشد والسَّداد، وأن يجعل ألسنتنا لاهجة بالثَّناء عليه وبذكره، وجوارحنا مقيمة على طاعته، وصلىَّ الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد.

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: **(المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإيمانُ، وهُو بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، فأعْلاها قَولُ لا إِلٰهَ إلَّا اللهُ، وأدْناها إماطةُ الأَذَى عنِ الطَّرِيقِ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الإيمانِ، وأركانُه سِتَّةٌ: أن تُؤْمِنَ باللهِ ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه.**

ودليلُ هذِه الأركانِ السِّتَّةِ قَولُه تعالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ

وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[1]، **ودليلُ القَـدَرِ قَولُه تعالَى:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾[2])

انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

هٰذه المرتبة الثَّانية هي مرتبة الإيمان، والإيمان أصله:

* **في اللُّغة** ـ كما سبق أن ذكرت لكم ـ هو: التَّصديق الجازم، فهو تصديق وجزم.

* **وفي الشَّرع**: الإيمان **قول وعمل واعتقاد**، أو نقول: الإيمان في الشَّرع **قول وعمل**؛ لأنَّ القول هو قول اللِّسان وقول القلب، والعمل عمل القلب وعمل الجوارح.

فَإذا قَال مَن قَال مِن أهل السنَّة: إنَّ الإيمان **(قول وعمل)** فَهو بمعنى مَن يَقُول: **(قول وعمل واعتِقاد)**؛ لأنَّ القول ينقسم إلى: قول اللِّسان وقول القلب:

* قول اللِّسان هو: النُّطق والإقرار ظاهرًا بنطقه.

* وقول القلب: النيَّة.

وعمل القلب وعمل الجوارح:

* عمل القلب أقسامه كثيرة، منها: أنواع الاعتقادات، ومنها أنواع العبادات القلبية مِن الخشية والخوف والرجاء، فالعلم ـ أنواع العلميات هٰذه ـ من أعمال القلب، وكذلك عبادات القلب المتنوِّعة هٰذه أعمال قلبية.

---

(١) سُورةُ البقرَةِ، الآية (١٧٧).

(٢) سُورةُ القَمَرِ.

* وكذلك عمل الجوارح.

وهٰذا بمعنى قول مَن قال: إنَّ الإيمان (**قول باللِّسان، واعتقاد بالجَنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرَّحمٰن، وينقص بطاعة الشيطان**).

قال أهل العلم: إنَّ هٰذا الإيمان الشَّرعي هو الَّذي حصل الابتلاء به، فهو منَ الأسماء التي نُقلت من اللُّغة إلى الشَّرع، فصارت حقيقتها الشَّرعية هو ما وصفتُ لك من أنّ الإيمان يشتمل على قول اللِّسان والعمل بالأركان والاعتقاد وأنَّه يزيد وينقص.

الإيمان كثيرًا ما يأتي في القرآن ويُراد به (**اللُّغَوي**)، وكثيرًا ما يأتي في القرآن ويراد به (**الشَّرعي**)، من مثل الألفاظ الأخرى كـ (**الصَّلاة**)؛ فإنَّها تأتي ويراد بها اللُّغوي (الصَّلاة اللُّغَوية) وهي: الدُّعاء والثَّناء وتَأتي ويراد بها الصَّلاة المعروفة.

ومما ذكره بعض أهل العلم من ذَوي التَّحقيق:

* أنَّ **الإيمان اللُّغوي** في القرآن كَثِيرًا ما يُعدّى باللَّام كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[1]، وكقوله تَعَالىٰ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾[2] ونحو ذلك من الأمثلة كما سبق أن ذكرت لكم.

* **والإيمان الشَّرعي** المنقول عن أصله اللُّغوي الَّذي يراد به (**القول والعمل والاعتقاد**) هٰذا يُعدَّى كَثِيرا بالباء: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ

(١) سُورةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) سُورةُ العَنكبُوتِ، الآية (٢٦).

مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1] إلى آخــر الآيــة، قَــال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات.

وكقولـــــه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾[3].

هٰذا الإيمان **(قولٌ وعملٌ واعتقاد)**، ويراد به تارةً: **(الاعتقادات الباطنـة)** وهو الذي يناسب المرتبة الثَّانية؛ لأنَّ المرتبة الأولى هي **(الإسلام)** وهي: مـا يشمل العمل الظَّاهر كما جاء في حديث جبريل، فقد جاء في بعض طرقه أنه ذكر عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لجبريل عليه السلام أنَّ من الإسلام بعد الحـجِّ: الغُسـل من الجنابة، ومنه الذِّكر[4]، ونحو ذلك ممَّا هو من جـنس الأعـمال الظَّـاهرة، وأما **(الإيمان)** فهو: العقائد الباطنة: الإيـمان بـالله وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليوم الآخر وبالقدر.

* الشَّيخ رحمه الله تعالى هنا قال: **(الإيـمانُ، وهُـو بضـعٌ وسـبعونَ شعبَــة)** وهٰذا يعني به: اسم الإيمان العام الّـذي يـدخل فيـه الإسـلام؛ لأنَّ الإيـمان

---

(١) سُورةُ البقرةِ، الآية (٢٨٥).

(٢) سُورةُ البقرةِ، الآية (١٣٧).

(٣) سُورةُ النِّساءِ.

(٤) الحديثُ كما سبقَ: أَخْرَجَه مُسْلِمٌ رحمه الله (ح٨)، وأشارَ إلى أنَّ في بَعْضِ طُـرُقِه زِيـادةً ونَــقْصًا ولمْ يذْكرْ ألفاظَها، وأخرجَه ابْنُ حِبَّـانَ رحمه الله (ح١٧٣) منْ إحدَى طُرُقِ مُسْلِمٍ رحمه الله بالزِّيادةِ الَّتـي أشـارَ إليها الشَّيخُ و زياداتٍ أخْرَى.

أوسع من الإسلام، والإسلام بعض الإيمان، وأهل الإيمان أخصّ مرتبة من أهل الإسلام؛ لهٰذا الإيمان يشمل الإسلام وزيادة.

بهٰذا المعنى ولهٰذا المعنى قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وهـو بضـعٌ وسـبعونَ شعبَــة، فأعلاها قولُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**) ومن المعلوم أنَّ قـول (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) أنَّـه أوَّل أركان الإسلام؛ شهادةً لله بالتَّوحيد بقول: (**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**) مع توابع ذلك، هٰذا الرُّكن الأوَّل، فهنا عـدَّ قـول: (**لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ**) أعـلى شـعب الإيـمان؛ وهٰذا لأنَّ الإيمان يشمل الإسلام وزيادة.

وهٰذا قد جاء مبيَّنا في الحديث الصَّـحيح الَّـذي رواه البخـاري ومسـلم وغيرهما أن النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّـلامُ قـال: «**الإيـمان بضـع وسـتُّون ـ أو قال: بضع وسبعون شعبة ـ أعلاها قول لا إلٰـه إلَّا الله وأدناها إماطـة الأذى عن الطَّريق والحياء شعبة من الإيمان**»[1]؛ فذكر أنَّ أعلى شُـعب الإيـمان (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ).

وقوله: (**شُعب**) هٰذا تمثيل للإيمان بالشَّجرة التي لها شـعب ولهـا فـروع، وقد مثَّل عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّـلامُ بـأعلى الشُّـعب، وبـأدنى الشُّـعب، ومثّـل بشعبة من الشُّـعب، وهٰـذه الـثَّلاث الَّتـي ذكرهـا عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ متنوِّعة:

* فالأوَّل وهو أعلاها: **قولٌ**؛ «**قول لا إلٰـه إلَّا الله**».

---

(١) أخرجَهُ البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٩) مختَصَرًا بلَفْظِ: «**الإيمان بضع وسـتون شُعْبَــةً، والحيـاء شـعبة مـن الإيمان**»، وأخرجَه باللَّفظِ الَّذي ذكرَه الشَّيخُ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ (ح٣٥)، وغيرُه، ن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* «**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»: هٰذا **عمل**.

* «**والحياء شعبة من الإيمان**»: الحياء **عمل القلب**.

فذكر في هٰذا: «**قول لا إلٰـه إلّا الله**» وهٰذا قول باللّسان، ولا شكَّ أنّه يتبعه اعتقاد بالجنان، وذكر **الحياء** أيضا وهو عمـل بالقلـب، وذكـر **إماطـة الأذى عن الطَّريق** وهو عمل الجوارح؛ فتمثيله عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بذلك لأجل أن يُستدلَّ بِكلِّ واحد من هٰذه الثَّلاثة ـ بِكل شعبة من هٰذه الثَّلاثِ الشُّـعب ـ على نظائرها:

* فيُسـتدل بكلمـة التَّوحيـد بقـول: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ) عـلى: **الشُّـعب القوليَّـة**.

* ويُستدل بإماطة الأذى عن الطَّريق عـلَى: **الشُّـعب العمليَّــة**؛ عمـل الجوارح.

* ويُستدل بذكره الحياء على: **الشُّعب القلبِـيَّـة**.

وهٰذا من أبلغ ما يكون من التَّشبيه والتَّمثيـل؛ وذلـك لأنّ التَّنويـع ـ كـما نوَّع عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ـ يجعل النَّاظر يُعـدِّي هٰـذا الَّـذي ذكـر إلى أنـواعٍ تماثلها كثيرة، ولهٰـذا العلماء اختلفوا في شعب الإيمان في عَدِّها؛ عَدَّها جماعـة وصنفوا فيها مصنَّفات، كما صنَّف الحَليمي ـ شيخ البيهقي ـ كتابـه (**المنهـاج في شعب الإيمان**) وهو مطبوع، وتلاه ـ عـلى ترتيبـه وعـلى نسـقه ـ البيهقـي

موسعا داعما لها بالأدلَّة في كتابه: **(شعب الإيمان)** ونحو ذلك[1].

عدُّوها على اجتهادٍ منهم، وهٰذا الاجتهاد يختلف فيه العلماء، بَعْضُهمْ يَعُدُّ خصالًا من شعب الإيمان، وبَعْضُهمْ يعُدُّ أخرى؛ وسبب ذلك: اجتهادهم في قياس ما لم يُذكر على ما ذكر، فيجعلونَ بعضًا منها قوليَّة، ويجعلون بعضًا منها عمليَّة، ويجعلون بعضًا منها لعبادات القلب.

وهم يقسِّمونها ـ في الغالب ـ أثلاثًا؛ فيجعلون للقوليَّات نحوًا من خمس وعشرين شعبة، ويجعلون للعمليَّات نحوًا من خمس وعشرين شعبةً، ويجعلون لأعمال القلوب نحوًا من سبعٍ وعشرين أو خمس وعشرين شعبةً، يزيدون ويَنْقُصون.

المقصود أنَّ هٰذا اجتهاد، اجتهاد من العلماء؛ لكنّ هٰذا التَّمثيل يدلُّ على ما ذكرت لك من استيعابه للأقوال وأعمال الجوارح وأعمال القلوب.

إذن فيدخل في هٰذه الشُّعب شعبُ الإسلام: إقام الصَّلاة، إيتاء الزَّكاة، صوم رمضان، الحجّ، الجهاد، الغسل، الطَّهارة، ونحو ذلك.

يدخل فيها الأعمال الاجتماعيَّة التي أُمر بها: صلة الأرحام، برُّ الوالدين.. إلى آخره.

---

(١) طبعَ **(المنهاجُ في شعبِ الإيمانِ)** لأبي عبد الله الحسينِ بْنِ الحسنِ الحَليميِّ رَحِمَهُ اللهُ (ت ٤٠٣) عنْ دارِ الفِكرِ، وطُبِعَ **(الجامعُ لِشُعبِ الإيمانِ)** للبَيْهقيِّ رَحِمَهُ اللهُ عدَّةَ طبعاتٍ، منها طبعةُ مكتبة الرُّشْدِ بالرِّياض بتحقيق عبد العلي عبد الحميد، في ١٤ مجلَّدًا، وانظُر عن المصَنَّفاتِ في هذا البابِ معجم الموضوعات المطروقة في التأليفِ الإسلاميِّ للحِبْشيِّ (٢/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧٢ ط أبو ظبي).

يدخل فيها أعمال القلوب من: الخشية والإنابة والحياء والمحبَّة والرَّجاء والخوف والرَّغب والرَّهب.. إلى آخر هٰذه الأمثلة.

فكلُّ هٰذه من الإيمان ودليل ذلك الحديث الصَّحيح الَّذي جاء في الصَّحيحين.

* بعد أن ذكر ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (**وأركانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكَتِهِ، وكتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وبالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**): أوضحت لكم في (شرح الأربعين النَّووية) تفصيل شرح هٰذه الأركان، لكن أذكر ذلك باقتضاب؛ ليكمل الشَّرح لهٰذا الكتاب.

* **الإيمان بالله يشمل**: الإيمان بوجود الله، بأن الله واحد في ربوبيته، وأنه واحد في إلٰهيته أيْ: في استحقاقه العبادة، أنَّه واحد في أسمائه وصفاته، يعني: ليس كمثله شيء في أسمائه، وليس كمثله شيء في صفاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١١﴾[1]، فبيان قوله: أن تؤمن بالله هو شرح التَّوحيد كلِّه.

* قال: (**وملائكَتِهِ**): الملائكة جمع مَلَك، وهو المرسل؛ لأنَّ أصلها (مَأْلَكَ) من (أَلَكَ) يعني: أرسل رسالة خاصة، أَلَكَ يَأْلَكُ أَلُوكَةً، والمرسل مألك أو مَلْأَك، وأصلها مألك؛ لأنَّها من أَلَكَ، خُفِّفت الهمزة كما تخفَّف كثيرا فصارت ملَك، وجمعها ملائكة، لهٰذا ظهر في الجمع الهمز؛ لأنَّ أصله في المفرد موجود، (**الملك**) جمعه (**ملائكة**)؛ ظهر الهمز، ومفرد الملائكة ملأك

(١) سُورةُ الشُّورَى.

إلى آخره، يعني: المرسلون الموكَّلون بها وكلهم الله -جلَّ وعلا- به.

هٰذا الرُّكن من أركان الإيمان تحقيقه يكون بأنْ يـؤمن المسـلم بـأن لله جـلَّ وعلا ملائكة، خلْق من خلقه جلَّ وعلا، جعلهـم موَّكلِـين بتصـريف هٰـذا العـالم، يـأمرهم فينفّـذون، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[1]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[2]، فمن أيقن أنَّ هٰذا الجنس مـن خلـق الله موجـود وآمـن بـذلك وأنَّ مـنهم مـن ينـزل بـالوَحي إلى الرُّسـل يـبلِّغهم رسالات الله فقد حقّق هٰذا الرُّكن من أركان الإيمان.

ثم بعد ذلك يكون الإيمان التَّفصيلي على نحو مـا فصَّـلتُ لكـم في (شرح الأربعين)، يكون الإيمان التَّفصيلي وهٰذا يختلف فيه النَّاس بحسَـب العلـم، لكن المقصود هنا أنَّ تحقيق هٰذا الرّكن من أركان الإيمان يكـون بتحقيـق مـا ذكرتُ، وبعد ذلك الإيمانُ بكل ما جاء في الكتـاب والسُّـنة مـن: أوصـاف الملائكة ومن أحوالهم: صفة خلقهم ومقامهم عنـد ربِّهـم، وأنـواع أعمالهـم وأنواع ما وُكِّلوا به، هـذا كلّـه مـن الإيـمان التَّفصـيلي مَـن علـم شـيئا مـن النُّصوص في ذلك وجب عليه الإيمان، لكـنَّ تحقيـق الـرُّكن يكـون بـالمعنى الأوَّل.

* قال بعدها: (وكتبِـهِ): الإيـمان بالكتـب أيضًـا إيـمانٌ إجمـالي، يتحقَّـق الإيمان بهٰذا الركن بأن يؤمن العبد بأن الله جلَّ وعلا أنزل كتبًا مـع رسـله إلى

---

(١) سُورةُ الأنبياء، الآية (٢٦).

(٢) سُورةُ التَّحريمِ.

خلقه، جعل في هٰذه الكتب الهدى والنور والبيِّنات وما به يَصلُح العبادُ، وأنَّ هٰذه الكتب التي أُنزلت مع الرُّسل أنَّ كلها حق؛ لأنَّها من عند الله جلَّ وعلا والله جلَّ وعلا هو الحق المبين، وما كان من جهة الحق فهو حقّ، ويوقن بذلك يقينا تاما.

ثم يوقن ويؤمن إيمانًا خاصًّا بآخر هٰذه الكتب ألا وهو القرآن، فكما أنَّه يؤمن بالكتب السابقة ـ التوراة والإنجيل والزَّبور وصحف إبراهيم وصحف موسى.. ونحو ذلك يؤمن بها إيمانًا عامًّا على ما أنزله الله جلَّ وعلا على أنبيائه ورسله ـ فإنَّه يؤمن به إيمانا خاصا بهٰذا القرآن، وأنَّه كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأنَّه حجة الله على الناس إلى قيام الساعة، وأنَّه به نُسخت جميع الرسالات وجميع الكتب من قبل، وأنَّه حجة الله الباقية على الناس، وأن هٰذا الكتاب مهيمن على جميع الكتب وما فيه مهيمن على جميع ما سبق، كما قال جلَّ وعلا في وصف كتابه: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[1]، وأنَّ ما فيه من الأخبار يجب تصديقها، وما فيه من الأحكام يجب امتثالها، وأن من حكم بغيره فقد حكم بهواه، ولم يحكم بما أنزل الله؛ هٰذا كلُّه من الإيمان الخاص بالقرآن.

* كذلك الإيمان **بالرُّسل**؛ إذا آمن المسلم بأن الله -جلَّ وعلا- أرسل رسلًا؛ بعثهم بالتَّوحيد، يدعون أقوامهم إلى التَّوحيد، وأنهم بلَّغوا ما أُمروا به، وأيدهم الله بالمعجزات، بالبراهين والآيات الدَّالة على صدقهم، وأنهم

(١) سُورةُ المائدة، الآية (٤٨).

كانوا أتقياء بررة، بلّغوا الأمانة وأدَّوا الرسالة؛ بهٰذا يكون آمن بالرُّسل جميعا.

ثم يؤمن إيمانًا خاصًّا بمحمَّد ﷺ؛ بأنه خاتم الرسل، وأن الله جلَّ وعلا بَعَثَهُ بالحنيفية السمحة، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات.

القسم الثاني الإيمان التفصيلي بالرُّسل ـ على نحو ما أوضحت لكم ـ فيه مقامات كثيرة في ذلك، يتبع العلم التَّفصيلي بأحوال الرسل وأسمائهم وأحوالهم مع أقوامهم وما دعوا إليه وكتبهم ونحو ذلك.

* قال بعد ذلك: (**واليومِ الآخرِ**): هٰذا هو الرُّكن الخامس؛ الإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بيوم القيامة، وتحقيق هٰذا الركن يكون بأن يوقن هٰذا العبد ـ يؤمن بغير امْتِراءٍ ولاشك ـ بأنَّه ثَم يوم يعود الناس إليه، يُبعثون فِيه وإليه، يحاسبون فيه، وأنَّ كلَّ إنسان مَـجْزِيٌّ بما فعل؛ لأن الأمر ليس منْتهيا بالموت، بل ثَم يوم يجتمع فيه النَّاس فيقتصُّ للمظلوم من الظالم، ويحاسب الناس على أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾[1]؛ إذا آمن بهٰذا القدر وأنَّ هناك يومٌ سيكون وأننا سنُبعث من جديد فإنَّه قد حقق هٰذا الركن.

بعد ذلك الإيمانُ التفصيلي باليوم الآخر، هٰذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال يوم القيامة: من أحوال القبور، أحوال ما يكون

(١) سُورةُ الزُّمر.

يـوم القيامـة: الإيـمان بـالحوض، بـالميزان، الإيـمان بالصـحف، الإيـمان بالصِّراط، الإيـمان بـأحوال النَّـاس في العرصـات، أحـوال النَّـاس بعـد أن يجُوزُوا الصراط ـ يعني: المؤمنين الذين يـدخلون الجنـة ـ، ومـا يكـون بعـد جَوْزِ الصِّراط، ومن يدخل الجنة أولا، وأحوال الناس في النار ونحو ذلـك، أحوال الظُّلمة، أحوال الجسر، هٰذه كلُّها أمور تفصيلية لا يجب الإيـمان بهـا على كلِّ أحد، إلَّا من سمعها في النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بـما سـمع، لكن لو قال قائل: أنا لا أعلم هل ثَمَّ حوض أم لا؟ لا أدري هل ثـم ميـزان أم لا؟ ونحو ذلك يُعرَّف بالنُّصوص فإن عُرِّف فأنكر وكذَّب فيكون مُكذِّبا بالقرآن وبالسُّنة.

أما تحقيق هٰذا المقام الذي هو اليوم الآخر: أنْ يؤمن بأن ثَمَّ يوم يعود فيـه النَّاس، فيجازَى المحسن بإحسانه والمسيء بـإساءته.

فلو سألت أحدًا قلتَ له: هل ثَمّ يوم آخر يعود فيـه النـاس؟ قـال: (بـلا شك، هناك يوم القيامة نُبعث فيه ويحاسب النَّاس فيه، فيه أهوال) وسكت؛ بهٰذا حقق الرُّكن وهو الإيمان باليوم الآخر.

إذا سألته: هل تؤمن بالحوض؟ قال: أيش الحوض؟ أنـا مـا أعـرف هٰـذا الحوض، هل تؤمن بالميزان؟ أنا ما أعـرف؛ يُعـرَّف النُّصـوص الدَّالـة عـلى ذلك، لأن هٰذا من العلم التفصيلي الذي إنَّما يجب العلم به بعـد إخبـاره بـما جاء في النّصوص عليه.

* السَّادس قال: (**وبالقَـدَرِ خيْـرِهِ وشرِّهِ**): الإيـمان بالقـدر تحقيـق هٰـذا الركن أن يعلم ويعتقد ـ يؤمن ـ بـأن كـل شيء يحـدُث في هٰـذا الملكـوت في

خلق الله قد سبق به قَدَر، وأنَّ الله جلَّ وعلا عالم بهٰذه الأحوال وتفصيلاتها في خلقه قبل أن يخلقهم، وكتب ذلك، وإذا آمن أنَّ كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هٰذا الرُّكن، والإيمان بالقدر؛ الإيمان الواجب يكون على مرتبتين:

* **المرتبة الأولى: الإيمان بالقدر السَّابق لوقوع المقدَّر**، وهٰذا يشمل درجتين:

ـ **الأولى: العلم السَّابق**؛ فإنّ الله جلَّ وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله السَّابق بكل شيء بالكليات وبالجزئيات، بجلائل الأمور وبتفصيلات الأمور، هٰذا العلم السَّابق.

كما قال جلَّ وعلا في آخر سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١)، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾(٢)، فبيَّن جلَّ وعلا أنَّ علمه بالأشياء سابق، وأنَّه يعلم كلَّ شيء؛ الكليات والجزئيات، الأمور الجليلة وتفاصيل الأمور، هٰذا العلم الأوَّل، وهٰذا العلم لم يزل الله جلَّ وعلا عالما به، علمه جلَّ وعلا بهٰذه الأشياء بجميع تفاصيل خلقه، عِلْمُه بها أَوَّل

---

(١) سُورةُ الحجِّ، الآية (٧٠).

(٢) سُورةُ الأنعامِ.

يعني: ليس له بدايـة.

ـ **الثانيـة: الكتابَــة**؛ أن يـؤمن العبـد أنّ الله جـلَّ وعـلا كتـب مـا الخلـق عاملون، كتب أحوال الخلـق وتفصـيلات ذلـك قبـل أن يخلـق السَّـمٰوات والأرض بخمسـين ألـف سـنة، وذلـك عنـده في كتـاب جعلـه في اللـوح المحفوظ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ فأثبت أنَّه في كتاب، وقال جـلَّ وعـلا: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[(١)]، يعني: قد سُطِّر وكُتِـب في اللَّـوح المحفـوظ، وقـال جـلَّ وعــلا: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾[(٢)]، بيّن أن كلَّ شيء يكونُ إنَّما هو في كتاب.

وهٰذا قد جاء أيضًا في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمـرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «**قَـدّر الله مقاديـر الـخـلائق** ـ يعني بالكتابة ـ **قبـل أن يـخلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنَـة**»[(٣)].

هاتان الدَّرجتان في المرتبة الأولى؛ المرتبة الأولى تسبق وقوع المقـدر، هٰـذه المرتبة الأولى تحوي درجتين.

* **المرتبـة الثانيـة أيضًا تحوي درجتـين**، وهـي تواكـب أو تقـارن وقـوع المقدر:

---

(١) سُورةُ القمَرِ.

(٢) سُورةُ الحجِّ.

(٣) أخرجَه مسلم (ح٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ـ **أولى الدَّرجتـين: الإيـمان بأن مشيئـة الله جلَّ وعلا نافــذة**؛ وأنّ مـا شـاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، فليس ثَم شيء يحدث ويحصـل في ملكـوت الله جلَّ وعلا إلَّا وقد شاءه الله جلَّ وعلا، وقد أراده الله جلَّ وعلا كونًـا، سـواء في ذلك طاعات المطيعين أو عصيان العاصين، سواء في ذلك إيمان المـؤمنين أو كفر الكافرين، فكـلّ شيء يحصـل في ملكـوت الله إنّـما هـو بإذنـه ومشـيئته وإرادته الكونية؛ لأنّ المشيئة ما تنقسم، التي تنقسـم الإرادة، ومشـيئة الله إذا أطلقت يُعنى بهـا: الإرادة الكونيـة؛ الإرادة تنقسـم إلى: إرادة كونيـة وإرادة شرعية فأمّا المشيئة فهي مشيئة الله جلَّ وعلا في كونـه، هٰـذه الدّرجـة الأولى، هٰذه تواكب وقوع المقدر فلا يمكن أن يعمل العبد شيئا يكون مقـدّرا عليـه من الله جلَّ وعلا إلّا وهٰذا الشيء قد شاءَهُ الله جلَّ وعلا.

ـ **الدّرجة الثانية: أن يؤمن بأن الله جـلَّ وعـلا خـالق كـلّ شيء**؛ كـلّ شيء مخلـوق اللهُ جـلَّ وعـلا خالقـه؛ أعـمال العبـاد، أحـوال العبـاد، السّـمٰوات والأرض، مـن في السّـمٰوات ومـن في الأرض، مـا في السّـمٰوات ومـا في الأرض، الجميع الذي خلقه هو الله جلَّ وعلا، فإذا أراد العبد أن يعمل شـيئا فإنه لا يكون إلّا إذا شاءه الله جلَّ وعلا، وخلق الله جلَّ وعلا ذلـك الشّـيء، طاعات المطيعين خلقها الله جلَّ وعلا، عصيان العاصين خلقه الله جلَّ وعـلا، إذا توجّه العبد بإرادته إلى أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونـا وقـع بعـد خلقـه له، إذا لم يشأْه ولو أراده العبد لم يقع، كما قال جـلَّ وعـلا: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن

يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾[2]، مَرْتبة الخلق عامّة.

إذن هٰذا الإيمان الواجب يصحّ أن نقول أنّه إيمان تفصيلي: مرتبة قبل وقوع المقدر، العلم الأزلي؛ العلم الأول، والكتابة التي هي قبل خلق السَّمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم ما يواكب وقوع المقدر وهو أنّ العبد عنده إرادة وعنده قدرة؛ إذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التَّامة حصل منك الفعل، توجّهت إلى الفعل حصل منك الفعل؛ لكن لا يحصل منك إلا بعد أن يشاء الله -جلَّ وعلا- ذلك منك، وإلَّا بعد أن يَخلق الله جلَّ وعلا ذلك الفعل منك، الفعل فعل العبد حقيقة، لكن الخالق لهٰذا الفعل هو الله جلَّ وعلا، لم؟ لأن الفِعْلَ من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامّة، والإرادة والقدرة قد خلقها الله جلَّ وعلا، فالله جلَّ وعلا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعلَ نفسَه إذا توجه إليه العبد.

فحصل بهٰذا الإيمان التَّفصيلي الواجب بالقدَر.

وبهٰذا البيان تتضح لك أركان الإيمان السِّتة: الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

* قَال الشيخ بعْد ذلك رَحِمَهُ اللهُ تعالى: **(ودليلُ هـذِه الأركانِ السِّـتَّـةِ قَولُـه تعـالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾)** يعْني:

---

(١) سُورةُ التَّكوِير.

(٢) سُورةُ الإنْسان.

الـذي يُمـدح أصـحابُه (﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾) النبـيِّـين يعني: الرُّسل.

وهنا ذكـر الخمسـة هٰـذه: ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾؛ فهٰذه الآية دليل على خمسة من أركان الإيمان، وكثيرًا ما تأتي هٰـذه الخمسة مقترنة، كقوله جلَّ وعـلا في آخـر سـورة البقـرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ذكـر الأربعة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[1].

وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾[2]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾[3]، ونحو ذلك من الآيات، وقد جاءت أيضا في حديث جبريل المشهور.

* بقي القدر؛ القدر أدلته في القرآن أدلة عامّة بذكر القدر وأدلـة مفصـلة لكل مرتبة من مراتب القدر، فمن الأدلة العامة ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى،

---

(١) سُورةُ البقَرة، الآية (٢٨٥).

(٢) سُورةُ النساء.

(٣) سُورةُ النِّساءِ.

وهو قوله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾(١)، وجه الاستدلال: مجيء ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ يعني: ليس ثَم مخلوق من مخلوقات الله إلَّا وقد خلق بقدر سابق من الله جلَّ وعلا، لا يخرج شيء عن هٰذه الكلية؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ و ﴿كُلَّ﴾ من ألفاظ الظهور في العموم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾(٢)، وكلّ دليل فيه ذكر مرتبة من المراتب التي ذُكرت يصلح دليلا على القدر لأنَّه دليل لبعضه.

هٰذا ما ذكره الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في بيان المرتبة الثَّانية من مراتب الدِّين ألا وهي مرتبة الإيمان.

* المرتبة الثَّالثة: (الإحسان)، قال:: (**المرْتَبةُ الثَّالِثَةُ: الإحْسَانُ، رُكْنٌ واحِدٌ وهُو: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَم تَكُنْ تَراهُ فَإنَّهُ يَراكَ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾(٣)، **وقَولُه تعالَى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾(٤)، **وقَولُه تعالَى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ

---

(١) سُورةُ القَمرِ.

(٢) سُورةُ الفُرْقان.

(٣) سُورةُ النَّحلِ.

(٤) سُورةُ الشُّعراءِ.

وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾) في سُورةِ يُونُسَ.

الإحسان ـ الذي هو مرتبة من المراتب ـ: **إحسان العابد أثناء عبادته؛ وهو مقام المراقبة؛ مراقبة العابد لربه جلَّ وعلا أثناء عباداته لربه جلَّ وعـلا، بـل في أحواله كلِّها**، لأنَّه إذا راقب ربه بأنه قد علم أن الله جلَّ وعلا مطّلع عليه كأنه يرى الله جلَّ وعلا فـإن هٰـذا يـدعوه إلى إحسـان العمـل، وأن يجعـل عملـه أحسن ما يكون، وأن يجعل حاله في إقبال قلبه وإنابته وخُضوعه وخشـوعه ومراقبته لأحوال قلبه وتصرُّفات نفسه يجعل ذلك أكمل ما يكون في حُسـنه وبَهائه؛ لأنه يعلم أن الله جلَّ وعلا مطّلع عليه.

هٰذا المقام ـ مقام المراقبة ـ (**ركنٌ واحدٌ، وهو: أنْ تَعبدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ فـإنْ لم تكنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**): أن تكون عابدًا لله على النحو الذي أمر اللهُ جلَّ وعـلا به وأمر به رسولُه، وحالتك أثناء تلك العبادة التي تكون فيها مخلصًا موافقًـا للسنة حالتك أن تكون كأنك ترى الله جلَّ وعلا، فإن لم تكن تراه فلتعلم أنّـه جلَّ وعلا مطّلع عليك، عالِـمٌ بحالك، يرى ويُبصر ما تعمـل، يعلـم ظـاهرَ عملـك وخفيَّـه، يعلـم خلجـات صـدرك ويعلـم تحرُّكـات أركانـك وجوارحك.. وبضعفه تضعف المراقبة لله جلَّ وعلا.

إذن فمرتبة الإحسان تعظم بعظم مراقبة الله جلَّ وعلا، وتضعف بضـعف مراقبة الله جلَّ وعلا، فالعبد المؤمن أثناء عبادته إذا كـان يعبـد الله جـلَّ وعـلا مخلصًا على وَفق السّنّة وحاله أنَّه كأنه يرى الله عالِمٌ بأنَّ اللهَ مطّلـع عليـه يـراه هٰذه تجعله يُحسن عمله، بل يجعل عمله وحاله أثناء العمل أحسنَ ما يكون.

* (**والدَّليلُ قَولُه تعالَى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾)، وجه الاستدلال: أن الله جلَّ وعلا ذكر هٰهنا معيَّته للَّذين اتَّقوا ولمن هم محسنون؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾، وهٰذه المعية تقتضي في هٰذا الموضع شيئين:

* **الأول: أنه جلَّ وعلا مطَّلع عليهم، عالم بهم، محيط بأحوالهم**، لا يفوته شيء من كلامهم ولا من أحوالهم ولا من تقلُّباتهم.

* **والثاني: أنه جلَّ وعلا معهم ناصرًا لهم؛ بتأييده ونصره وتوفيقه وتسديده**، فالمعية هٰهنا معية خاصة بالمؤمنين، ومعلوم أن المعية الخاصة للمؤمنين تُفسَّر بما تقتضيه، وهو أنّها: معية نصر وتأييد وتوفيق وتسديدٍ وإلهام ونحو ذلك، وهٰذا متضمِّن للمعيَّة العامّة وهي: معية الإحاطة والعلم ونحو ذلك.

إذن وجه الاستدلال:

* **أولًا**: أنه ذكر المعيّة.

* **الثاني**: أنه ذكر معيَّته للمحسنين فقال: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ والمحسنون هٰهنا جمع المحسن، والمحسن: اسم لفاعل الإحسان، ففاعل الإحسان اسمه محسن، والإحسان هو الذي نتكلَّم عليه؛ المرتبة الثالثة.

فإذن وجه الاستدلال من جهتين: أوّلا ذكر المعيّة، ثانيًا ذكر المحسنين.

* (**وقَولُه**: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾)، وجه الاستدلال من هٰذه الآية: أنه ذكر رؤية

الله جلَّ وعلا لنبيه حال عبادة نبيه، وأنه يراه في جميع أحواله حين يقوم وتقلّبَه في السَّاجدين من صحابته أثناء صلاته بهم عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ قال واصفًا نفسه جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ ، وهٰذا دليل للشِّق الثاني من ركن الإحسان وهو قوله: (**فإنْ لم تكنْ تَراهُ فـإنَّـه يَراكَ**)، دليل الرُّؤية هٰهنا قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ يعني: في المصلِّين.

* قـال أيضـا: (**وقولُـه**: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ **الآيـة**)، وجـه الاسـتدلال قولـه تعـالى هنـا: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، وشهود الله جلَّ وعلا لِـما يعملـه العبـاد مـن معانيـه: رؤيتـه جـلَّ وعـلا لهـم وإبصاره جلَّ وعلا بهم، رؤيتُـه جلَّ وعلا من معاني كونـه جلَّ وعلا شهيـدا، قـال جـلَّ وعـلا هنـا: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وهٰـذا الاستدلال ظاهر؛ لأنَّ الإحسان هو: **أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تراه فإنـه يراك**.

قال جلَّ وعلا هنا: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أيِّ شـأن تكـون فيـه، ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أنواع تلاوتك للقرآن، وأحـوال ذلـك: في الصَّـلاة، خـارج الصَّلاة، وأنت على جنبـك، وأنـت قـائم، أحـوال ذلـك، ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أحوال عملكم.. كلُّ ذلك منكم اللهُ جـلَّ وعـلا شـهيد عليـه؛ يـرى أحوالكم تِلكَ على تفصيلاتها، شاهد وشهيد عليكم، يرى أعمالكم، يسـمع كلامكم، وهٰذا دليل أيضا ظاهر الاستدلال.

* ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدَّليل من السُّنَّة، وهو حديث جبريل المشهور عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو الذي شرحناه في الأربعين النووية، إذْ هو ثاني الأحاديث النووية الأربعين، وبهٰذا يتم ذكر الأصل الثاني من أصول دين الإسلام، ألا وهو (**معرفة دين الإسلام بالأدلَّة**).

نُلخِّصُ ذلك::

ذكر الشَّيخ أن الأصل الثاني: (**معرفة دين الإسلام بالأدلَّة**)؛ عرّف (الإسلام) وذكر أركانه، وذكر معنى الشَّهادتين، معنى (شهادة أن لا إلٰه إلا الله)؛ فسّر التوحيد وأدلة ذلك، بيّن معنى (الشَّهادة بأن محمدا رسول الله)، ثم بيَّن أدلة أركان الإسلام الباقية، ثم ذكر المرتبة الثانية وهي (الإيمان)، ثم ذكر المرتبة الثالثة وهي (الإحسان)، ودلائل ذلك كلِّه على نسق ووضوح يسهل معه الفهم ويسهل معه الإفهام.

ولـهٰذا ينبغي لنا أن نحرص على هٰذه الرِّسالة؛ تعليما لها للعوام وللنساء في البيوت وللأولاد ونحو ذلك على حسَب مستوى من يخاطَب بذلك، فقد كان علماؤنا رحمهم الله تعالى يعتنون بثلاثة الأصول هٰذه تعليمًا وتعلُّمًا، بل كانوا يُلزمون عددا من النَّاس بعد كل صلاة فجر أن يتعلموها، أن يحفظوا هٰذه الأصول ويتعلّموها، وذلك هو الغاية في رغبة الخير ومحبة الخير لعباد الله المؤمنين، إذْ أعظم ما تُسدي للمؤمنين من الخير أن تُسدي لهم الخير الذي ينْجيهم حين سؤال الملكين للعبد في قبره؛ لأنَّه إذا أجاب جوابا حسنا جوابا صحيحا عاش بعد ذلك سعيدًا، وإن لم يكن جوابه مستقيما ولا صحيحا عاش بعد ذلك ـ والعياذ بالله ـ على التوعُّد بالشقاء والعذاب.

أسأل الله جلَّ وعلا أن يُـنَـوِّر بصـائرنا، وأن يقينـا الزّلـل والخطـل، وأن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شرَّ أنفسنا، وأن يعلِّمنا ما ينفَعُنا، وصلَّى الله وسـلَّم على نبيِّنا محمَّد.

❋❋❋❋❋

الأصلُ الثَّـالثُ..
معرِفةُ نبِيِّكُمْ محمَّدٍ ﷺ

الأصْلُ الثَّـالِثُ: مَعْرِفَـةُ نَبِـيِّكُمْ محمَّـدٍ ﷺ.

وهُو: محمَّـدُ بْنُ عَبـدِ الله بْنِ عبـدِ الـمُطَّلِبِ بْنِ هاشِمٍ.

وهاشِمٌ منْ قُـرَيْشٍ، وقُرَيْشٌ منَ العرَبِ، والعَربُ مِـن ذُرِّيَّـةِ إسْـماعِيلَ بْنِ إبْراهِيمَ الـخَلِيلِ عليـه وعلَى نَبِـيِّنا أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

ولَه منَ العُـمُرِ ثَـلاثٌ وسِتُّونَ سَنَـةً؛ مِنها أرْبَـعُونَ قَبـلَ النُّبُـوَّةِ، وثَـلاثٌ وعِشْرُونَ نَبِـيًّا رَسُولًا.

نُـبِّـئَ بِـ (اقْـرَأْ) وأُرْسِلَ بِــ (الـمُدَّثِّـرِ)، و بَـلَـدُه مَكَّـةُ، وهاجَـرَ إلى الـمَدِينَـةِ، بَعَـثَـه اللهُ بِالنِّـذارةِ عنِ الشِّرْكِ، ويَـدْعُو إلَى التَّـوْحِيـدِ.

والدَّلِـيلُ قَوْلُـه تعـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

ومَعْـنَى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾: يُـنْـذِرُ عنِ الشِّـرْكِ ويَـدْعُـو إلَى الـتَّـوْحِيـدِ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ أيْ: عَظِّمْـهُ بِالـتَّـوْحِيـدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ أيْ: طَـهِّـرْ أعْمالَـكَ عـنِ الشِّـرْكِ، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ الرُّجْـزُ: الأصْنَـامُ، وهَجْـرُها: تَـرْكُـهَا والبَـرَاءَةُ مِنْـها وأَهْلِـها.

أَخَـذَ علَى هٰـذَا عَشرَ سِنِـينَ يَـدْعُو إلَى التَّـوْحِيـدِ، وبَـعْـدَ العَـشرِ عُـرِجَ

بِـهِ إِلَى السَّماءِ وفُـرِضَتْ عليـه الصَّلَواتُ الخمْـسُ، وصَـلَّى في مَكَّـةَ ثَـلاثَ سِنِـينَ، وبَـعْدَها أُمِـرَ بالـهِـجْـرَةِ إِلَى المدِيـنَـةِ.

والـهِجْـرَةُ: الانْـتِـقالُ مِن بَـلَدِ الشِّـرْكِ إِلَى بَـلَدِ الإسْـلامِ، والـهِجْـرَةُ فَرِيضَةٌ علَى هٰـذه الأُمَّـةِ مِنْ بَـلَـدِ الشِّرْكِ إِلَى بَـلَدِ الإِسْلامِ، وهيَ باقِـيَـةٌ إِلَى أَنْ تَـقُومَ السَّاعَـةُ.

والدَّلِيلُ قَولُـهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾[1].

وقَولُـه تعـالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2]، قَـالَ البَـغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (سببُ نُزُولِ هٰـذِه الآيَـةِ في الـمُسْلِمِـينَ الَّذينَ بِـمَكَّـةَ لَـمْ يُهاجِرُوا) اهـ[3] ناداهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمانِ.

و الدَّليلُ علَى الـهِجْرةِ منَ السُّنَّـةِ قَولُـه ﷺ: «لا تَنقَطِـعُ الهجـرةُ حتَّـى

---

(١) سُورةُ النِّساءِ.

(٢) سُورةُ العَـنكبُوت.

(٣) انظُر: (معالِـمَ التَّنزيلِ) لِلبغوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ (٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ ط: دار طيبة).

تَنقَطِعَ التَّـوْبَـةُ، ولا تَنقَطِـعُ التَّـوْبَـةُ حتَّى تَطْـلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها»[1].

فَلَـمَّا اسْتَقَـرَّ بِـالمدينَـةِ أمر بِـبَـقِـيَّـةِ شَرائِـعِ الإِسْـلامِ، مِثْـلِ الزَّكـاةِ و الصَّـوْمِ والـحَجِّ و الأَذَانِ والـجِهادِ والأَمـرِ بِالـمَعْرُوفِ والنَّـهْيِ عـنِ الـمُنْـكَرِ، وغيرِ ذلِكَ مِن شَرائِـعِ الإِسْلامِ؛ أخَـذَ عـلَى هٰـذَا عشرَ سِنِـينَ وبَعْدَها تُـوُفِّـيَ صَلاةُ الله وسَلامُـهُ عليه.

ودِينُـه باقٍ، و هٰـذَا دِينُـهُ، لا خيرَ إلَّا دَلَّ الأُمَّـةَ عليه ولا شَرَّ إلَّا حَـذَّرَها مِنـهُ، والخيرُ الَّذي دَلَّ عليه: التَّوْحِيدُ وجميـعُ مـا يُحِبُّـهُ اللهُ ويَرْضَـاهُ، والشَّرُّ الَّذي حَذَّرَ مِنْـهُ: الشِّرْكُ وجَميعُ ما يَكرَهُـهُ اللهُ ويَـأْباهُ.

بَعَـثَـهُ اللهُ إلَى النَّـاسِ كافَّـةً، وافْـتَرَضَ اللهُ طاعتَـهُ علَى جَميـعِ الثَّـقَـلَـيْنِ الـجِنِّ والإِنْسِ؛ والدَّليـلُ قَولُه تعـالَى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2].

وأكمَـلَ اللهُ بِـه الـدِّينَ؛ والـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ ﴾﴿دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[3].

والدَّليلُ علَى مَوتِه ﷺ قَولُـه تعـالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[4].

---

(١) أخرجَه أبُو داودَ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٤٧٩)، من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) سُورةُ الأعْرافِ، الآيَـةُ (١٥٨).

(٣) سُورةُ المائِـدةِ، الآيَـة (٣).

(٤) سُورةُ الزُّمَر.

والنَّـاسُ إِذَا ماتُـوا يُبْـعَـثُونَ؛ والدَّليـــلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[1]، وقَوْلُـــهُ تعــالَى: ﴿﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[2].

وبَعْدَ البَعْثِ مُحاسَبُونَ ومَـجْزِيُّــونَ بِأَعْمالِــهِمْ؛ و الـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[3].

ومَنْ كَـذَّبَ بِالبَعْثِ كَـفَرَ؛ والـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[4].

وأَرْسَــلَ اللهُ جميـعَ الرُّسُـلِ مُبَشِّرِيـنَ ومُنْــذِرِينَ؛ والـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[5].

وأَوَّلُـهُمْ نُوحٌ عليه السلام، و آخِـرُهُمْ محمَّــدٌ ﷺ، والدَّليــلُ عـلَى أَنَّ أَوَّلَــهُمْ نُــوحٌ عليه السلام قَولُــه تعــالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[6].

وكُلُّ أُمَّـةٍ بَعَثَ اللهُ إليها رَسُولًا ـ مِنْ نُوحٍ إِلَى محمَّـدٍ ﷺ ـ يأْمُرُهُمْ بِعِبادةِ

(١) سُورةُ طـٰه.

(٢) سُورةُ نُوحٍ عليه السلام.

(٣) سُورةُ النَّـجْمِ.

(٤) سُورةُ التَّغابُن.

(٥) سُورةُ النِّساءِ، الآيـة (١٦٥).

(٦) سُورةُ النِّساءِ، الآيـة (١٦٣).

اللهِ وَحْدَهُ ويَنْـهَاهُمْ عنْ عِـبادةِ الطَّـاغُوتِ؛ والـدَّليلُ قَولُــه تعـالَى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1].

وافْـتَـرَضَ اللهُ عَـلَى جَميـعِ العِـبَـادِ الكُـفْـرَ بالطَّاغُوتِ و الإِيـمانَ بِـالله، قـالَ ابْنُ القَـيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى: (الطَّاغُوتُ: ما تَجاوَزَ بِه العَـبْدُ حَدَّهُ مِـنْ مَعْبُـودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ) اهـ[2].

والطَّواغِيتُ كَثِـيرُونَ، و رُؤُوسُهمْ خَمسَةٌ: إبْـلِـيسُ لَعَنَه اللهُ، ومَـنْ عُـبِـدَ وهُو راضٍ، ومَنْ دَعا النَّـاسَ إلَى عِبادةِ نَـفْسِه، ومَنِ ادَّعَـى شَيْـئًا مِـن علْـمِ الغَيْبِ، ومَنْ حكَمَ بِغَـيْـرِ ما أَنزَلَ اللهُ.

والـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾[3]، وهٰـــذَا مَعْنَى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وفي الـحدِيثِ: «رأسُ الأَمرِ الإِسْلامُ، وعَمُودُه الصَّلاةُ، و ذِرْوةُ سَنَـامِـهِ الـجِهادُ في سَبيلِ الله»[4].

والله أَعلَمُ، وصَلَّى اللهُ علَى محمَّـدٍ وعلَى آلِه وصَحْبِـهِ وسلَّمَ.

---

(١) سُورةُ النَّحْلِ، الآيَـة (٣٦).

(٢) إعلام الموَقِّعين (٢/ ٩٢ ط ابن الجوزي).

(٣) سُورةُ البَـقرةِ، الآيـة (٢٥٦).

(٤) أخرجَه التِّـرْمِـذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٦١٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبـانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

الشَّرحُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حقَّ الحمد وأعلاه، وأشهد أن لا إلٰـه إلَّا الله وحـده لا شريـك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومـن اهتدى بهداهم إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ..

* قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**الأصلُ الثالثُ: معرفَـةُ نبيِّـكُمْ محمَّـدٍ ﷺ**) الأصـل الأول: (معرفة العبد ربّه) يعني: معبـوده، والأصـل الثَّـاني: (معرفــة ديـن الإسلام بالأدلَّة)، والأصل الثَّالث: (معرفة النَّبيّ محمَّد ﷺ).

والمراد هٰهنا بالمعرفة العلم به على نحو ما أوضحتُ لكـم في الكـلام عـلى الأصل الأول، فـ(**معرفة نبيِّكم محمَّد** ﷺ) معناه: العلم به وبحالـه؛ العلـم بنسبه، وأنّه من العرب، بل من أشرف العرب قبيلةً، وأنَّه كـان في عُمُـره لـه كذا وكذا، نُبِّئ وأُرسل، قام داعيًا يدعو إلى التَّوحيد، ويُنـذر عـن الشِّـرك، وما يتَّصل بذلك من المباحث.

فحـقيقة هٰــذا الأصـل العلـم بـبعض سـيرة النَّبـي ﷺ، وهٰـذا العلـم

متعيِّـنٌ؛ لتكون الشَّهادة بأنَّ محمَّدًا رسـول الله عـنْ علـم ومعرفـة، فإنَّـه إذا قال: (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله) لَوْ قيل له: مـن محمَّـد هٰـذا؟ فلـم يعرفـه كانت شهادته مدخولة؛ ولهٰـذا فإنَّ معرفة هٰـذا الأصـل يكـون بـه الجـواب بتوفيق الله على سؤال القبر الثَّالث؛ ألَا وهو: (من نبيُّك؟)، يشهد المسلم أنّ محمَّدًا رسول الله، لـٰكن هٰذه الشَّهادة يتبعها أنْ يكون عالِـمًا وعارفًا بمحمّـد هٰذا من هو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؟.

* فقال: رَحِمَهُ اللهُ تعالى مُوضِحًا هٰذا الأمر: **(وهو محمَّدٌ بنُ عبـدِ الله بنِ عبـدِ المطَّلبِ بنِ هاشمٍ)**: تسميتُـه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بـ **(محمَّـدٍ)**:

※ قال طائفة من أهل العلم: لم يُسمَّ قبله -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- في العرب أحد بهٰذا الاسم، وإنَّما كانت العرب تسمي أحمـد، و تسـمِّي حَـمْد، وكـلُّ ذلك مشتق من الحمْد؛ يعني رغبة في أن يكون هٰذا الولد مـن ذوي الحمـد، أيْ: ممن يحمده النَّاس على خصاله.

※ وقال آخرون: لا؛ بل العرب تَسَمَّت بمحمَّد، لـٰكن قليل، إمّا اثنان أو ثلاثة، وهٰذا الثّاني صحيح إن صح النّقل عن أهل التَّـاريخ بتسـمية أولئـك النّفر بمحمد، ممن هم في عصره عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أو قبل ذلك بقليل[1].

(محمَّد) معناه: كثير الخصال التي يستحقّ عليها الحمد: [منَ الطَّويلِ]

---

(١) انظُر: «الرَّوضَ الأنُف في شَرْحِ السِّيرةِ النَّبويَّـةِ لِلسُّهَيْـلِيِّ» (٢/ ٩٥ ـ ٩٦ ط دار إحيـاء الـتُّراثِ العَربيِّ بِهامِشِ السِّيرةِ).

.... **فَذو العَرش مَحمودٌ وَهٰـذا مُحَمَّـدُ**(١)

(ذو العرش): الله جلَّ وعلا؛ صفاته وأفعاله وأسماؤه كلُّها يُحمد عليها، يُثنى عليه بها.

وتسمية المولود بـ **(محمَّد)** ـ تسمية جدِّ النَّبيّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ له بـ **(محمَّد)** ـ على رجاء أن يكون من أهل خصال الخير التي يكثر من أجلها حمد النَّاس له عليها، وهٰذا كان، وصار ظاهرًا، فإنَّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ خصاله كلها وصفاته كلها يُحمد عليها؛ لأنَّ خصاله عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ خير، حتَّى ما كان منه قبل البعثة ـ قبل النُّبوءة وقبل الرِّسالة ـ فقد كان كثير صفات الخير.

فإذن التَّسمية بـ **(محمَّد)** تسمية من قبيل التَّفاؤل، كانت العرب تعرف ذلك؛ كانوا يسمون **(خالدًا)** تفاؤلًا بأن يكون من أهل الـمُكث الطويل في الدنيا؛ يعني: من أهل الأعمار الطويلة، كانوا يسمون **(عاصيًا)** تفاؤلا بأن يكون على أعدائهم من ذوي العصيان، كانوا يسمون **(صَخرًا)** ليكون

---

(١)لأبي طالب عم الرَّسول ﷺ وتمامُه:

وَشَقَّ لَـهُ مِنْ إِسمِهِ لِـيُجِلَّـهُ فَذو العَرشِ مَحمودٌ وَهَذا مُحَـمَّدُ

ويُنْسَبُ إِلَى حسّان بن ثابت ﷺ كما في دِيوانِه (٧٨ بِشَرْحِ البَرْقُوقي ط ١٣٤٧) لكنَّ الأوْلَى أنْ يُقالَ كما قالَ الشَّارِحُ أنَّه تَضْمينٌ لبيْتِ أبي طالبٍ، وكذا ضَمَّنهُ في شِعْرِه غيرُه، ويُرْوَى (شَقَّ لَـه) مِنْ غيرِ واوٍ على أنَّ فيه (خرمًا) أيْ: حذْفُ حرْفٍ منْ أوَّلِه، وهُو نادِرٌ، والهمزةُ في (إِسْمِه) قُطِعتْ لِضَرُورةِ الوَزْنِ.

شديدا كالصخر على أعدائهم.. وهكذا.

فكثير من العرب إذا سموا رأوا المعنى، وتسمية النَّبيّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لُحِظَ فيها ذلك على رجاء أن يكون عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كثير الصِّفات التي يُحمد عليها، وكان ما أمّله جده في تسميته بمحمَّد؛ فأعظم ذلك أنه كان عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ رسولا منَبَّئًا من عند الله جلَّ وعلا[1].

(**محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم**) القرشي، وقريش أفضل العرب وصفوتهم، فأفضل قبائل العرب قريشٌ؛ وهٰذا كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله اصطفى قريشًا من كِنانة**»[2]، وأفضل قريش بنو هاشم، وأفضل بني هاشم محمَّدٌ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فكما جاء في الحديث الصحيح قال بعد ذلك: «**فأنا خيار من خيار من خيار**»[3].

(١) وهذِه الصِّيغةُ تدُلُّ أيْضًا علَى تكَرُّرِ الفِعْلِ، فهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ محمُودٌ مرَّةً بَعدَ مرَّةً، وذلكَ دالٌّ على كثرةِ حامِديه ومُسْتلْزِمٌ كثرةَ مُوجِباتِ الحمدِ فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وانظُر: جلاءَ الأفهامِ لِابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ (٢٧٧ ـ ٢٧٨ و٢٨٤ و٢٩٩ ط ابن الجوزي).

(٢) مسلم (ح٢٢٧٦) منْ حديثِ واثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتمامه: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

(٣) منْ حديثِ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رواه الطبراني في الكبير (ح١٣٦٥٠) والأوسط (ح٦١٨٢) منْ طريقِ حمَّادِ بْنِ واقِد عنْ محمَّدِ بْنِ ذَكوانَ، وقالَ: (.. **لا يُرْوَى عنْ ابْنِ عُمرَ إلَّا بهذَا الإسْنادِ**) اهـ، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٥): (**فيه حمَّاد بن واقد ؛ وهو ضعيف يُعتبر به، وبقِيَّةُ رِجالِه وُثِّقُوا**) اهـ، وفيه نظرٌ كما يأتي، وحسَّنهُ ابن حجر في الأمالي المطلقة (٦٨ ـ ٦٩ ط المكتب الإسلامي) وقالَ: (**حماد بن واقد ضَعيفٌ ولم ينفرد به ؛ فقد رواه معه عبد الله بن بكر السهميُّ وهو من رجال**

=

* **(قريش من العرب)**: والمراد بالعرب: العرب المستعربة؛ لأنَّ العرب قسمان عند أهل النَّسب:

* **عرب عاربة**: وهؤلاء انقرضوا إلّا قحطان في اليمن.

* **وعرب مستعرِبة**: وهم الذين لم يكونوا أصلا من العرب، لكنَّهم دخلوا وصاروا عربًا بانفتاق لسانهم عن العربية، وبتكلُّمهم بالعربية.

وأكثر قبائل العرب من هٰذا الجنس؛ العرب المستعربة وهم العرب، وقد جاء في الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قال: « **أوَّل من فُتِق لسانُه بالعربيَّة الفُصحى إسماعيل** عليه السلام »[1]، وذلك ـ كما هو معلوم ـ أنَّ

=

الصَّحيحين وأما شيخهما محمد بن ذكوان فمختلف فيه فحديثه حسن في الجملة، لأنَّه لمْ يُطْعنْ فيه بقادحٍ) اهـ، وعلَّقَ محقِّقُه الشَّيخ حمدِي السَّلفيُّ علَى هذَا بقَوْلِه: (**هذا عجيبٌ منَ المؤَلِّفِ الحافِظِ حيثُ ضَعَّفَ محمَّدًا بْنَ ذَكوانٍ في تَقريبِ التَّهذِيبِ**) اهـ، وأخرجَه الحاكِمُ (ح٦٩٥٣ و ٦٩٥٤) وغيرُه عنْ حمَّادٍ وغيْرِه منْ طريقِ ابْنِ ذَكوانٍ أيْضًا، وقدْ أوْرَدَه ابْنُ أبي حاتِمٍ في العِلَلِ (٦/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢ ح٢٦١٧ ط الجريسي) ونقلَ عنْ أبيه قَولَه: (**حديثٌ مُنكَرٌ**) وكذا قالَ الذَّهبيُّ في العُلُوِّ (ح٢٦) ؛ وضَعَّفَهُ الشَّيخُ الألبانيُّ في الضَّعيفةِ (ح٣٠٣٨).

(١) أوْردَه السُّيُوطيُّ في الجامعِ الصَّغيرِ ورمزَ لَه بِالحسْنِ وذكرَ تخرِيجَ الشِّيرازِيِّ لَه في الألقابِ عنْ عليٍّ رضي الله عنه، و زادَ شَارِحُهُ الزُّبير ابْنَ بكَّارٍ في النَّسبِ عنهُ كذلكَ، والدَّيلميَّ والطَّبرانيَّ عنْ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وحسَّنَ الحافِظُ إسْنادَ الزُّبيرِ في الفَتحِ (٦/ ٤٨٨ ط دار الحديث)، وصحَّحَه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٨١)، وعندَ الحاكمِ (ح٤٠٢٩): «**أوَّلَ منْ نطقَ بِالعَربيَّةِ إسْماعيلُ عليه السَّلامُ**» وفيه عبد العزيز بْنُ عمران، قالَ الذَّهبيُّ: (**واهٍ**) اهـ، وفي البُخارِيِّ (ح٣٣٦٤) أنَّه تعلَّمَ

=

إسماعيل لما أتى به أبوه إبراهيم وأتى بأمِّه وجعله في مكة ناسب العرب فصار مُلْهَمًا من عند الله جلَّ وعلا بالانفتاق؛ بانفتاق اللِّسان عن العربية الفصحى، وهٰذا كما جاء في الحديث، معَ أن كثيرًا من أهل النَّسب ينازعون في هٰذا الأخير.

* قال: (**والعربُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ**) يعني: أن قبائل العرب ـ القبائل المعروفة: قريش وهذيل، بنو تميم، بنو دوس إلى آخره أنَّ هؤلاء جميعا ـ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

النَّسَّابون يصلون بالنسب تارات بأنساب القبائل إلى إسماعيل، ولكن المعروف عند العرب في عهد النَّبي ﷺ وقبله أنهم يمكنهم وصل أنسابهم إلى عدنان، وأمَّا بعد ذلك إلى إسماعيل فإنَّ ذلِكَ لا يثبت ولا يمكن التَّصديق به.

العرب كثِيرون، فالنبي علَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بُعث من العرب كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: من جنسكم، من قبائلكم، من جنسكم العربي ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[1]، وقال جلَّ وعلا: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا**

=
العربيَّةَ منْ جُرْهمٍ، ووفَّقَ الحافِظُ بينَ هذِه الأخبارِ بأنَّ الأوَّلِيَّةَ مُقَيَّدةٌ بِالفَصَاحةِ والبَيانِ كما في الحديثِ الذي ذكره الشيخ، وانظُر الفَتحَ في الموضِعِ المشارِ إليه.

(١) سُورةُ التَّوبَة، الآيَة (١٢٨).

﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[1]، ونحو ذلك من الآيات.

فإذن النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ابنٌ لعبد الله وهو والده الأدنى، وابنٌ لإسماعيل بن إبراهيم وهو والده الأعلى، وهٰذان ـ وهما عبد الله وإسماعيل ـ هما الذَّبيحان؛ فقد جاء في حديثٍ ضعيف السَّند لكنه صحيح المعنى أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: «**أنا ابن الذَّبِيحَين**»، المراد بالذَّبيحين: عبد الله لأنه كما تعلمون قصة أبِيه لما استقسم فنَذر أن يذبح إن خرج.... فكانَ منَ النَّذر أن يذبح ولده، ثم حصل قصة ما هو معروف فصار ذبيحا، يعني قد كاد أن يذبح.[2]

إسماعيل: كذلك، فهو الذي جاء فيه قول الله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وهٰذا هو الصَّحيح، فإنَّ الابن الذي استسلم لأبيه صابرًا محتسبًا مطيعًا لأبيه ومطيعًا لربِّه جلَّ وعلا هو إسماعيل أبو العرب.

واليهود تزعم أنَّ الذَّبيح هو إسحاق، وهٰذا باطل؛ ذلك لأنَّ الله جلَّ وعلا قال في سورة الصَّافات هٰذه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾، فوصف هٰذا الابن بأنَّه حليم، وهٰذا الوصف بالحلم في القرآن لإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمَّا إسحاق فإنه يوصف بأنه عليم؛ قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ هٰذا من

(١) سُورةُ آلِ عِمرانَ، الآيـة (١٦٤).

(٢) القِصَّةُ في السِّيرةِ (٢/ ٨٤ ـ ٨٨ معَ شَرحِ السُّهيليِّ).

صفة إسماعيل، ولهٰذا في هٰذه الآيات بعدها قال: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ فذكر إسحاق بعد ذلك، فالصَّحيح أنَّ النَّبي ﷺ هو ابن الذَّبيح عبد الله والده الأدنى، وهو ابن الذَّبيح إسماعيل والده الأعلى.

وأمَّا القول بأنَّ الذَّبيح إسحاق فإن هٰذا باطل، وإنَّما دسّه اليهود في المسلمين حتى كثُر في كتب التفسير؛ حتى يأخذوا هٰذا الفخر وهو أنَّ إسحاق عليه السلام هو الذي صبر واحتسب واستسلم وابتُلي بهٰذا البلاء العظيم[1].

قال: (**والعربُ مِنْ ذرّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليْهِ وعلى نبيّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسّلامِ**): الخليل هو إبراهيم كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾[2]، ووُصف بالخُلَّة إبراهيم ونبيّنا محمَّد ﷺ[3]، فإبراهيم هو خليل الله، وموسى كليم الله، وأمّا محمد عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ نبيُّنا فإنه اجتمع فيه الوصفان اللَّذان خُصَّ بهما إبراهيم وموسى، فهو خليل الله كما أن إبراهيم خليل الله، وهو كليم الله كما أنَّ موسى كليم الله، كلّمه الله جلَّ وعلا

(١) انظر: مجمُوعَ فتاوي شَيخِ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٦)؛ فإنَّه مهمٌّ.

(٢) سُورةُ النِّساءِ.

(٣) كما في الحديثِ عندَ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللهُ (ح٥٣٢): «فإنَّ اللهَ قدِ اتَّخذَني خلِيلًا كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلًا» عليه السَّلامُ، من حديث جندب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ليلة المعراج.

* قال هنا: : (**وله مِنَ العُمُرِ ثلاثٌ وسِتُّونَ سنَـةً**) يعني: من مبدأ ميلاده إلى وفاته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عمره ثلاث وستون سنة، وُلد عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عام الفيل، العام المعروف، وعاش أربعين سنة، ثم بعد ذلك نُبئ، وبعدها أُرسل، ولما مضى عليه بعد ذلك عشر سنين عُرج به كما ذكر، وبعد ذلك بثلاث سنين ترك مكة إلى المدينة مهاجرًا، فصار عمره إذن حين الهجرة ثلاثًا وخمسين سنة، ومكث في المدينة عشْرة أعوام وأشهر، وصار عمره ثلاثا وستين سنة عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* فصَّل ذلك فقال: (**منها أربعون قبل النُّبُـوَّةِ**) النبوّة تسبق الرِّسالة (**أربعون قبل النُّبُـوَّةِ، وثلاثٌ وعشْـرون نبِـيًّا رسـولًا**) قال بعض أهل العلم: إنَّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مكث ثلاث سنين نبيًّا، ثم عشرون سنة نبيًّا رسولًا، لأنَّه كما قال الشَّيخ هنا: (**نُـبِّئَ بِـ: اقرأ، وأُرْسِلَ بِـ: المدّثر**).

قال: (**أربعون قبل النُّبُوَّةِ**) ثم قال: (**نُـبِّئَ**) وهٰذان لفظان مختلفان، الأول: (**النُّبوة**)، **والثاني**: قال: (**نُـبِّئَ**)؛ **نبئ** من النبوءة بالهمز، ونُـبِّيَ من النبوة، وفرق بين النُّبوة والنُّبوءة، وفرق بين النَّبيِّ والنَّبيء لغة، أما من حيث الشرع فالنَّبي والنَّبيء واحد، وهما قراءتان مشهورتان سبعيتان متواترتان في القرآن كله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، القراءة الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[1] (1)، ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والقراءة الأخرى:

(١) سُورةُ التَّحْرِيمِ، الآيَـة (١).

﴿والنَّبِيئِينَ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيءُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾[2] قراءتان مشهورتان، أشهر من يقرأ بـ (**النَّبيّ**) عاصم وأشهر من يقرأ بـ (**النَّبيء**) نافع.

النُّبوة من الارتفاع، كأنَّه صار في نَبْوَة من المكان، يعني: في مرتفع منه، وسبب هٰذا الارتفاع الإنباء، والنُّبوءة من الإنباء؛ أنبأه فصار نبيئا، يعني: منبَّئًا قال: (**نُبِّئَ بـ اقرأ**) هٰذا من الإنباء، (**نُبِّي بـ اقرأ**) لا يصلح؛ لأنّ (نبي) من الارتفاع، ليستْ من الإنباء والإخبار والإيحاء، (نبي) من الارتفاع فيقال: نبوة وإذا أردت الفعل تقول (**نبئ**) (**أنبئ**)؛ لأنّه من الإنباء.

فإذن نقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، (**السَّلام على النَّبيّ ورحمة الله وبركاته**)، (**السَّلام عليك أيُّها النَّبيّ ورحمة الله وبركاته**)[3]؛ لأنَّه صار مرتفعًا عن غيره من أهل الأرض بما أوحى الله جلَّ وعلا إليه، أو (**النبوءة**)

وهي التي هنا قال: (**نُبِّئَ**) بمعنى: أوحي إليه منبّئا به، (**نُبِّئَ بـ: اقرأ**)، قبل

---

(١) سُورةُ النِّساءِ، الآيَة (١٦٣).

(٢) سُورةُ الأحزابِ، الآيَة (١).

(٣) صِيغتانِ في التَّشَهُّدِ أخرجَهما البُخاريُّ منْ حديثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ح٦٢٦٥)؛ الثَّانيَةُ من تعليمِ النَّبيِّ ﷺ له، والأولَى قالَ: (**فلمَّا قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ قُلْنا: السَّلامُ علَى النَّبيِّ**)، وأخرجَ الثَّانيَةَ مُسْلِمٌ أَيْضًا منْ حديثِ ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (ح٤٠٣) ومنْ حديثِ أبي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ح٤٠٤)، ورجَّحَ العُلماءُ الصِّيغةَ الثَّانيَةَ لِتَوْقيفها وقالُوا عنِ الأُولَى: إنَّها منِ اجْتِهادِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وانظُر فتاوي اللَّجنةِ الدَّائِمةِ (٧/ ١١ ـ ١٣).

ذلك قال: (**ثلاثٌ وعشرون نبِـيًّا رسولًا**) يريد: بعضا منها نبيا، وبعضا منها نبيا رسولا.

مرّ معنا الفرق بين النَّبي والرَّسول[1]، وأنَّ النَّبي هو: (من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، أو أمر بتبليغه لقوم موافقين)، معلوم أنه إذا قلنا (**لم يؤمر بتبليغه**) أن هٰذا على سبيل الوجوب؛ لكن قد يبلغ ولا يكون التبليغ واجبا عليه، فالنّبي هو: (من أوحي إليه بشرع) يعني: بدين (وأمر بتبليغه أو لم يؤمر بتبليغه) إذا قلنا (لم يؤمر بتبليغه) يعني: وجوبًا، وقد يبلغ ذلك استحبابا؛ فالنَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قبل أن يرسل بـ (**المدثر**) بلّغ ما أوحى الله جلَّ وعلا إليه، بلَّغه خاصته كأبي بكر وكخديجة، ونحو ذلك، وهٰذا التبليغ على التعريف ليس على سبيل الوجوب، بل هٰذا من جهة الاستحباب، لأنَّ هٰذه فترة النبوة، فإذا كان تعريف النَّبي هو (**من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه**) يعني: وجوبًا (**أو أمر بتبليغه لقوم موافقين**) فإنه يكون تبليغه فيما لو بلغ يكون على وجه الاستحباب، ليس على وجه المطالبة من الله جلَّ وعلا له بذلك.

وقد يطالَب؛ يؤمر بتبليغه، فإذا أُمر بتبليغه لقوم يخالفونه، لقوم مشركين، فإنَّه يكون ذلك الأمر إرسالًا، ولهٰذا قال: (**نُبِّئَ بِـ اقرأ**)؛ قال جلَّ وعلا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ كما هو معروف

---

(١) انظر تفصيل ذلك ص (٤٠).

في حديث عائشة المشهور الَّـذي في أوَّلِ الصَّـحيحِ أنها قالـت[1]: (**أوَّل مـا بُـدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة؛ فكـان لا يـرى رؤيـا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يتحنَّث؛ أي يتعبد اللَّيـالي ذوات العدد**) وساقت خبر إتيانه بالوحي، ورجوعه إلى خديجة، وما حصـل في ذلك.

فـ (**نُـبِّئَ بِـ اقرأ**) جاءه الوحي، فقال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»؛ ظنّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أنَّ جبريل يريد منهُ أن يقرأ شيئا مكتوبـا فقال: «**ما أنا بقارئ**» يعني: لستُ من أهل القراءة؛ خلافًا لما قد يظـن أو مـا حمل عليه بعضهم أن قوله: «**ما أنا بقارئ**» يعني: لن أقـرأ؛ ولم يـرفض هٰـذا الطلب عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لٰـكن قال: «**ما أنا بقارئ**» يعني: لسـت بقـارئ، لست من أهل القراءة، لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فقال لـه مرة أخرى: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»، ثم جاءه في الأخيرة ككل مـرة غطّـه ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾، فنزل بهـا رسـول الله ﷺ مـن غـار حـراء الـذي كـان يتحنَّث فيه يرجف بها فؤادُه حتى أتى خديجة فقصّ عليها الخبر؛ فقالت لـه: (**كلَّا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمل الكَلّ، وتعين على نوائـب الـدَّهر، وتصل الرحم**) أو كما قالت.

ثم قالت لورقة بن نوفل ما قالـه لها عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وقصَّ عليه عَلَيْـه

---

(١) أخرجَه البخاري: (ح ٣).

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الخبر، فقال: (هٰذا والله هو النَّاموس الذي كان يأتي موسى) **الناموس** يعني: الملَك، الوحي (الذي كان يأتي موسى، ليتني كنت فيها) يعني: في مكة (حيًّا إذ يخرجك قومُك) فقال: «**أوَ مخرجيَّ هُم؟**» قال: (لم يأتِ أحد بمثل ما جئت به إلا عُودي) فما لبث ورقة أن توفي وفتر الوَحي، أو كما جاء في الحديث، حديث عائشة المعروف المخرَّج في الصَّحيحين، وهو في أوائل صحيح البخاري.

(**نُبِّئَ بـ اقرأ**) فمكث فيها مدَّة، وهٰذه المدة فتر فيها الوحي، ثم بعد ذلك (**أُرسل بالمدثر**) أنزل الله جلَّ وعلا عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾؛ فصار الواجب هنا الإنذار، والإنذار يكون ـ كما سيأتي ـ لقوم وقعوا في شيء يُنذرون عنه، فصار هٰذا علامة على الرِّسالة، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾؛ أنذر من؟ جاء مبيّنا في الآية الأخرى حيث قال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾[1]، هٰذه كانت بداية الإرسال وبداية إنذاره عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، (**وأُرْسِلَ بـ المدّثر**) أرسل يعني: صار رسولًا بنزول أوَّل سورة المدثر عليه.

* (**وبلَدُهُ مكّةُ**) هو من أهل مكة عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ وقد كان يقول في مكَّة: «**إنَّكِ لأحبُّ بلاد الله إليَّ ولولا أنَّ قومك أخرجوني ما خرجتُ منك**»[2]، (**بلده مكة**) وكان عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يحبها، وذَكَرَ لما هاجر إلى

---

(١) سُورةُ الشُّعَراءِ.

(٢) «مستدرك الحاكم» (ح ١٨٢٣) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في «التلخيص».

المدينة أو قبل ذلك ـ الوَهمُ منِّي الآن ـ قال: «**إنِّي لأعرف حجرًا بمكَّة ما لقيته إلا سلَّم عليَّ**»[1]؛ كانت أحجار مكة تحبُّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وهٰذا الحجر بخصوصه أنطقه الله بالسَّلام عليه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، قال: «**إنِّي لأعرف حجرًا بمكَّة ما مررت عليه إلَّا سلَّم عليَّ**» يعني بصريح السَّلام: السَّلام عليك يا رسول الله.

(**وبلدُهُ مكّةُ**) وهٰذه البلد هي التي نُبئ فيها، وهي الَّتي أُرسل فيها، وهي التي بها عشيرته وقومه وأهله وقرابته.

* وبعَثَه الله جلَّ وعلا يُنْذر ويُبَشِّر؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، أوضح الشَّيخ هنا قال: (**وبعثَهُ اللهُ بالنَّذَارَةِ**) أوْ بالنِّذَارةِ (**عنِ الشِّرْكِ، ويدعُو إلى التَّوحيدِ**)، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ ينذر عن أيِّ شيء؟ ينذر عن الشِّرك، يخوّف، **الإنذار**: **إعلامٌ فِيه تخويف عن شيء يُمكن تداركه**، لٰكن وقت تداركه يطول، بخلاف الإشعار؛ فهناك عندنا ثلاثة ألفاظ: **إعلام، إنْذار، إشعار**:

* **الإعلام**: مجرَّد إيصال العلم؛ خبر.
* **الإنذار**: إعلام فيه تخويف، وهناك فترة يمكن تصحيحها.
* **الإشعار**: إعلام فيه تخويف، لٰكن مدَّة استدراكه قليلة، كما قال الشَّاعر: [منَ الكاملِ]

---

(١) أخرجَه مسلم رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أَنْـذرتَ عَمْـرًا وهْوَ في مَهَـلٍ قبل الصَّباح فقد عصى عمرُو [1]

فدلَّ على أنَّ الإنذار يكون بعده مـدَّة يمكـن الاسـتدراك بهـا، **يُنـذر عـن الشِّرك**، أيضًا يخوِّف من النَّار، يخوِّف من عذاب الله، يخوِّف مـن سـخط الله كـما قـال جـلَّ وعـلا: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[2]؛ فإذًا الإنذار يكون عن الشِّرك وعمَّا يكون عقابًا لأهل الشِّرك مـن أنواع العقوبـات: في الـدُّنيا بـالهلاك والاستئصـال، وفي الآخـرة بالعـذاب والنَّكال.

(**بعثَـهُ اللهُ بالنَّـذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيـدِ**) الإنذار والنَّهي عن الشِّرك مقدَّم هنا، قدَّمه على الدَّعوة إلى التَّوحيد، وهٰذا التَّقديم هـو المفهـوم من كلمة التَّوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾﴾ ؛ ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾﴾ يعني: أنذر عـن الشِّـرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾﴾ كما سيأتي معناه أنَّ معناه: عظِّمه بالتَّوحيد، فإذن قال: (**بالنَّـذَارَةِ عنِ الشِّركِ، ويدعُو إلى التَّوحيـدِ**)؛ هو معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ذكر العلماءُ أنَّ ثَمَّ مناسبة هٰهنا وهي: أنَّ الإنذار عن الشِّرك هٰذا فيه تخلية، والـدَّعوة إلى التَّوحيـد تحليـة، **ومـن القواعـد المقـرَّرة أنَّ التَّخْلِيَـة تسـبق التَّحْلِيَـة**، لهٰذا النَّهي عن الشِّرك والإنذار عـن الشِّـرك إخـراج لكـلِّ مـا يتعلَّق به القلب؛ كأنَّه قال: لا يتعلَّق القلب بأيِّ أحد من هٰذه الآلهـة، ثـم إذا

---

(١) أوْردَه القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِه (١/ ٢٣١ ط دار الكتاب العربي) دُونَ نِسْبَـةٍ.

(٢) سُورةُ فُصِّلَتْ.

خلا القلب من التَّعلُّق بأحد أمره بأن يتعلق بالله -جلَّ وعلا- وحده دون ما سواه.

* قال هنا: (**والدَّلِيلُ قَوْلُه تعالَى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾): ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ هو: المتغطِّي؛ المُتدثر بأغطيته وأكسيته وملابسه أو نحو ذلك، قال: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ هٰذا للوجوب.

* قال الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ: (**ومعنى** ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾: **يُنْذِرُ عنِ الشِّركِ ويدعُو إلى التَّوحيدِ،** ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) يعني: أن قوله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ معناه: خُصَّ ربَّك بالتَّكبير؛ لأنَّه قدَّم المفعول، أصل الكلام: كَبِّر ربَّك، فقدَّم المفعول على العامل فيه ـ وهو الفعل ـ فدلَّ على الاختصاص، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

قال الشَّيخ معنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾: (**أي: عظّمه بالتَّوحيد**) وهٰذه لاشكَّ من الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى من العلم الغزير العظيم الذي يحتاج إلى إيضاح وبسط؛ ذلك أنَّ التَّكبير جاء في القرآن وله خمسة موارد:

* [**الأَوَّلُ**]: فتكبير الله جلَّ وعلا يكون في ربوبيته، يعني: اعتقاد أنَّه أكبر من كلِّ شيء يُرى أو يُتوهَّم أو يُتصوَّر أنَّه موجود، هو أكبر من كلِّ شيء في ربوبيَّته، في ملكه، في تصريفه لأمره، في خلقه، في رَزقه، في إحيائه، في إماتته، إلى آخر معاني الرُّبوبيَّة، هٰذا الأوَّل، قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾[1]؛ (**الله أكبر**) يشمل هٰذا المعنى ويشمل غيره من معاني التَّكبير التي

---

(١) سُورةُ الإِسْراءِ.

ستأتي؛ إذن قوله هنا: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يدخل فيه أوَّلا: اعتقاد أنَّ الله -جلَّ وعلا- أكبر من كلِّ شيء في مقتضيات ربوبيَّته.

❋ **الثاني**: أنَّ الله -جلَّ وعلا- أكبر من كلِّ شيء في استحقاقه الإلٰهية والعبادة وحده دونما سواه، فإنَّ العبادة صُرفت لغير الله، وهو جلَّ وعلا أكبر وأعظم وأجلُّ من كلِّ هٰذه الآلهة التي صُرفت لها أنواع من العبادة، فالتّكبير يرجع إلى الرُّبوبيَّة وهو الأوَّل، وهٰذا التَّكبير يرجع إلى استحقاقه للإلٰهية.

❋ وتكبيرٌ ـ وهو **الثَّالث** ـ: اعتقاد ـ كما قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ ـ أنَّ ربَّك أكبر من كلِّ شيء في أسمائه وصفاته:

- فإنَّه في أسمائه أكبر من كلِّ ذوي الأسماء؛ الأشياء لها أسماء، لٰكن أسماء الله -جلَّ وعلا- أكبر من ذلك، **(أكبر)** يرجع الكبر هنا لأيِّ شيء؟ لما فيها من الحسن والبهاء والعظمة والجلال والجمال ونحو ذلك.

- وكذلك في الصِّفات: فصفاته عُلا، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] يعني: له الاسم الأعلى، وله النَّعت الأعلى، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ

(١) سُورةُ الرُّوم، الآية (٢٧).

(٢) سُورةُ النَّحلِ، الآية (٦٠).

سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[1]، ونحو ذلك، فهو -جلَّ وعلا- أكبر من كـل شيء في أسـمائه وصفاته.

❊ [**الرَّابعُ**]: كذلك قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ يعنـي: في قضـائه وقَـدَره الكوني، فالله -جلَّ وعلا- في قضائه وقَدَره الكوني أكـبر؛ يعنـي: أنَّ قضـاءه وقدره له فيه الحكمة البالغة، وأمَّا ما يقضيه ويُقَدِّره العباد لأنفسهم ـ يقـدّر الأمر بنفسه، ويفعل الأمر لنفسه ـ فإنَّ هٰذا يناسب نَقص العبد، والله -جـلَّ وعلا- في قضائه وقدره فيما يُحدثه في كونه فهو أكبر.

❊ **الأخير**: تكبِـير الله -جلَّ وعلا- في شرعه وأمره.

قال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾؛ تدخل فيها هٰذه الخمسة، الأخير يعنـي: اعتقـاد أنَّ الله -جلَّ وعلا- أكبر فيما أمر به ونهى وفيما أنزله مـن هٰـذا القـرآن العظـيم أكبر وأعظم من كلّ ما يشرعه العباد، أو يحكم بـه العبـاد، أو يـأمر العبـاد بـه وينهون عنه، ولهٰـذا صارت هٰذه الكلمة (**الله أكـبر**) مـن شـعارات المسـلمين العظيمة، يدخلون في الصَّلاة بها، ويردّدونها في الصَّـلاة، وهـي مـن الأوامـر الأولى التي جاءت للنَّبيّ -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-، قال تعـالى لـه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾.

إذا لَـحَظْتَ هٰذه المعاني الخمسة، وكلٌّ واحـدة منهـا لهـا أدلَّـة كثـيرة مـن القرآن، تدبّر وأنتَ تقرأ القرآنَ الآيـات التـي فيهـا ذكـر تكبـير الله تجـد أنَّ بعضها فيه ذكر الرُّبوبية، وبعض الآيات فيه ذكر الألوهية، وبعضها فيه ذكر

---

(١) سُورةُ مريمَ، الآية (٦٥).

الأسماء والصِّفات، وبعضها فيه ذكر قضاء الله الكوني؛ أفعال الله جلَّ وعلا، وبعضها فيه شرع الله جلَّ وعلا، إذا اجتمعت هٰذه الخمس رأيت أنَّ هٰذا التَّفسير من أحسن وأعظم ما يكون.

قال: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)؛ إذا اجتَمَعت هٰذه الـخمس في الفهم صَارَ (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**)؛ لأنَّ معاني التَّكبير هي معاني التَّعظيم، وتلك المتعلَّقات هي التَّوحيد بأنواعه، فصار تفسير الشَّيخ هنا لِقوله: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ **أي: عَظِّمْهُ بالتَّوحيدِ**) وهو من التَّفاسير المنقولة عن السَّلف أنَّه صار هٰهنا اختيارًا مناسبًا ملائمًا واضح الدِّلالة.

* قال بعدها: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ عنِ الشِّركِ**) فسّر الثِّياب بالعمل، الثَّوب أصله في اللُّغة ما يَثُوبُ إلى صاحبه، يعني: ما يرجع إلى صاحبه، سُمِّي اللِّباس ـ سواء كان قميصًا أو إزارًا أو كان سراويلًا أو نحو ذلك، أو كانت عمامة ـ يسمَّى ثوبًا؛ لأنَّه يرجع إلى صاحبه بِالتباسه به حال لُبْسِهِ، هٰذا أصل الثَّوب، ولهٰذا يقال للعمل أيضا: ثوب، وتجمع على ثياب، باعتبار أنَّه يرجع إلى صاحبه، لهٰذا فَسَّرَ قوله تعالى هنا: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ **أي: طَهِّرْ أعمالَكَ**) فسَّر الثِّياب بالأعمال؛ لأنَّها راجعة إلى صاحبها باعتبار أصلها اللُّغوي.

أو يقال: إنّ العمل مشبَّه بالثَّوب لملازمته لصَاحبه، فالثَّوب يلازم لابسه والعمل كذلك يلازم عامله، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ

﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾[1]، الطَّائر: هو ما يطير عنه من العمل من خير أو شر، أُلزم به، صار ملازمًا له كملازمة ثوبه له.

هنا اختار الشَّيخ أحد التَّفسيرين المنقولين عن السَّلف، وهو أنَّ معنى (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: **طَهِّرْ أعمالَكَ عنِ الشِّركِ**).

وفُسّرت بـ: طهّر ثيابك من النَّجاسات.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾: هٰذا التَّفسير الأعم أنسب هٰهنا، لأنَّه يناسب ما قبله وما بعده؛ فإنَّ ما قبله فيه الإنذار وتعظيم الله بالتَّوحيد، وما بعْده فِيه تركٌ للرُّجْزِ وهجْرٌ للأصنام والبراءة منها، بقي قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ فاتِّساق الكلام وكونه جميعًا جاء بمعنى مترابط يقضي بأن يُختار تفسيرُ الثِّياب بالأعمال؛ لأنَّ ما قبله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: يُنذر عن الشِّرك ويدعو إلى التَّوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾: عظِّمه بالتَّوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، ثم قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ التي هي الأصْنام والأوثان اتركها وتبرَّأ منها، صار الجميعُ في البراءة من الشّرك، والبُعد عن الشّرك، والنَّهي عنه، والدَّعوة والالتزام بالتَّوحيد، بقي قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ لها تفسيران؛ تفسير للثِّياب بالثِّياب المعروفة؛ ثيابك طهِّرها من النَّجاسَة، أو ثِيابك التي هي الأعمال طهِّرها من الشِّرك، فصار الأنسب للسِّيَاق أن يُفَسَّرَ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ بـ: طهِّر أعمالك من الشِّرك.

وهٰذا مما يعتَني به المحقِّقون من المفسِّرين، أنهم يختارون في التَّفسيرِ

---

(١) سُورةُ الإسْراءِ، الآيَة (١٣).

التَّفسيرَ الذي يناسب السِّياق، يناسب ما بعده وما قبله، واللُّغة لها محامل كثيرة، ولهٰذا اختلف السَّلف في تفسيراتهم.

* قال: (﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ **الرُّجْزُ: الأصنامُ، وهجرُها: تَرْكُها وأهلِها والبراءَةُ منها وأهلِها**) يعني: ترك الأصنام، وترك أهلها، والبراءة من الأصنام، والبراءة من أهلها.

قال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ الرّجز: اسم عام لما يعبد من دون الله، قد يكون صنمًا، وقد يكون وثنًا، قال هٰهنا: (**الرُّجْزُ: الأصنَامُ**) يعني أنَّ قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ أي: الأصنامَ اتْرُكْ، ويلزم من ذلك أن يترك أهلها ويتبرأ منها ومن أهلها.

(**الرُّجْزُ: الأصنامُ**) الأصنام: جمع صنم، والصَّنم: اسم لما عُبِد من دون الله مما كان على هيئة صورة، عند كثير من العُلماء، يعني: الصَّنم يكون مصوَّرًا على هيئة صورة: صورة كوكب، أو صورة جني، أو صورة شجرة، أو صورة آدمي، أو صورة نبي، أو صورة صالح، أو طالح، أو صورة حيوان؛ أن يكون على هيئة صورة، فإذا كان هناك شيء مصنوع على هيئة صورة ـ إما صورة كوكب، أو صورة شيءٍ مما هو على الأرض مما يعبد من دون الله ـ صار صنما، فإن كان ما يعبد من دون الله ليس على هيئة صورة صار اسمه الوثن؛ لهٰذا قال عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**اللَّهمَّ لا تجعل قبري وثَنًا يُعبد**»[1] لا

---

(١) رواه الإمامُ مالِكٌ في الموطإ (ح٤١٦) عنْ عَطاء بْنِ يَسَارٍ مرسلًا، ووَصَلَه ابْنُ عبدِ البَرِّ في التَّمهيدِ (٥/ ١٧٦ ط الفارُوق الحدِيثَة) عنْ أبي سَعيدٍ الخدرِيِّ ﷺ، و رواهُ الإمامُ أحمدُ في المسند منْ =

يصلح (صنمًا يُعبد)؛ لأنَّ القبر لا يكـون عـلى هيئـة مصـوَّرة، قـال: «**وثــنًا يُعْـبَد**»؛ لأنَّ الوثن اسم لما يُعبد مـن دون الله إذا لم يكـن مصـوَّرًا عـلى هيئـة صورة.

قال بعض أهل العلم: الوثن قد يكون أيضًـا عـلى هيئـة صـورة، فيكـون الصَّنم ما له صورة، والوثن يشمل ما كان له صورة وما لم يكن لـه صـورة، وهٰذا هو القول الثَّـاني؛ فيكـون كـل صـنم وثنًـا، ولـيس كـل وثـن صـنما، وأخذوا هٰذا من قوله تعـالى في سـورة العنكبـوت مخـبرًا عـن قـول إبـراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[1]، فحصر قـال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ وقـد بـيَّن جـلَّ وعـلا في آيـات أخـر أنّ إبراهيم سألهم عـن عبـادتهم قـال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾[2]؛ فصار الوثن يشمل الصَّنم وغير الصَّنم.

فهٰذا القول أدقّ وهو الذي أختاره أن الوثن يشمل الصَّنم وغـير الصَّـنم، يعني: ما له صورة مما عُبد من دون الله وما ليس له صورة، وأمَّا الصَّـنم فهـو في الغالب ما كان على هيئة صورة.

قال: (**والرُّجْزُ: الأصنامُ**) ومعلوم أنَّه إذا نهاهم عن عبادة الأصـنام، فإنَّـه

=

حديثِ أبي هُرَيْـرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ح٧٣٥٢ شاكر، و برقم ٧٣٥٨ ط التركي) وحسّن إسـنادَه الشَّـيخُ أحمـد شَاكِر.

(١) الآيَـة (١٧).

(٢) سُورةُ الشُّعراءِ، الآيَـة (٧١)، وهـٰذا الثَّاني قَـرَّرهُ ابْنُ عبـدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ في «التَّمهيـدِ» (٥/ ١٧٧).

بذلك ينهاهم عن عبادة الأوثان، لأنَّ العلَّة فيهما واحدة وهـي: عبـادة غـير الله جلَّ وعلا، (**وهجرُها: تَـرْكُها وأهلِـها والبراءَةُ منها وأهلِها**).

* قال: (**أخذَ على هٰذا عشْرَ سِنينَ، يدعُو إلى التَّوحيـدِ**) يعني بذلك: أنَّـه مكث عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عشر سنين يدعو قومه ويـدعو عشـيرته الأقـربين وجوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1].

يدعو إلى التَّوحيد قبل أن تنزل الفرائض، لم تنزل فريضة الصَّلاة على هٰـذا النَّحو، ولا فريضة الزَّكاة على هٰذا النَّحو، ولا سائر التَّشــريعات عـلى هٰـذا النَّحو، لم تُـحَرَّم الخمر، ولم يُحرَّم الزِّنا، ولم يُحرَّم الرِّبـا في تلـك المـدَّة، وهٰـذا معنى قوله: (**أخَذَ على هٰذا**) يعني: عـلى الـدَّعوة إلى التَّوحيـد والنَّهـي عـن الشِّرك، (**أخذَ على هٰذا**): على الإنذار عن الشِّــرك، والـدَّعوة إلى التَّوحيـد، أخذ عشر سنين يدعو إلى التَّوحيد، مـا كـان يـدعو فيهـا إلى الأعـمال، لا إلى الصَّلاة ولا إلى الزَّكاة مع أنه كان له صلاة في ذلك.

قـال كثِـير من أهل العلم: كانت الصَّلاة المفروضة في العشـر سنين تلـك صلاتين في اليـوم والليلـة، إحـداهما في إقبـال النَّهـار، والأخـرى في إقبـال اللَّيل، يعني: إحداهما الفجر، والثَّانية المغرب؛ وحملـوا عليـه قولـه تعـالى في سـورة طٰـهٰ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[2]، كـذلك قولـه في سـورة ق: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ

(١) سُورةُ الشُّعراءِ.

(٢) الآيَـة (١٣٠).

﴿٣٩﴾، ونحو ذلك من الآيات، أمَّا الصَّلوات الخمس فلم تُفرض إلَّا بعد ذلك.

* قال: (**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السَّماءِ**) كانت الصَّلاة ركعتين، أوَّل النَّهار وآخره، على قول كثير من العلماء، قال: (**وبعدَ العشْرِ عُرِجَ به إلى السَّماءِ**) المعراج معناه الصعود، (**عُرِجَ به إلى السَّماءِ**) يعني: صُعد به إلى السَّماء، ومن أسماء السُّلم والـمِرقاة التي يُرتقى عليها: المعراج، فمعنى المعراج السُّلم الذي يُصعد عليه.

(**عُرِجَ به**) أي: صُعد به، (ليلة المعراج) يعني: اللَّيلة التي صُعد بالنَّبي ﷺ فيها على المعراج يعني على السُّلم، تسمية اللَّيلة بوسيلة الصُّعود وهو المعراج، عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أُسرِيَ به تلك اللَّيلة من مكة إلى بيت المقدس، وبعد ذلك (**عُرِجَ به**)، الدَّابة رُبطت عند بيت المقدس، ثم أخذه جبريل وعَرج به بالمعراج - يعني: بالسُّلم الخاص الذي يصعد عليه - إلى السَّماء.

(**إلى السَّماء**) المقصود بها جنس السَّماء، يعني السَّمٰوات - حتى ارتفع إلى مستوى يسمع فيه صريرَ الأقلام عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، حتى إنَّه قرُب من ربِّه جلَّ وعلا، وكلّمه ربه جلَّ وعلا بدون واسطة، رأى عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ تلك اللَّيلة نور الله جلَّ وعلا، ورأَى الحجاب الذي احتجب الله جلَّ وعلا به عن خلقه فلا يرونه، كما جاء في الحديث الصحيح: أنّ النَّبيّ ﷺ سُئِل: هل رأيت ربَّك؟ - يعني ليلة المعراج - فقال: «**رأيتُ نورًا**»، وفي رواية أخرى

قال: «**نورٌ أنَّى أراه**»[(١)]، يعني: ثَمَّ نور فكيف أراه؟.

وهٰذا من الفضل العظيم له عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ أنَّه ارتفع من الأرض إلى ما بعد السّماء السَّابعة و رأى الجنَّة و رأى النَّار في ليلة ورجع، والسَّماء الواحدة لا يقطعها القاطع إلَّا بمسيرة خمسمائة سنة، وما بين السَّماء والسَّماء لا يقطعها القاطع إلَّا بمسيرة خمسمائة سنة، وهكذا حتى تصل إلى السَّماء السَّابعة، ثُمَّ بعد ذلك الكرسي ثم بعد ذلك الماء، إلى آخره[(٢)]، فهو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لا شكَّ أنَّ المعراج له عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ممَّا يدلَّ على عظم قدره عند ربِّه جلَّ وعلا؛ لهٰذا قال تعالى في الإسراء ـ وهو من العجب بمكان: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[(٣)]، يعني: في بعض اللَّيل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثمّ رجع، وهٰذا من مكَّة إلى بيت المقدس محلّ عجب عند العرب ولا شكَّ أنَّه محل عجب حيث ما كان عندهم من المركوبات، فكيف من بيت المقدس إلى ما بعد السَّماء السَّابعة، ثم يرجع إلى بيت المقدس، ثم يرجع من بيت المقدس إلى مكَّة، وفراشه لم يبرد بعد، هٰذا لاشك أنَّه مما أكرم الله جلَّ وعلا

---

(١) أخرجَه مسلم (ح١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) قال الشَّيخ حفظه الله في شرح الباب الأخير من كتاب التوحيد: (**فالأرض التي أنت فيها وأنت فيها في نقطة صغيرة صغيرة هي بالنسبة إلى السماء هٰذا وصفها، والأرض والسَّمٰوات بالنسبة للكرسي هٰذا وصفه، والكرسي أيضًا فوقه ماء، وفوق ذلك العرش؛ عرش الرحمٰن جل وعلا**) اهـ.

(٣) الآيَـة الأُولَى منْ سُورةِ الإسْراءِ.

به نبيَّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* قال: (**وفُرِضَتْ عليـه الصَّلواتُ الخمسُ**) يعني: على هٰذا النَّحو، بعـد أن فُرضت عليه خمس صلوات وصبَّح صباحه في مكَّة، نـزل عليـه جبريـل يعلِّمه أوقات الصَّلوات وأنواعها.

* قال: (**وصلَّى في مكَّـةَ ثلاثَ سنينَ، وبعدَها أُمِرَ بالـهجرةِ إلى المدينَـةِ**) يعني: صلّى السَّنة العاشرة، الحادية عشر، الثَّانية عشر ـ مـن البعثـة، ثـم بعـد ذلك أُمر بالهجرة إلى المدينة.

* قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**وصـلَّى في مكَّــةَ ثـلاثَ سـنينَ، وبعـدَها أُمِـرَ بالـهجرةِ إلى المدينَـةِ**) صلَّى في مكـة -عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ- ثـلاث سـنين، يعني: بعد أن فُرضت عليه الصَّلاة صلَّى الصَّلوات الخمس على هٰـذا النَّحـو الذي نصلِّيه، قد حُدّت صـفاتها، أركانهـا، واجباتهـا، وأوقـات الصَّـلوات بُيِّنت؛ جاء النَّبيَّ -عَلَيْه الصَّلاة والسَّلامُ- جبريلُ فبيّن له أوقات الصَّلوات.

(**بعدها**) ثـلاث سـنين مـن فـرض الصَّـلاة هـاجر النَّبـي -عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّلامُ- إلى المدينة بعد أن أُمر بذلك، وبعد هجرته -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّـلامُ- إلى المدينة ابتدأ التَّاريخ الهجري كما هو معروف.

* لما أتى لـهٰذا الموضع فسّر الهجرة فقال: (**والهجـرةُ: الانتقـالُ مِـنْ بلـدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) هٰذا تعريفُها الاصطلاحي.

* **والهجرة في اللُّغة: التّرك.**

* **وفي الشَّرع: ترك ما لا يحبُّـه الله ويرضاه إلى ما يحبُّه ويرضـاه**، ويـدخل في هٰذا المعنى الشَّرعي: هجر الشِّرك، يدخل فيه: ترْك محبَّة غير الله ورسوله،

يدخل فيه: ترْك بلد الكفر؛ لأنّ الـمُقام فيها لا يرضاه الله -جلَّ وعلا- ولا يحبُّه.

* أمَّا في الاصطلاح قال: **(الهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشّركِ إلى بلدِ الإسلامِ)**، الانتقال يعني: ترك بلد الشِّرك والذَّهاب إلى بلد الإسلام.

وسبب الهجرة ـ يعني سبب إيجاب الهجرة أو سبب مشروعية الهجرة ـ: أنّ المؤمن يجب عليه أن يُظهر دينَه، معتزًّا بذلك، مبيِّنا للنَّاس، مخبرًا أنَّه يشهد شهادة الحق؛ لأنّ الشَّهادة لله بالتَّوحيد ولنبيِّه بالرِّسالة فيها إخبار الغير، وهٰذا الإخبار يكون بالقول والعمل، فإظهار الدِّين به يكون إخبار الغير عن مضمون الشَّهادة ومعنى الشَّهادة؛ فلهٰذا كانت الهجرة من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام واجبة إذا لم يستطع المسلم إظهارَ دينه، لأنّ إظهار الدِّين واجب في الأرض، وواجب على المسلم أن يُظهر دينه، وأن لا يستخفي بدينه، فإذا كان إظهارُه لدينه غير ممكن في دارٍ وجب عليه أن يتركها، يعني: وجب عليه أن يهاجر.

قال: **(الانتِقالُ مِنْ بلَدِ الشِّركِ إلى بلَدِ الإسلامِ)**، **بلَدُ الشِّرك هي: كلُّ بلد يظهر فيها الشِّرك ويكون غالبًا**؛ إذا ظهر الشِّرك في بلد وصار غالبًا ـ أيْ: كثيرًا، أكثر من غيره ـ صارت تسمَّى بلد شرك، سواء كان هٰذا الشِّرك في الرُّبوبيَّة، أو كان في الإلٰهية أو كان في مقتضيات الإلٰهية من الطَّاعة والتَّحكيم ونحوها.

بلد الشِّرك هي البلد التي يظهر فيها الشِّرك ويكون غالبًا.

هٰذا معنى ما قرَّره الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ حينما سُئل عن دار

الكُفر ما هي؟ قال: دار الكُفر هي الـدّار التـي يظهـر فيهـا الكُفـر ويكـون غالبًا.

إذن إذا ظهر الشِّرك في بلدة وصار ظهوره غالبًا ـ ومعنى ذلك: أن يكـون منتشرًا ظاهرًا بيِّنا غالبًا الخيرَ ـ فإنَّ هٰذه الدّار تسمَّى بلد شرك، هٰـذا باعتبـار ما وقع وهو الشِّرك.

أمَّا باعتبار أهل الدَّار فهٰذه مسألة فيها خلاف بين أهل العلـم؛ هـلْ يُنظـر في تسمية الدَّار بدار إسلام ودار شرك إلى أهلها؟

وقد سُئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ عن بلد تظهر فيها أحكـام الكُفـر، وتظهـر فيها أحكام الإسلام، فقال: هٰذه الدار لا يحكم عليها أنَّها دار كفر، ولا أنَّهـا دار إسلام، بل يعامل فيها المسلم بحسبه، ويعامل فيها الكافر بحسبه.

وقال بعض العلماء: الدَّار إذا ظهر فيها الأذان وسُمع أوقـات الصَّـلوات فإنَّها دار إسلام؛ لأنّ النَّبي -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- كان إذا أراد أن يغزو قوما ـ أن يصبّحهم ـ قال لمن معه: «**انتظروا**»؛ فإن سمع أذانًا كفّ، وإن لم يسـمع أذانًا قاتل[1].

وهٰـذا فيه نظر؛ لأنّ الحـديث على أصله، وهـو أنَّ العـرب حيـنما يُعلـون الأذان معنى ذلك: أنَّهم يقرُّون ويشهدون شهادة الحقّ لأنَّهم يعلمون معنـى ذلك، فهم يؤدُّون حقوق التَّوحيد الذي اشتمل عليـه الأذان، فـإذا شـهدوا أن لا إلـٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله ورفعوا الأذان بالصَّلاة معنى ذلـك:

(١) أخرجَه البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٩٤٣)، ومُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٣٨٢) منْ حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أنَّهم انسلخوا من الشِّرك وتبرؤوا منه وأقاموا الصَّلاة، وقد قال جلَّ وعلا: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[1]، ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ يعني: من الشِّرك، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ ذلك لأنّ العرب كانوا يعلمون معنى التَّوحيد، فإذا دخلوا في الإسلام وشهدوا أن لا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله، دلّ ذلك على أنَّهم يعملون بمقتضى ذلك، أمَّا في هٰذه الأزمنة المتأخِّرة فإنَّ كثيرين من المسلمين يقولون: (لا إلٰه إلَّا الله محمَّد رسول الله) ولا يعلمون معناها، ولا يعملون بمقتضاها؛ بل تجد الشِّرك فاشيًا فيهم.

ولهٰذا نقول: إنَّ هٰذا القيد أو هٰذا التَّعريف ـ وهو أنَّ دار الإسلام هي الدَّار التي يظهر فيها الأذان بالصَّلوات ـ أنَّه في هٰذه الأزمنة المتأخِّرة لا يصحُّ أن يكون قيْدًا، والدَّليل على أصله؛ وهو أنَّ العرب كانوا ينسلخون من الشِّرك، ويتبرَّؤون منه ومن أهله، ويُقبلون على التَّوحيد، ويعملون بمقتضى الشَّهادتين، بخلاف أهل هٰذه الأزمان المتأخِّرة.

والأظهر هو الأوَّل في تسمية الدَّار، ولا يلزم من كون دار ما دارَ شرك أو دارَ إسلام أنْ يكون بهٰذا حكم على الأفراد الذين في داخل الدَّار؛ بل قلنا: إنَّ الحكم عليها بأنَّها دار كفر أو دار شرك هٰذا بِالأغلب؛ بظهور الشِّرك والكفر، ومَن فيها يعامَل كلٌّ بحسبه، خاصَّة في هٰذا الزَّمن، لأنَّ ظهور الكُفر وظهور الشِّرك في كثير من الدِّيار ليس من واقع اختيار أهل تلك

(١) سُورةُ التَّوبَـةِ، الآيَـة (١١).

الدِّيار؛ بل هو ربَّما كان عن طريق تسلُّط إمَّا الطُّرق الصُّوفية ـ مثلا ـ أو عن تسلُّط الحكومات، أو نحو ذلك، كما هو مشاهد معروف.

لهٰذا نقول: إنَّ اسم الدَّار على نحو ما بيَّنت، أمَّا أهلها فيختلف الحال.

قال: (**والهجرةُ: الانتقالُ مِنْ بلدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) الهجرة من حيثُ مكانُها تنقسم: إلى هجرة عامَّة وهجرة خاصَّة.

* **الهجرة العامَّة**: هي التي عرَّفها الشَّيخ هنا: الانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، (**بلد الشِّرك**) أيّ بلد، إلى أن تطلع الشَّمس من مغربها، أيّ بلد ظهر فيها الشِّرك وظهرت فيها أحكام الشِّرك وكان ذلك غالبًا فإنَّ الهجرة منها تسمَّى هجرة، وهٰذه الهجرة عامَّة من حيث المكان يمكن أن تكون متعلِّقة بأيِّ بلد.

* أمَّا **الهجرة الخاصَّة**: فهي الهجرة من مكَّة إلى المدينة، ومكَّة لما تركها النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ تركها وهي دار شرك، وذهب إلى المدينة؛ لأنَّه فشا فيها الإسلام فصار كل بيت من بيوت المدينة دخل فيه الإسلام، فصارت دار إسلام، فانتقل من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، هاجر هجرة خاصَّة، وهٰذه الهجرة الخاصة هي التي جاء فيها قوله عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**لا هجرة بعد الفتح؛ بل جهاد ونية**»[1] كما ثبت في الصَّحيح، فقوله: «**لا هجرة بعد الفتح**» يعني لا هجرة من مكَّة، الهجرة الخاصَّة هٰذه من مكَّة إلى المدينة، أمَّا الهجرة العامَّة ـ الانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام ـ فهي باقية إلى

---

(١) أخرجَه البخاري (ح٢٧٨٣)، ومسلم (ح١٨٦٤) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

طلوع الشّمس من مغربها؛ إلى قيام السَّاعة، إذا وجد بلد شرك ووجد بلد إسلام توجدُ الهجرة، هٰذا من حيث المكان.

ومن حيث الحكم: فإنَّ الهجرة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مستحبَّة:

* تكون الهجرة واجبة ـ يعني من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام ـ: إذا لم يمكن للمسلم المقيم بدار الشِّرك أن يُظهر دينه، إذا ما استطاع أن يظهر التَّوحيد وأن يُظهر مقتضيات دينه منَ الصَّلاة، اتِّباع السُّنّة، كلُّ بلد بحسبه؛ بحسب ما فيه من الشِّرك، يظهر ما يخالف بِه أهلَ البلد ويكون متميِّزًا فيهم، إذا لم يستطع ذلك فإنَّ الـهجرة تكون واجبةً عليه، وعليه حُمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، يعني: لَم نستطِع إظهار الدِّين، الاستضعاف هنا بمعنى: عدم استِطاعة إظْهار الدِّين، ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾(١)؛ فدلّ هٰذا على أنَّها واجبَة، لأنَّه توعَّدهم عليها بجهنّم، فمعنى هٰذا أنَّ ترك الهجرة إذْ لم يستطع إظهار الدِّين أنّه محرَّم، وأنَّ الهجرة واجبة.

* القسم الثَّاني: **المستحب**؛ وتكون الهجرة من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام مستحبّة إذا كان المؤمن في دار الشِّرك يستطيع أن يُظهر دينه، تكون مستحبَّة، وذلك لأنّ القَصدَ الأصلي الأوَّل من الهجرة: أن يتمكَّنَ المؤمن من إظهار دينه، وأن يعبد الله -جلَّ وعلا- على عِزّة، ولهٰذا قال جلَّ

(١) سُورةُ النِّساءِ.

وعلا: ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1]، نزلت في من ترك الهجرة، وناداهم باسم الإيمان.

هٰذه الأحكام متعلِّقة بالهجرة من دار الكفر والشِّرك إلى دار الإسلام.

وهناك هجرة أخرى من دار يكثر فيها المعاصي والبدع إلى دار ليس فيها معاصٍ وبدع أو تقلُّ فيها المعاصي والبدع، وهٰذه ذكر الفقهاء ـ فقهاء الحنابلة رحمهم الله ـ أنَّها مستحبَّة، وأنَّ البلد إذا كثُرتْ فيها البِدعُ أو كثُرَتْ فيها الكبائر والمعاصي فإنه يستحب له أن يتركها إلى دار يقلُّ فيها ذلك أو ليس فيها شيء من ذلك؛ لأنَّ بقاءه على تلك الحال مع أولئك يكون مع المتوعّدين بنوع من العذاب الذي يَحيقُ بأهل القُرى الذين ظلموا.

وقد هاجر جمع من أهل العلم من بغداد لما علا فيها صوت المعتزلة وصوت أهل البدع، وكثرت فيها المعاصي والزِّنا وشرب الخمر، تركوها إلى بلد أخرى، وبعض أهل العلم بقي لكي يكون قائمًا بحقِّ الله؛ بالدَّعوة وببيان العلم وبالإنكار ونحو ذلك.

أيضًا كثير من العلماء تركوا مصْر لما تولت عليها الدَّولة العُبيدية، وخرجوا إلى غيرها، وهٰذا قد يُحمل على أنَّها من الهجرة المستحبَّة، أو من الهجرة الواجبة؛ بحسب الحال في ذلك الزَّمان.

* قال هنا رَحِمَهُ اللهُ: (**والهجرةُ فَرِيضةٌ على هٰذه الأمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلامِ**) فرضٌ بقيْد أن لا يستطيع إظهار دينه، فإن كان يستطيع -كما

---

(١) سُورةُ العنكبُوتِ.

ذكرتُ لك- فإنَّ الهجرة في حقِّه مستحبَّة.

* قال: (**وهي باقِيَةٌ إلى أنْ تَقومَ السَّاعَةُ**) يريد: إلى قرب قِيام السَّاعة وهو طلوع الشَّمس من مغربها، كما جاء في الحديث: «**لا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حتَّى تَنْقَطعَ التَّوبَةُ ولا تنْقَطعُ التَّوبةُ حتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**».

* قال رَحِمَهُ اللهُ مستدلًّا: (**والدَّليلُ قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾): ظلم النَّفس بترك الهجرة، لأنَّهم عصوا الله -جلَّ وعلا- بترك الهجرة، ومكَّة لم يَعُدْ في إمكان المؤمنين أن يظهروا دينَهم فيها، فقد تسلَّط الكفَّارُ على أهلها فلم يستطيعوا ـ أعْنِي المؤمنين ـ أن يُظهروا دينهم، وهو هٰذا كانَ قائمًا من أوَّل الدَّعوة، تسلَّطوا فترة وكان إظهار الدِّين في أوَّل الدَّعوة ليس واجبًا، ثم أُمِروا بذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[1]، فابتُلي مَنِ ابتليَ من المؤمنين فلم يستطيعوا إظهار دينهم، فاستأذنوا النَّبيّ ﷺ في الهجرة إلى الحبشة، فأذن في الهجرة إلى الحبشة؛ الهجرة الأولى، ثم الثَّانية، وقيل: ثَمّ هجرة ثالثة.

ثم لما لم يعد بِالإمكان أن يظهر الدِّين في مكَّة، وقد قامت بلد الإسلام في المدينة صارت الهجرة متعيِّنة وفرضًا من مكة إلى المدينة، لِهٰذا قال جلَّ وعلا هنا: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟﴾ يعني: الملائكة مخاطبين لهؤلاء الذين توفّتهم الملائكة وقد تركوا الهجرة: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ يعني: على أيِّ حال كنتم؟

(١) سُورةُ الحِجْرِ.

﴿قَالُوٓاْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ؛ فأجابت الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾؟ وهٰذا إنكار عليهم؛ لأنَّ الاستفهام هنا في ﴿أَلَمۡ﴾ استفهام للإنكار، وضابطه: أن يكون ما بعده باطلًا، إذا أَزَلْتَ الهمزة وقرأت ما بعده فإذا كان ما بعده غير صحيح صارت الهمزة إذن للإنكار، إذا تركْت الهمزة صار الكلام: **(لم تكن أرض الله واسعة)** هل هٰذا صحيح؟ ليس بصحيح؛ فأرض الله جلَّ وعلا واسعة، فلما أتى الاستفهام بالهمزة بعدها كلام يكون بدون الهمزة باطلًا تصير الهمزة للإنكار، كما هو مقرَّر في موضعه في كتب حروفِ المعاني في اللغة[1].

قال: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ فدلَّ على أنَّهم تركوا الهجرة يظنُّون أنَّهم معذورون لأنَّهم مستضعفون، قال جلَّ وعلا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾؛ لأنّ فعلهم هٰذا كبيرة من الكبائر، هل خرجوا من الدِّين؛ كفروا؟ ليس كذلك.

بيّن الشَّيخ عبد اللَّطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في إحدَى رسائله ردًّا على بعض الجهال الذين احتجوا بهٰذه الآية على أنَّ من ترك الهجرة مع القدرة على ذلك أنَّه مشرك وكافر من جِنسِ مَن أقام معهم، و هٰذا ليس بصحيح، قال: إن هٰذه الآية في المؤمنين؛ لأنَّه قال في أولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فهؤلاء ظلموا أنفسهم، ليس الظُّلم الأكبر ولٰكن الظُّلم الأصغر

(١) انظُر: مُغني اللَّبِيبِ عنْ كُتُبِ الأعارِيبِ لِابْنِ هِشَامٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٥ فما بعدَها ط دار إحياءِ التُّراثِ العرَبِيِّ) وسَمَّاهُ الإنكارَ الإبْطاليَّ وجعلَه قَسِيمًا لِلإنكارِ التَّوبِيخِيِّ.

بترك الهجرة.

قـال جـلَّ وعـلا بعـدها: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ رجـال مستضـعفون، لا يمكـنهم أن يعرفوا الطَّريق، لا يهتدون سبيلًا إلى البلد الآخر ولا يستطيعون حيلة، ليس عندهم ما يركبون، وليس عندهم مال ينقلهم، فهم مستضـعفون، يريـدون الهجرة ولكـنَّهم مستضـعفون مـن جهـة عـدم القـدرة عـلى الهجـرة بالمـال والمركب والدَّليل ونحو ذلك؛ فقال -جلَّ وعلا- في هـؤلاء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[1].

ويلحق بهؤلاء من لم يستطع الهجرة في هٰذا الزَّمن بالمعوّقات القائمـة مـن أنواع التَّأشيرات وأشباهها، تلحق بهؤلاء؛ لأنَّ هٰذا لا يسـتطيع حيلـة، هـو يرغب أن يترك بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام، لـٰكن لا يمكنـه ذلـك لوجـود المعوّقات، لا يستطيع حيلـة ولا يهتـدي سـبيلا وطريقًـا إلى بلـد الإسـلام، فهؤلاء قال -جلَّ وعـلا- في حقهـم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

* ثم ساق دليـلًا آخـر وهو (**قَولُه تعـالَى**: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾، **قَـالَ البغَـويُّ** رَحِمَهُ اللهُ: (**سـبَبُ نُـزُولِ هٰــذِه الآيَــةِ في الـمُسْلِمينَ الَّذينَ بِمَكَّـةَ لَـمْ يُهاجِرُوا) اهـ، نـاداهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإيمانِ**) تركـوا الهجرة فناداهم الله باسم الإيمان؛ فدلّ على أنّ ترك الهجرة لا يسلب الإيمان،

(١) سُورةُ النِّسَاءِ.

فمعنى ذلك: أنَّ ترك الهجرة ليس شركًا أكبر، وليس كفـرًا أكـبر، وإنَّـما هـو معصية من المعاصي، لأنَّه نادى من ترك الهجرة باسم الإيمان.

(﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، **قَالَ البغَوِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **(سببُ نُزُولِ هٰـذِه الآيَـةِ في الـمُسْلِمينَ الَّـذينَ بِمَكَّـةَ لَـمْ يُهـاجِرُوا) اهــ، نـاداهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإيمانِ)** فدلَّ على أنَّ تركهم الهجرة مـن مكَّـة لـيس كفـرًا ولا شركًـا، وأنَّ قولـه تعـالى في الآيـة التـي قبلهـا: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ أنَّ هٰـذا لأجـل أنَّهـم تركـوا واجبًـا مـن الواجبـات، وارتكبوا كبيرةً من الكبائر، لٰكن لا يُسلب عنهم اسمُ الإيمان بتَرْك الهجـرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

* قال: **(و الدَّليلُ علَى الـهِجْرةِ منَ السُّنَّـةِ قَولُه** ﷺ: «**لا تَنـقَطعُ الهجرةُ حتَّى تَنقَطعَ التَّوبَـةُ، ولا تَنقَطعُ التَّوبَـةُ حتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها**»**)** هذَا واضـح، التَّوبـة لا تنقطـع إلَّا إذا طلعـت الشَّـمس مـن مغربهـا، وطُــلوع الشَّمس من مغربها هو المراد بقوله تعالى في آخـر سـورة الأنعـام: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَـٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيۡرٗا﴾[1] قال المفسِّرون: إنَّ معنـى قولـه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ أنه طلـوع الشَّـمس مـن مغربهـا؛ فـإذا طلعـت ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَـٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيۡرٗا﴾، فلا تنفع التَّوبة بعد طلوع الشَّمس من مغربهـا، كـما قـال هنـا: «ولا

(١) الآيـة (١٥٨).

تَنـقَطِـعُ التَّوبَـةُ حتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِها».

فالهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التَّوبة، والتَّوبة لا تنقطع حتى تطلع الشَّمس من مغربها، وذلك لأنّ تارك الهجرة حتى طلعت الشَّمس من مغربها قد ترك فرضًا عليه، إذا طلعت الشَّمس من مغربها ليس ثم عمل يحدِثُه العبد قال: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ والعمل بعض الإيمان.

* قال: (**فلَمَّا استَقرَّ بالمدينَةِ أُمِرَ ببَقِيَّةِ شرائعِ الإسلامِ، مثلِ الزكاةِ**): الزَّكاة فرضت في السَّنة الثَّانية من الهجرة، أريدَ بالزَّكاة التي فُرضت في السَّنة الثَّانية من الهجرة: الزَّكاة على هٰذا النَّحو المقدَّر؛ زكاة بشروطها، وبأنصبائها، وقدر المخرَج، وأوعية الزَّكاة ونحو ذلك، هٰذا فُرض في السَّنة الثَّانية من الهجرة.

أمَّا جنس الزَّكاة فقد فرض في مكَّة، جنس الزَّكاة أيْ: غير مقَدَّر، مثل الصَّلاة التي كانت في مكة، وهٰذا جاء في آخر سورة المزّمّل، قال جلَّ وعلا في آخرها و هي مكِّيَّة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾، فأمر بإيتاء الزكاة قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والصَّواب من أقوال أهل العلم أنَّ الزكاة أُوجبت في مكة، ومنها: بذل الماعون الذي جاء النَّهي عن منعِه في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾، ومنها: الصَّدقة، منها: إعطاء الفقير، ونحو ذلك، وهٰذه الزَّكاة غير محدودة لا بقدر ولا بصفة، وإنَّما يصدق عليها اسم الزَّكاة، أمَّا الزَّكاة على هٰذا النَّحو

المقدَّر الذي استقر فهٰذا فُرض في السَّنة الثَّانية من الهجرة.

* قال: (**والصّوم**) فالصَّوم كذلك، هاجر النَّبيّ ﷺ فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم: «**لِمَ تصومون هٰذا اليوم؟**» قالوا: يوم نجَّى الله فيه موسى، فصَامه موسى شُكرا، فنحن نصومه كما صامه موسى؛ فقال عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**نحن أحق بموسى منكم**»[1]، فصَامه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، و**أَمَر** بصيامه، يعني: كان صوم يوم عاشوراء فرضًا.

ثم لما فرض صوم رمضان في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وهي السَّنة التي كانت فيها وقعة بدر، صار صيام عاشوراء على الصَّحيح مستحبًّا، والفرض هو صيام شهر رمضان، كما قال جلَّ وعلا في سورة البقرة: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾[2]؛ وبها كان صيام رمضان واجبًا.

* قال: (**والحجِّ**): من أهل العلم من يقول: إنَّه فُرِضَ في السَّنة السَّادسة، وهي السَّنة التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾[3]، ومنهم من قال: إنَّه لم يفرض إلَّا في السَّنة التاسعة، وهٰذا هو الصَّحيح، فإنَّ الحج فُرض متأخِّرًا وذلك بعد فتح مكَّة، فأُمر النَّبيُّ ﷺ بالحج في سورة آل عمران، وهي إنَّما نزلت في سنة الوفود أو في عام الوفود، وهي السَّنة التَّاسعة، والنَّبيّ -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- ترك الحجِّ تلك السنة،

---

(١) أخرجَه البخاري (ح٢٠٠٤)، ومسلم (ح١١٣٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الآيَـة (١٨٥).

(٣) سُورةُ البقَرة، الآيَـة (١٩٦).

وأمر أبا بَـكرٍ أن يحجَّ بالنَّاس، وبعث معه علِـيًّـا رضي الله عنهم أجمعين، ثم حج عَلَيْـه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بعد ذلك في السَّنة العاشرة حجة يتيمة لم يحج بعدها.

* قال: (**والأذانِ**): كذلك فُرض الأذان في أول العهد المدني.

* (**والجهادِ**): كان هناك تدرُّج في فرضه.

* **(والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكرِ وغيرِ ذلكَ مِنْ شرائـعِ الإسـلامِ)** يعني: أنَّ شرائع الإسـلام الظَّـاهرة إنَّـما فُرضـت في المدينـة، وأمَّـا في مكـة فمكث عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يدعو إلى التَّوحيد وينهى عن الشِّرك عشر سنين، ثم فُرضت الصَّلاة في السَّنـة العاشرة، وأمَّا بقيَّـة الشَّعائر ـ شعائر الإسـلام الظَّاهرة ـ فإنَّها كانت في المدينة، حتى تحـريم المحرَّمـات مـن الزِّنـا والخمـر والرِّبا ونحو ذلك إنَّما كان في المدينة.

وهٰذا يدلُّك على عظم شأن التَّوحيد في هٰـذا الـدِّين، وأنّ هٰـذه الرِّسـالة ـ رسالة النَّبيّ عَلَيْـه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ ـ حيـث بلّغهـا للنَّـاس مكـث يـدعو إلى التَّوحيد في عشر سنين، والتَّوحيد مـن حيـث هـو أمْـرٌ واحـد؛ الـدَّعوة إلى التَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك أمر واحد، وتلك الأوامر التي فُرضت فيها بعـد والمناهي التي نهي عنها فيها بعد كثـيرة جـدًّا، عددها كثير؛ مئات مـن أمـور الإسلام الظـاهرة، وأمـور المعـاملات، والصِّـلات الاجتماعيـة، والنِّكـاح، وتلك الأحوال، تلك بالمئات، فكان العهد المدني وهو عشْـرُ سـنين متَّسِـعا لتلك الأمور جميعًا، وأمَّا التَّوحيد فمـع أنَّـه أمـر واحـد ـ وهـو الـدَّعوة إلى توحيد الله والنَّهي والنَّذارة عن الشِّرك ـ فقد مكث فيه عَلَيْه الصَّـلاةُ وَالسَّـلامُ عشر سنين، وهٰذا من أعظم الأدلَّة على أنَّ شأن التَّوحيد في هٰـذا الـدِّين هـو

أعظم شيء، وأنَّ غيره من أمور الإسلام الظَّاهرة أنَّه يليه بكثير في الاهتمام به في هٰذا الشَّرع، فالدَّعوة إنَّما تكون لتوحيد الله؛ لأنَّ القلب إذا وحَّد الله جلَّ وعلا أحبَّ الله وأحب رسوله، أطاع الله بعد ذلك وأطاع رسوله رغْبَةً، ترك الشِّرك أبغض الشِّرك سيُبغِض كل ما لا يحبه الله جلَّ وعلا ولا يرضاه، وهٰذا من مقتضيات التَّوحيد.

* قال: (**أخذَ على هٰذا عَشَرَ سنِينَ**) يعني: مكث في مكَّة عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلام عشر سنين يدعو إلى التَّوحيد كما هو معْرُوفٌ، وفي المدينة أيْضًا عشْرَ سِنينَ يدعُو إلى التَّوحيدِ وإلى أمور الإسلام الظَّاهرة.

* قال: (**أخَذَ على هٰذا عَشَرَ سنِينَ، وبعدَها تُوُفِّيَ صلاةُ الله وسلامُهُ عليهِ**): (**صلاة الله**) الصَّلاة من الله جلَّ وعلا على نبيِّه أو على المؤمنين هي: ثناؤه عليهم في الملأ الأعلى، هٰذا هو الصَّحيح؛ أنَّ الصَّلاة من الله جلَّ وعلا هي الثَّناء؛ لأنَّ حقيقة الصَّلاة في اللُّغة الدُّعاء والثَّناء، وأمَّا من قال: إنَّ الصَّلاة بمعنى الرَّحمة هٰذا ليس بصحيح؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[1]، الملائكة لا يُمكنهم أن يرحموه، لكن يمكن أن يُثنوا عليه أو أن يدعوا له، والله جلَّ وعلا في حقه الثَّناء، فمعنى صلاة الله -جلَّ وعلا- على نبيِّه هو: ثَناؤه عليه في الملأ الأعلى، لهٰذا جاء في الحديث الصَّحيح: «**مَن صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلَّى الله عليه بها**

---

(١) سُورةُ الأَحزابِ، الآيَة (٥٦).

عشرًا»[1]، يعني: من أثنى عليّ ـ من قال: اللّهم صلّ على محمّد، سأل الله جلَّ وعلا أن يُثني على نبيه في الملأ الأعلى ـ فإنَّ الله جلَّ وعلا يجزيه من جنس دعائه وهو أنَّه يثني عليه بذلك عشر مرات في ملئه الأعلى، أسأل الله الكريم من فضله، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، اللّهمّ صلِّ وسلِّم على نبيِّنا محمَّد.

* قال: (**ودينُهُ باقٍ**): هو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ تُوفي ودُفن في حجرة عائشة، ودينه باق إلى قيام السَّاعة، لا يقبل الله جلَّ وعلا من أحد دينًا إلَّا هٰذا الدِّين، (**وهٰذا دينُهُ**) الضّمير يرجع إلى أيِّ شيء؟ إلى ما سبق إيضاحه في هٰذه الرِّسالة، هٰذا الذي وُصِف لك فيما قبل هو دينه: (**معرفة العبد ربَّه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلَّة، ومعرفة العبد نبيَّه ﷺ**)، (**هٰذا دينُه**) عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* (**لا خيْرَ..**) هٰذا من صفاته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أنَّه: (**لا خيرَ إلَّا دَلَّ الأمَّةَ عليهِ، ولا شَرَّ إلَّا حَذَّرَهَا منْه، والخيرُ الذي دلَّهَا عليْه: التَّوحيدُ وجميعُ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ، والشَّرُّ الذي حَذَّرَهَا منْه: الشِّركُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللهُ ويأباهُ**) هوعَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بالمؤمنين رؤوف رحيم، ومن رأفته بالمؤمنين ورحمته بهم أنَّه اجتهد أن يؤدي الأمانة كاملة؛ لا خير يقرب إلى الله ويكون محبوبًا إلى الله إلَّا بينه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لهٰذه الأمَّة، وأعلى ذلك التَّوحيد، ويتبع ذلك جميع الأمور من الفرائض والواجبات والمستحبّات، ومن المناهي التي اجتنابها فرْض ونحو ذلك، والمسنونات،

---

(١) أخرجَه مُسلم (ح٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حتى قال رجل لسَلمان: لقد علَّمكم رسولُكم كلَّ شيء حتى الخراءة، قال: (أجل)[1] يعني: حتى هيئة الجلوس أثناء قضاء الحاجة، فإنَّه علّمنا عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كيف يكون ذلك: استِقبال، واستدبار، وما ينبغي أن يكون إذا ذهب المرء أين يذهب؟ كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود[2] وغيره: «**كان عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ إذا ذهب المذهب أبعد**»، يعني لقضاء حاجته ونحو ذلك.

علَّمنا عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كلَّ شيء، من أعلى أمر ـ وهو التَّوحيد؛ بيّنه بيانًا شافيًا مفصَّلًا ـ إلى أقل الأمور، كلّها بيَّنها عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؛ فالحُجّة قائمة على أمَّته، وأنَّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ سيكون شهيدًا على هٰذه الأمَّة، وأنَّه بلَّغهم الرِّسالة، ودَلّهم على كل خير يحبه الله ويرضاه.

كذلك (**لا شرَّ إلا حذَّرها منه**) لا شرَّ كان أو لا شرَّ سيكون في هٰذه الأمة إلَّا وحذّرها منه، فحذَّر النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أمَّته من الشُّرور التي كانت في وقته؛ من الشِّرك بالله بأنواعه، ومن أنواع المعاصي وأنواع الآثام، وأنواع المعاملات الباطلة، وكذلك ما سيحدث في المستقبل فإنّ الله جلَّ وعلا أطْلَع نبِيَّه على ما سيكون؛ فحَذَّر النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أمتَّه من ذلك، مثلا: كما جاء في الحديث «**لتتّبعن سَنَن من كان قبلكم شبرًا بشبر**

---

(١) أخرجَه مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللهُ (ح٢٦٢).

(٢) وهو أوَّلُ حديثٍ في سُننِه رَحِمَهُ اللهُ، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصَحَّحهُ الشَّيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله فارس والرُّوم؟ قال: «**فمَنِ النَّاسُ إلَّا أولئك**»[1] أو كما جاء في غير هٰذه الرِّواية، لها ألفاظ كثيرة، فحذّرها من تقليد فارس والرُّوم، حذّر النبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أمَّته من الفتن التي ستظهر بأنواعها، ومنها فتنة الخوارج الذين خرجوا على الصَّحابة وخرجوا على وُلاة أمر المسلمين، حذّر من البدع بأنواعها كما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ**﴾ ﴿**شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ**﴾[2]، وكما قال عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**وإنّ هٰذه الأمَّة ستَفترق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»[3] ونحو ذلك من أنواع ما أخبر به النبي -عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- أمَّته محذِّرًا.

فهو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بهٰذه الأمّة رحيم رءوف، لا خير إلَّا دلّها عليه وأرشد، ولا شرَّ إلا حذَّر منه ونهى، سواء في ذلك ما حدث في وقته، أو ما سيحدث بعد موته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بقليل، أو ما سيكون إلى قيام السَّاعة، حتى إنَّه حذّر أمته وشدَّد التَّحذير في أمر المسيح الدَّجال، حتى إنه قال عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**إن خرج فيكم وأنا حيّ فأنا حجيجه دونكم، وإنْ خرج عليكم بعد**» يعني بعد وفاته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ «**فَامرُؤ حَجِيجُ**

(١) أخرجَه البخاري (ح٧٣٢٠)، ومسلم (ح٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) سُورةُ الأنعام، الآيَة (١٥٩).

(٣) أخرجَه الترمذي (ح٢٦٤١) -من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، وقال: (حديث مفسَّر حسن غريب لا نعرفه مثل هٰذا إلا من هٰذا الوجه)، وحسنه الشيخ الألباني.

نَـفسِـه»[1] وهٰذا يدلُّ على عظم ما دلَّ النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ هٰـذه الأمـة عليه.

* قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك: (**وافْـتَرَضَ اللهُ طاعتَـهُ علَى جَميعِ الثَّـقلَينِ الـجِنِّ والإِنْسِ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾**[2]) طاعة الرَّسول ﷺ فرض على الـجنِّ والإنس، لأنَّ النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ بُـعِث إلى النَّـاس جميعًا، قال جلَّ وعلا: ﴿**قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾، وقال جلَّ وعلا: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩**﴾[3]، لأنَّهم اتبعوا هٰذا الرَّسول، بعد أن سمعوا القرآن.

* (**وأكمَلَ اللهُ بـه الدِّينَ**): الدِّين كَمُلَ، و**الدِّين** هو: مـا يـدين بـه المـرء، يعني ما يكون عادة له في عبادته، يألفه ويعتاده، لأنَّ أصل الدِّين هو العادة، كما قال الشَّاعر[4]: [من الوافِر]

---

(١) أخرجهُ مسلم (ح٢٩٣٧) من حديث النَّوَّاس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سُورةُ الأعْرافِ، الآيَـةُ (١٥٨).

(٣) سُورةُ الأَحقافِ.

(٤) وهو الشَّاعر الجاهلي عائِذ بْنُ مِـحْصَن العَبْـدِيُّ منْ بني عبد القَيْسِ الملقَّبُ بالـمُثَـقِّبِ ـ بكسْرِ ـ القافِ اسْمَ فاعلٍ ـ ت ٣٦ قبل الهجرة، انظـر: طبقـاتِ فُحُـولِ الشُّـعراءِ (١/ ٢٧١ ـ ٢٧٤)، وإنَّـما سُمِّيَ المثَـقِّبَ لِقَوْلِه في القَصِيدةِ الَّتي منها هٰذا البَيْتُ وهيَ في المفَضَّليَّـاتِ (٥٧٤):
=

تَـقُولُ وَقَـد دَرَأْتُ لَـهَا وَضِينِـي أَهَـذا دِينُـهُ أَبَـدًا وَدِينِـي

هٰذه عادته وهٰذه عادتي.

وسُمِّيَ الدِّين دِينًا لأنَّه يلتَزِمه الإنسان، وما كان من الاعتقادات وما كان من العبادات يفعله بتكرُّر حتى يصبح له عادة؛ نعم، الدِّين ليس عادة لكن أصل تسمية الدِّين سُمِّي به لأنَّه له شبه بالعادة، حيث لزومها وكثرة فعلها وترداد صاحبها لها.

(أكمَلَ اللهُ به الدِّينَ) إذن فليس في الدِّين نقصان، ليس فيه مجال للزِّيادة، فمن أراد التَّقرُّب إلى الله جلَّ وعلا فإنما يكون ذلك بالتقرُّب عن طريق رسوله ﷺ، يعني: أن يكون متّبعا لسنَّته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، لأنَّ الدِّين كَمُل فلا سبيل إلا هٰذا السَّبيل، كما قال ابن القيم[1]: [من الكامل]

فَلِوَاحِدٍ كُـن وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أعنِـي سَـبِيلَ الحَـقِّ وَالإِيـمَانِ

ومن الهجرة: الهجرة إلى الرَّسول ﷺ بطاعته واتِّباع سنَّته وامتثال أمره والانتهاء عن نهيه والاهتداء بهديه، وألَّا يُعبد الله إلَّا بما شرع، ينسلخ القلب ويترك كل ما سوى الله جلَّ وعلا، وسوى رسوله من الذين يطاعون، ويتَّجه بطاعته إلى الله جلَّ وعلا ورسوله.

* قال: (**والدَّليلُ قولُه تعالَى**: ﴿ٱلْيَوْمَ ﴾ ﴿دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

=

رَدَدْنَ تَحِيَّةً وكَنَنَّ أُخْرَى وثَقَّبْنَ الوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ

(١) سبقَ ص (٣١).

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]، **والدَّليلُ علَى مَوتِـه ﷺ قَولُـه تعـالَى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾[2]) مات عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، الذين يدّعون أنَّه عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ حيٌّ لم يمـت وأنَّه يحضر ـ رُوحه تحضر وهو يحضر ـ وينتقل ونحو ذلك هـؤلاء مكـذِّبون للقرآن؛ كفرة بالله جلَّ وعـلا؛ لأنَّ الله جـلَّ وعـلا قـال لنبـيِّه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يعني: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وإنهـم سـيموتون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إنكم جميعا أنت وهم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وقـال جلَّ وعلا في الآية الأخـرى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[3]، ومن المعلوم مـا حصـل من قيام أبي بكر في النَّاس بعد موت الرَّسول ﷺ خطيبًا، قائلا فـيما يـروى: **(من كان يعبد محمَّدًا فإن محمَّـدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حـيٌّ لا يموت، قـال تعـالى:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾) قال عمر: **(فكـأنِّي لم أسـمع الآيـة إلَّا حـين تلاها أبو بكر رضي الله عنه)**[4].

لـكن هو بعد موته في حياة برزخية هي أكمل أنواع الحياة البرزخية، فهـو

---

(١) سُورةُ المائِـدةِ.

(٢) سُورةُ الزُّمَر.

(٣) سُورةُ آلِ عِمرانَ، الآيَـة (١٤٤).

(٤) أخرجَه البُخارِيُّ رحمه الله (ح٣٦٦٨)، وابنُ ماجَه رحمه الله (ح١٦٥٠).

حي، حياته أكمل من حياة الشهداء، وهو قد مات توفَّاه الله جلَّ وعلا، انقطع عن هٰذه الدُّنيا، وحياته البرزخِيَّةُ أكمل من حياة الشُّهداء، فهو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قد توفِّي وانقضى أجله، وهو في الرَّفيق الأعلى في الجنة، وعند الله جلَّ وعلا بأعلى المقامات عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

* قال ـ لما ذكر موته عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ـ: (**والنَّاسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ**):

خصّ هنا البعث بذِكرٍ مع أنَّ مناسبته هي في ذكر اليوم الآخر ـ المرتبة الثانية من الأصل الثَّاني ـ؛ لأنَّ اليوم الآخر معناه: أنَّه يبعث النَّاس بعد الموت، فهنا قال: (**والنَّاسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ**) وذلك لسبب وهو: أنَّه في وقت الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى كان يكثر في البادية إنكار البعث بعد الموت، وقد جاء في رسائل الشَّيخ إلى العلماء رسائل كثيرة فيها بيان أنَّ البعث بعد الموت حق، وأنَّ من كفر بالبعث وأنكر البعث فهو كافر بالله العظيم، ليس بمؤمن ولا مسلم وإن صلَّى وصام وزعم أنَّه مسلم.

نصّ هنا على هٰذا لأجل الاهتمام بالمسألة، ووَضْعُها في هٰذا الموضع مناسب؛ لأنَّه ذكر وفاة النَّبي عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ وذكر قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ فناسب أن يقرِّر البعث بعد الموت لجميع النَّاس فقال: (**والنَّاسُ إذَا ماتُوا يُبْعَثُونَ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[1]، **وقَوْلُهُ تعالَى:**

(١) سُورةُ طٰـهٰ.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾[(١)].

وبَعْـدَ البَعْـثِ مُحَاسَـبُونَ ومَـجْزِيُّـونَ بِأعْمَالِـهِمْ؛ و الـدَّليلُ قَولُـه تعـالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾[(٢)]).

* قال: (**ومَنْ كَـذَّبَ بالبعثِ كَـفَرَ**): مثل أولئـك الأعـراب في الباديـة، الذين كانوا في وقت الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ، ويكثـر إلى الآن في بـوادي بعـض الـبلاد العربية أنَّهم يكذِّبون بالبعـث، يعتقـدون أن التـزام الـدين أنَّـه إنَّـما يحصـل للإنسان السَّعادة في دنياه، وأنَّ روحـه تكـون في نعـيم أو في جحـيم، لكـنْ بعثٌ بعد الموت؟ يكذِّبون بذلك !.

قـال هنـا: (**ومَنْ كَـذَّبَ بِالبَعْثِ كَـفَرَ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾[(٣)])

وجه الاستدلال أنَّه قال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فوصف الذين يزعمـون أنَّهـم لن يبعثوا بأنَّهم من الذين كفروا.

* قال: (**وأرْسَلَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ؛ والدَّليلُ قَولُه تعـالَى:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[(٤)].

وأوَّلُـهُمْ نُـوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ**، و آخِـرُهُمْ محمَّـدٌ** ﷺ): مـن كـذّب برسـول مـن

(١) سُورةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) سُورةُ النَّـجْمِ.

(٣) سُورةُ التَّغابُن.

(٤) سُورةُ النِّساءِ، الآيـة (١٦٥).

الرُّسل فقد كذب بالرُّسل أجمعين، ومحمَّد عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ خاتم النبيِّين وخاتم المرسلين، كلّ دعوة للنّبوة أو دعوة للرِّسالة بعده فهي ضلال وهي كفر بالله جلَّ وعلا، كما ادَّعَى مَنِ ادعى في وقت الصَّحابة وبعدهم إلى يومنا هٰذا، لم يزل يظهر من يدّعي النبوة، هو عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ خاتم المرسلين وخاتَم النبيين وخاتِمُهم؛ هو خاتِمُهم وخاتَمهم.

* (والدَّليلُ علَى أنَّ أوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[1]) هٰذا وحيٌ خاص، وحي رسالة، والمراد بالنبيِّين هنا: المرسلون.

* قال: (وكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إليها رَسُولًا -مِنْ نُوحٍ إلَى محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يأْمُرُهُمْ بِعِبادةِ الله وَحْدَهُ ويَنْهَاهُمْ عنْ عِبادةِ الطَّاغُوتِ؛ والدَّليلُ قَولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ﴾ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2]):

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ﴾ ما يأتي بعدها هو مضمون البعث، بعثهم بِأيِّ شيء؟ بِما يأتي بعد (أنْ)، وهو: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾، عبادة الله سبق تفسيرها مفصّلا في الأصل الأول وهو (معرفة العبد ربَّه)، هنا لما ذكر الطَّاغوت كان مناسبًا لأهميته أن يذكر معنى الطَّاغوت.

* قال هنا: (وافترَضَ اللهُ على جميعِ العبادِ) بهٰذا الدّليل (الكفرَ

(١) سُورةُ النِّساءِ، الآيـة (١٦٣).

(٢) سُورةُ النَّحْلِ، الآيـة (٣٦).

بالطاغوتِ والإيمانَ بالله)، ما معنى الطَّاغوت إذن؟ قالَ: (**قال ابنُ القَيِّم** رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالى: معنى الطَّاغَوت ما تجاوزَ بِه العبدُ حدَّهُ مِنْ معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع**)[1].

(**الطَّاغوت**) صيغة مبنية للكثرة والسَّعة، لأنَّها من طغى يطغى طغيانًا، ومعنى ذلك التجاوز، تجاوز الحد، يقال: طغى الماء إذا تجاوز الحد، طغى الرَّجل إذا تجاوز حدّه، والطَّاغوت مبني من الطُّغيان، لكنَّه للكثرة، مثل: ملكوت ورحموت ونحو ذلك.

ما هو الطَّاغوت؟ إذن الطَّاغوت: (**اسم لكل ما تجاوز به العبد حدّه**) أي حد هٰذا؟ الحد الشَّرعي له، معلوم أنَّ الشَّرع حدّ للأشياء حدودا وبيّن علاقة المسلم بها فإذا تجاوز العبدُ بشيء ما حدَّه فذلك الشَّيء طاغوت.

قال: (**ما تجاوزَ بِه العبدُ حدَّهُ مِنْ معبودٍ**): إذا عبد أحدٌ غير الله جلَّ وعلا فذلك الغير طاغوت هٰذا العابد، متى يكون طاغوتَه؟ إذا كان راضيا بهٰذه العبادة، أمّا إذا كان يكرهها فإنه لا يُسمّى طاغوتًا؛ لأنَّه يتبرأ منه والمتبرّئ من الشَّيء ليس من أهله، كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، لما نزلت هٰذه الآية فرح المشركون، قالوا: سنكون وعيسى وعزير ـ وعدّوا آلهة ـ سنكون جميعًا في جهنَّم فنعم الصُّحبة !، أنزل الله جلَّ وعلا بعدها قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ

---

(١) «إعلام الموَقِّعين» (٢/ ٩٢ ط ابن الجوزي).

﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]، فدلّ على أنَّ الذي لا يرضى بعبادته فإنَّه ليس بمذموم، لهٰذا عُبدت الأنبياء والرُّسل، وعُبد الصَّالحون، وكلُّهم يتبرّؤون.

عيسى عليه السلام أُلّه بعد رفعه، وقال له ربُّه جلَّ وعلا: ﴿﴾ ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يعني: قبضتني؛ قبضت بدني ورفعتني عنهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ واستوفيت مدَّتي على الأرض ـ المدّة الأولى ـ ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ عِبادًا ..﴾ إلى آخر الآيات[2].

(معنى الطَّاغوت: ما تجاوزَ به العَبدُ حَدَّهُ مِنْ معبودٍ، أو متبوعٍ): من يُتَّبَع، يُقَلَّد، يُمشى وراءه، يُهتَدَى بهديه، **(أو مطاع)**: إذا كان اتُّبِعَ أحدٌ وتجاوز العَبْد بهٰذا المتَّبَع حدَّه ـ أي: الذي أذن به شرعًا ـ فقد صار ذلك طاغوتًا له إذا كان راضيا بذلك، وإن كان لا يرضى فهٰذا هو الذي اتخذه طاغوتا، وذاكَ ليس بطاغوت.

---

(١) سُورةُ الأنبياء عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(٢) سُورةُ المائِدةِ.

* بَـيّن ذلك بقوله: (**والطواغِـيتُ كثِـيرونَ، و رؤوسُهُمْ خَمسَـةٌ: إبلـيسُ لعنَـهُ اللهُ، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادَةِ نفسِه، ومَنِ ادَّعى شيئًـا مِنْ عِلمِ الغيْبِ، ومَنْ حكمَ بغيرِ مَا أنزلَ اللهُ**):

* (**إبليس لعنه الله**) هو رأس الطَّواغيت، لِـمَ؟ لأنّه عُبد، ولأنَّه متبـوع، ولأنَّه مطاع، وهو راض بذلك، أطيع أو لم يُطع؟ أطيع في معصية الله، وهٰذه مأذون بها أو غير مأذون بها؟ ويعتبر عند من أطاعه أنَّـه مقـدّم، وأنَّ طاعتـه هَنِـيَّة، ولهٰـذا قـال جلَّ وعـلا في سـورة إبـراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ ﴾[1] الاسـتجابة هنـا في المتابعـة وفي الطَّاعة.

وقـال جلَّ وعـلا في آيـة سـورة يـس: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾، ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ﴾ يعني: بالطَّاعـة كـما هو تفسيرها.

* (**ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ**) هٰذا القيد مهم، من عُبـد مـن دون الله ورضي بهٰذه العبادة فهو من الطَّواغيت، من رؤوس الطَّواغيت.

* (**ومَنْ دعا النَّاسَ إلى عبادَةِ نفسِه**) هٰذا أعظم، الأوَّل يُعبد وهو ساكت لم يدعُ إلى عبادة نفسه، يُطاع وتكون طاعته دينًا، في غير طاعة الله جـلَّ وعـلا وطاعة رسوله ويرضى بذلك فهٰذا طـاغوت، الأعظـم منـه أن يـدعو، ذاك

(١) الآيـة (٢٢).

ساكت ـ الأوَّل ـ لكن فُعل به ذاك وهو راض، الأعظم أن يـدعو إلى نفسـه، مثل ما يفعل مشايخ الطّرق الصُّـوفية، يعنـي: بعـض مـن مشـايخ الطُّـرق الصـوفية، ورؤوس الضَّـلال؛ رؤوس الـرَّ افضـة و رؤوس الإسـماعيلية، ونحو ذلك، كل هؤلاء يعظّمهم أتباعهم فوق الحـد الشرـعي؛ فيتخـذونهم مطاعين، فيتخذونهم متابَعين من دون رسول الله ﷺ.

* قال: (**وَمَنِ ادَّعى شيئًا مِنْ عِلمِ الغيْـبِ**): مـن ادَّعـى شـيئًا مـن علـم الغيْب فهو من جنس الشَّـياطين، لأنَّـه كـاهن مـن الكهنـة، أو سـاحر مـن السَّحرة، أو مدَّعٍ لعلم الغيب، فهٰذا من الطَّواغيت.

* قال: (**وَمَنْ حكمَ بغـيرِ مَـا أنـزلَ اللهُ**) الحـاكم بغـير مـا أنـزل الله فيـه تفصيل:

ـ إذا حكم بغير ما أنزل الله معتقـدا أنّ حكمـه جـائز، وأنَّ لـه أن يحكـم، وحكمه قرين لحكم الله أو مساوٍ لحكم الله، أو أفضل من حكم الله أو نحـو ذلك فإن هٰذا يعدّ طاغوتًا.

ـ أمَّا إن حكم بغير ما أنزل الله وهو يعلم أنَّه عاص في حكمه، وأنَّ حكـم الله جلَّ وعلا أفضل، وأنَّ حكم الله جلَّ وعلا هو المتعيِّن، ولكن غلبتـه نفسـه وشهوته بأن حكم بغير ما أنزل الله في بعـض المسـائل، كـما يحصـل لـبعض المفتونين من القضاة أنَّهم يحكمون في مسائل بشهوتهم، كـما كـان يحـدث في نجد من قرون قبل الدَّعوة أنَّه كان يُرشى القـاضي ـ يُرشـى بـمال ـ فـيحكم لأحد الخصمين، يغيِّر حكم الله جلَّ وعلا، ويحكم بغير حكم الله، وهٰـذا هـو الذي جاء فيه الحديث الـذي رواه أبـو داود وغـيره بإسـناد قـويّ أنّـه عَلَيْـه

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قال: «**القُضـاة ثلاثــة: قاضـيان في النَّـار، وقـاضٍ في الجنَّـة؛ فرجل قضى بغير الحق وهو يعلم الحق فذاك في النَّار..**»[1] والعياذ بالله.

هٰذا النَّوع يحكم لأجل مال، يحكم لأجل رِشـوة بغـير مـا أنـزل الله، هٰـذه معصية من المعاصي، ولا شكّ أنَّ معصية سمّاها الله جلَّ وعلا كفرًا أعظم من معصية لم يسمِّها الله جلَّ وعلا كفرًا، كما يقول الشَّيخ محمد بن إبـراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى في رسالته تحكـيم القـوانين، فـإذن هٰـذا الصِّـنف مـن النَّـاس فعلهـم معصية.

ـ هناك نوع آخر حدث في هٰذا الزَّمن وهو تحكـيم القَـوانين؛ أن يُسـتبدل الشَّرع بقوانين وضعية، يُستبدل الشَّرع استبدالًا بقوانين، يأتي بها الـحُــكّام من عند غير الله ورسوله، يُترك الدِّين ويؤتى بتلك القوانين.

فهٰذه كما يقول الشَّيخ محمد بن إبـراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى في أوَّل رسـالته تحكـيم القوانين يقول ما نصه: إنَّ من الكفر الأكبر المستبين تنزيـل القـانون اللَّعـين منزلة ما نَزَل به الوحي الأمين على قلـب سـيِّد المرسـلين للحكـم بـه بَــين العالمـين وللرَّد إليه عند تَـنازع المتخاصمين، معانـدة ومكابرة لقول الله جـلَّ وعـــــلا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ

(١) أخرَجهُ أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح٣٥٧٣)، والترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ح ١٣٢٢)، وابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٣١٥)، من حديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (ح٢٦١٤).

ٱلْأَخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[1].

رسالته هٰذه بسَط فيها القول، وهي رسالة دقيقة مهمّة في هٰذا الباب.

إذن فصار تحكيم القوانين كفرًا أكبر بالله؛ لأنَّه استبدال شريعة مكان شريعة، بدَّل شريعة الإسلام يأتون بشريعة فرنسا، أو شريعة أوروبا، أو شريعة إنجلترا، شريعة أمريكا، هٰذا استبدال.

فإذا كان الحكم به غالبًا صار تحكيمًا، يعني صار الحكم في أكثر أمور الشَّريعة بهٰذه الأحكام القانونية صار استبدالا، فمتى يكون كفرًا؟ إذا صَارَ استبدالا، ومتى يكون استبدالا؟ إذا كان تحكيم القوانين غالبًا، كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فتاويه ـ الشيخ محمد بن إبراهيم ـ أيضا مقيِّدا؛ سُئِلَ:

---

(١) الآية في سُورةُ النِّساءِ، وقال الشَّيخ صالح آل الشيخ في «تعليقه على فتح المجيد» بعد إيراده لـهٰذا التَّقرير للشَّيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأنه من نزّل القانون منزلة الشَّرع معتقدا أن الحكم به مثل الحكم بالشرع، أو لا بأس ما فيه شيء، أو نحّى الشرع تماما عن الحكم وبعّد الدِّين وأتى بشريعة أخرى فإنَّ هـٰذا كفر أكبر مخرج من الملة ؛ ولأنَّه اتخذه ربًّا واتخذه إلـٰهًا من دون الله جلّ وعلا.

أما لو فعل ذلك وهو يقول: إني عاصٍ، أطاعهم في الحكم، تحاكم أو أطاع في مثل هذه الأمور، في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وهو يقول: أنا عاصٍ وهو يقول: أنا عاصٍ، أنا عارف أنَّ الحكم حكم الله لكن أطعتهم ظاهرا ؛ هذا عاصٍ مرتكب كبيرة وكافر الكفر الأصغر الذي هو أعظم من الزنا وشرب الخمر والسرقة – نسأل الله جلَّ وعلَا العافية والسلامة –.

وعلى هـٰذا ينبني الكلام في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سُورةُ المائِدة].

متى يكون الحكم بالقانون كفرا؟ قال: (إذا كان غالبا فاشيًا)؛ لِـم؟ لأنه استبدل شريعة مكان شريعة، فإذا غلب ذلك صار استبدالا.

وهٰذا قيد مهمّ، وهٰذه المسألة يكثر فيها الكلام في هٰذا العصر، بين كلام متعلِّمين وعلى سبيل تعلُّم، وبين كلام جهال، وقلّ من يحرِّر الكلام فيها على نحو ما بيَّنه العلماء بدقة وتأصيل.

* قال هنا: (**والدَّليلُ قولُه تعالى**: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾).

* قال بعد ذلك: (**وهٰذا هو معنى لا إلٰه إلَّا الله**)، ما معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟ هو قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الكفر بالطَّاغوت هو معنى النَّفي بـ(**لا إلٰه**) والإثبات وهو قوله: ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هو المستفاد من قوله: (**إلَّا الله**).

* قال بعد ذلك: (**وفي الحديثِ «رأسُ الأمْرِ الإسلامُ وعمودُهُ الصَّلاةُ وذِروةُ سَنامِه الجهادُ في سبيلِ الله»، واللهُ أعلمُ، تَمَّتْ هٰذه الرسالة**).

وأسأل الله -جلَّ وعلا- أن ينفعني وإياكم بما في هٰذه الرِّسالة، وأن يهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا، وأن يجعلنا من المتعلِّمين حق التَّعلم، العاملين بما نعلم.

نسأله اللّٰهم أن يجعلَنا من أهل التوحيد؛ الذين يُعْلُون رايتَه، ويُنافحون عنه، ويُدافعون عنه وعن أهله، وأسأله لي ولكم العفو والغفران من جميع الزَّلل والسَّيئات، وأستغفر الله لذنبي ولذنوب جميع المسلمين، وأسأله أن يعفو عني ما حصل منِّي في هٰذا الشّرح الموجز من غلط لسان، أو سهو جَنان، أو انتقال للذِّهن، وقد اختصرنا في الأخير،

وكان حقهـا أن تُبسـط أكثـر مـن ذلـك بكثـير، لـٰكن لأجـل انتهـاء هٰـذه الدُّروس.

وهٰذا هو يوم الأربعاء الثَّامن من ربيع الأول لعام أربعة عشـر وأربعمائـة وألف [٠٨/ ٠٣/ ١٤١٤].

اللّٰهم اجعل بقيَّة أعمارِنا خيرًا مما سلف منها، وصلَّى الله وسلَّم عـلى نبيِّنـا محمَّد.

والحمـدُ لله الَّـذي بِنِعمتِه تَتِـمُّ الصَّـالِحات ..

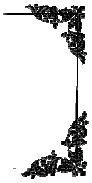

فهرس المواضيع

مُقـدِّمةُ الشَّـارِحِ ٣

أهمية رسالة ثلاثة الأصول ٥

أهمية أصول الفقه ٦

أهمية التفسير ٦

إعراب (ثلاثة الأصول وأدلتها).. ٩

المقدِّمةُ الأُولى.. أربعُ مسائِلَ يَجبُ تعلُّمُها ١١

الأولى العلم ١٤

الثانية العمل.. ١٥

الثالثة الدعوة إليه.. ١٧

الرابعة الصبر ١٨

شرح دليل المسائل الأربع ١٨

المقدِّمةُ الثَّانِيَةُ.. ثَلاثُ مسائِلَ يَجبُ تعلُّمُها والعَمَلُ بِها ٢٩

الأولى: الله جل جلاله خلقنا لغاية.. ٣١

الثانية: لا يرضى الله عز وجل بالشركة في عبادته.. ٣٦

مسألة: الفرق بين النَّبي والرَّسول ٤٠

الثالثة: عدم موالاة من حاد الله ورسوله ٤٢

مسألة: قسمي الموالاة ٤٥

المقدِّمةُ الثَّالِثَةُ.. الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إبراهِيمَ غ هيَ التَّوْحِيدُ ٥٠

الأُصُـولُ الـثَّـلاثَـةُ ٥٥

الأَصْلُ الأوَّلُ: مَعْرِفَـةُ العَـبْدِ رَبَّـهُ.. ٥٥

الفرق بين الألوهية والربوبية ٦٢

الفرق بين العلم والمعرفة ٦٥

الفرق ين الحمد والشكر ٧٠

سبب تفريق المؤلف بين الآيات والمخلوقات...................................... ٧٣

أنواع العبادة التي أمر بها الله سبحانه وتعالى.. ٧٧

تعريف العبادة عند الأصوليين ٧٨

تعريف العبادة عند شيخ الإسلام ٧٨

الدعاء قسمين دعاء مسألة ودعاء عبادة.. ٨٣

الشرك أقسام واعتبارات ذلك.. ٨٦

نوعي الأدلة على أنّ صرف العبادة لغير الله كفر ٨٩

قصة توضح معنى خوف السر ٩٣

باقي أقسام الخوف.. ٩٥

حقيقة الرَّجاء... ٩٧

حقيقة التوكُّل.. ٩٩

حقيقة الرغبة والرهبة والخشوع ١٠٦

حقيقة الإنابة ١٠٩
الاستعانة وأدلتها ١١٢
الاستعاذة.. ١١٧
حقيقة الاستغاثة ١٢١
شروط الاستغاثة بغير الله ١٢٢
الذبح وكونه عبادة.. ١٢٤
بل الذبح تجتمع فيه أنواع من العبادات ١٢٦
النذر ١٢٨
أقسام النذر ١٢٩
الأصلُ الثَّـاني.. مَعرِفَـةُ دِينِ الإِسْـلامِ بِـالأَدِلَّـةِ.. ١٣٣
المرتبة الأولى: الإسلام ١٤٠
تقسيم الإسلام ١٤٠
تعريف الإسلام ١٤٥
معنى (لا إله إلا الله) ١٤٧
معنى (محمد رسول الله).. ١٥٨
المرتبة الثانية الإيمان ١٦٢
الإيمان لغة وشرعا ١٦٣
أركان الإيمان الستة ١٦٩
مراتب القدر.. ١٧٤
المرتبة الثالثة: الإحسان ١٧٩

تلخيص ما جاء في الأصل الثاني.. ١٨٣

الأصلُ الثَّـالِثُ.. مَعرِفَـةُ نَبِيِّـكُمْ مُحمَّـدٍ ﷺ ١٨٥

نسبه الشَّريف باختصار.. ١٩٢

الصحيح أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق عليهما السلام ١٩٧

عمره –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–.. ١٩٩

التكبير في القرآن له خمسة موارد ٢٠٦

تعريف الوثن والفرق بينه وبين الصنم...................................... ٢١٢

الهجرة... ٢١٦

تعريف بلد الشرك ٢١٧

الهجرة هجرتان ٢٢٠

رؤوس الطواغيت ٢٤٢

التفصيل في الحكم بغير ما أنزل الله ٢٤٣

فهرس المواضيع ٢٤٨